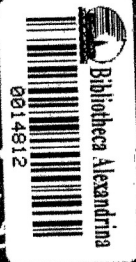


خَلِيلُ شَرْفِ الدِّينِ

الموسومة في الألفية الميسرة

أبو الغناهمية
حسن بن ثابت
الأعشى



الموسوعة الأدبية الميسرة

٧

أبو العتاهية

من الرفض الى القبول

تأليف

الأستاذ جليل شرف الدين

منشور
دار ومكتبة الهلال
بيروت

- جميع حقوق النقل والاقتباس
وإعادة الطبع محفوظة
لمكتبة الهلال
طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز لى بناية برمج الضامية
ملكه دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب. ١٥/٥٠٣ برقية مكنتهلال

استهلال

انسان وضيع، في عرف العصر وتقاليده
الأريستوقراطية الحاكمة. لكنه، في عرفنا، رفيع
ومغاير. . تعلق بالشعر، وتطاول بالموهبة، حتى دنا
من القمة، وتحدى كالباشق، بغاث الطير. . من
خلفاء وامراء وشعراء، ونقاد وحراس وزن وقافية. .

بائع جرار؟ ما هم! ما دام الذي يبيع الجرة،
قادرا على شراء المجرة، والتربيع بالشعر، والحرية،
على عرش الشهرة، وبالتحدي والرفض، على متن
الخلود. . أخذوا عليه تهتكه ومجونه وتماديه، فَعَتَّهوه
وسفهوه. . حتى في زهده بَوْذوه. . وأخذ عليهم
تسترهم، وتدليسهم، وكل ما هم فيه. . فانتخى
عليهم بالفن، وتميز عنهم، بالصراحة والجرأة
والتخطي. .

ثم انحنى امام القدر الغالب، والإله القادر، في
توبة نصوح.. ضج بها شعره، كما اعتلج كيانه..
فتظهر، في المجون، بالشعر.. وفي التوبة، بالصدق،
ربما، وحرقة الندم.

فمثل عصره أصدق تمثيل، بأصرح تعبير،
وتواروا هم خلف تفاهاتهم ومحدوديتهم، فلم يمثلوا
شيئا..

محا بالمغايرة والرفض وتألق الشاعرية، لقبه
المفروض، ليصبح رمزا من رموز التصعلك
المرفوض، والهوان المكذوب، الملتصق بأسرته،
ومهنته، زورا وبهتانا..

فاذا به يتأبى على كل ذلك، بالرفض الشاعر، او
الشعر الرفض.. وليجيء هذا الشعر، على طريقته
هو، وقد قياسه، وذائقة الفنية الخاصة.. لا على
طريقة وقياس وذائقة نقاد عصره وقواعد خليله..

وحين مر، في أكثر قصائده، بالوزن، فلم
«يشقلبه» وبالقافية، فلم «يجربطها» فقد كان ذلك رغما
عنه.. حتى اذا مشى على رسله و«تناول الشعر من

كمه» كما يقول، جرى شعره مجرى الطبع، وفاض
حتى غمر القياس، وطغى على العرف، ونحطى كل
قيد، او كاد.. وكان، حقاً، «أكبر من العروض»..

لعله كان، كجراره، في ضحالة القاع.. ما
إن تعباً الجرة حتى تفيض.. لا كالغدير أو الصهريج،
ترسب فيه النوحول، وتتأسن المياه، فلا تفيض..

وها نحن نعالجه بين فتكه وزهده، بين رغبته
ورهبته، ثم بين زهده وزهد الآخرين، علنا ننفذ
الى حقيقته، كما هي، لا كما ارادها المشوهون...

المؤلف

أبو العتاهية

من هو؟

هو اسماعيل بن القاسم بن سويد بن
كيسان، ينتسب الى قبيلة عنزة بالولاء، وكنيته ابو
اسحاق، وامه ام زيد بنت زياد المحاربي، مولى بني
زهرة. يقول البستاني في روائعه (رقم ١٠): «إن
أصل اجداد الشاعر من نصارى عين ثمر، بالحجاز او
قرب الانبار. فلما فتح خالد بن الوليد (سنة ١٢ .)
مدينة عين ثمر ، سبي كيسان جد أبيه مع جماعة من
الصبيان ، فاستوهبه عباد بن رفاعه العنزي من أبي
بكر، فاعتقه، فانتسب الى عنزة». وذلك على عادة
من اسلم من أهل الذمة، كما سيفعل كثيرون منهم
كأبي تمام مثلاً^(١).

(١) هذا رأي بعض المستشرقين في حقيقة نسب أبي تمام أما المحققون
العرب كصاحب الأغاني فإنه يجعل من أبي تمام عربياً أصيلاً.

أبوه:

كان القاسم والد أبي العتاهية حجاماً، مما زاد في ضعة نسب الشاعر، في نظر العصر، فاضطر أبو العتاهية (١) وهو المتقدم على عصره، كما سنرى، الى ان يرد هذا العار المزعوم بقوله:

ألا انما التقوى هي العز والكرم
وحبك للدنيا هو الفقر والعدم

(١) عتاهية لقب غلب عليه، أطلقه عليه الخليفة المهدي حين قصده الشاعر من الكوفة، فرده المهدي قائلاً انت انسان متحلق معته . . فاستوت له كنية غلبت عليه، دون اسمه وكنيته، واشتهر بها . قال الاصفهاني: ويقال للرجل المتحلق عتاهية، كما يقال للرجل الطويل شناعية. ويقال ابو عتاهية (باسقاط الالف واللام)، الاغاني ٢/٤ . وقيل بل لقب كذلك، لأنه كان يحب الشهرة والمجون، والتعته. وجاء في لسان العرب: رجل معته اذا كان عاقلاً معتدلاً في خلقه . . لكن ابن منظور يرجع التعته بمعنى الجنون، او ما يقرب منه. قال: كان الشاعر قد تعته (اي تدله) بجارية للمهدي، واعتقل بسببها. فعرض عليها المهدي ان يزوجها له. فأبت. واسم الجارية عينة. ونحن نرجح صحة هذه الرواية على الرواية الاولى. وقيل لقب بذلك لأنه كان مضطرباً. وقيل لأنه كان يرمى بالزندقة الخ . . . اما لفظة عتاهية فقد كانت اساءاً لا لقباً محسباً، كحسان بن عتاهية والي مصر سنة ١٢٧ هجرية. وابن دريد العالم اللغوي الشهير (٣٢١هـ) كان اسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن جشم (الفهرست ص ٩٧ ووفيات الاعيان ١/٤٩٧ .

وليس على عبد تقي نقيصة
إذا صحح التقوى، وإن حاك أو حجم

لكن العصر، ومقاييس العصر، كانت أقوى من
الشاعر، فالتصقت به ضعة النسب، كما
التصق اللقب.. وهذا والبة بن الحباب الشاعر
الماجن يهجو أبا العتاهية، فيقول:

كان فينا يكنى أبا إسحاق
ويها الركب سار في الأفاق
فتكنى معنوهنا بعته
يا لها كنية اتت باتفاق

وواضح، من هذا الهجاء، ومن سيرة أبي
العتاهية، أن شاعرنا كان في أول شبابه متهتكاً، ومن
عصبة المجان التي على رأسها والبة هذا وأبو نواس.
وحين تزهد، كان من الطبيعي أن يهجر العصبة،
ويندد بأعمالها وأوزارها. كما كان من الطبيعي
كذلك، أن يهجو رئيس العصبة التي ظلت سادرة في
غيها، متقلبة بخطاياها بين الكوفة وبغداد.

سمته:

كان أبو العتاهية طويل القامة، رقيق

التكوين . يصفه الاغاني نقلا عن محمد بن موسى بأنه كان قضييفا (أي دقيق العظم، قليل اللحم)، أبيض اللون، أسود الشعر، له وفرة جعدة^(١) وهيئة حسنة، ولباقة وحصافة^(٢) ورشاقة في الحركة، والايماء . روى عبد الله بن المعتز، انه كان ضعيف البنية، ويضيف المسعودي، الى ذلك، قوله : وكان مليح الوجه، مليح الحركات، حلو الانشاد، شديد الطرب .

أصله النبطي :

كان أبو العتاهية نبطي الأرومة عنزي الولاء . فمن هم هؤلاء النبط أو الانباط . وهل من صلة روحية وراثية تصله بهم ؟

نشأ في العصور الجاهلية، غير دول الجنوب، بضع دويلات زهت في شمال الجزيرة وأواسطها، وكان ازدهار هذه الدويلات الشمالية، كازدهار شقيقاتها دول الجنوب يعتمد على التجارة . وكانت

(١) تذكرنا وفرة هذه المجعدة، بوفرة المنني المجعدة الشقراء التي ذكرها في بواكير شعره عندما كان في المكتب العلوي بالكوفة قال : لا تحسن الوفرة حتى ترى معقودة الضفرين يوم التزال الخ

(٢) مروج الذهب ٢٤/١٣

أقدم هذه الدويلات مملكة الأنباط . واعتمادا على عامل الوراثة الذي لا شك فيه ، فأننا لا نستغرب ان يحترف والد أبي العتاهية الحجامة ويبيع الجرار ، وأخوه التجارة .^(١) وينسج شاعرنا على منوال أبيه وأخيه ، فيحترف مثلها الحجامة ويبيع الجرار ، بادىء امره ثم لا يرى ضيرا في ذلك .

والانباط كانوا عربا على ما يرجح الدكتور حتي^(٢) اما ما جاء في سفر أيوب من أن «نبايوت» و«نبتاي» و«نبتو» في الاشورية ، هم الانباط فمغلوط ، وليس صحيحا ، يضيف الدكتور حتي . اذن هم من العرب على الأرجح ، وكانت عاصمتهم البتراء^(٣) في شرقي الاردن . ازدهرت مملكة البتراء في ختام القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت نحو اربعمئة سنة تشغل مركزا على طريق القوافل الذي يقطع الصحراء واصلا

(١) على حد قوله : انا جرار القوافي ، واخي جرار التجارة (الاغاني ١٠/٤) وكان اسم اخيه زيدا .

(٢) تاريخ العرب المطول / ص ٨٧

(٣) بتراء : كلمة يونانية ، ومعناها الصخر (حتي : ٨٨)

بين سبأ في الجنوب، وبين ثغور بحر الروم (١).
وكان أوج ازدهارها أيام عبيدة، أو أبوداس الثاني
(٩٨-٩٠ ق.م.)، وخاصة أيام حارثة أو الحارث
الرابع، وكانوا يتكلمون العربية التي لم يكن لها حروف
تكتب في تلك الايام، فأخذ الانباط صور الكتابة
الآرامية عن جيرانهم في الشمال.. وما لغة القرآن،
ولغتسنا الحاضرة، سوى من ذلك الحرف
النبطي. (٢)

على هذا يكون ابو العتاهية ذا أصل عربي شمالي
صريح، فلماذا انتسب الى عنزة، أو لخم بالولاء؟

تلك كانت عادة عند المسلمين العرب الاقحاح،
وليست قانوننا، ان يعمد الذمي، حين يريد ان
يُسلم، الى تغيير اسمه أو تعريبه، وابدال اسم عائلته
باسم قبيلة من القبائل العربية. وهو ما كان يسمى
الانتساب بالولاء. يقول البستاني في «روائعه»
المضغوطة، ان أصل اجداد هذا الشاعر من نصارى
عين تمر (قرب الأنبار). فلما فتح خالد بن الوليد (١٢)

(١) المصدر نفسه ص ٩٢

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣

هجرية) هذه المدينة سُبي كيسان جد والد أبي العتاهية، مع جماعة من الصبيان، فاستوهبه عبادة بن رفاعه العنزري من الخليفة أبي بكر. فاعتقه فتولى عنزة. كما تقدم. على أن أبا العتاهية لم يكن يتمسك بهذا الولاء الموروث إلا عند الحاجة، كما صرح هو بذلك قائلاً: «ذلك شيء احتجنا إليه في ذلك الزمن. وما في واحد ممن انتميت إليه خير، ولكن الحق أحق أن يتبع...» وهو يقصد انتهاءه إلى اليمن، بعد انتمائه إلى عنزة.

ثم نراه وفقاً لوضعه، ينتقل في ولاءاته، من حي إلى حي، ومن قبيلة إلى قبيلة. ها هو يعلن ولاءه للخميين، حين يرى من بينهم من يرعاه، ويدراً عنه أذى الهجائين، والمفترين، ثم يعود إلى اليمانية، أيام المهدي، لأن أحوال الخليفة منها... ومن هؤلاء الأخوال يزيد بن منصور الذي كان يحب أبا العتاهية، ويقربه، حتى إذا مات يزيد هذا انقلب إلى ولاءه الأول... وهكذا فمن عنزية إلى يمانية، إلى لخمية إلى... كل ذلك بدافع وضعه الدقيق، وإحساسه العميق بأنه دون عليّة القوم، ودون الحاكمين مكانة ونسباً... إلا أنه

احساس كان يرفضه ويتحين الفرص لإزالته . وما زاد في اضطرابه وازمته النفسية إحساس آخر بأنه وإن كان دون هؤلاء نسباً، إلا أنه أفضل منهم شاعرية، وإن عدته في تسلق الشهرة أوفر، وادعى إلى تحقيق النصر، من عدتهم وعديدهم .

من هنا نشأ الصراع النفسي عنده، ولكنه لم يكن حاداً، اذ بدأ بالهجاء حيناً، وبالملاينة حيناً آخر. ظهر كل ذلك في اضطرابه، وتناقض مواقفه، وجاء شعره مرآة صافية تنعكس عليها هذه المواقف، وذلك الاضطراب . .

فلم يكن غريباً منه رفضه وتحديه، واغراقه في الملذات، واستغراقه في المجون. ومن ثم رده إلى الزهد مرة . . وارتداده إلى المجون مرات . . إلى ان استقر به الأمر إلى ما يشبه العزلة السلبية، واجترار حياة يائسة، خائفة، مستسلمة . .

تأثير الصفات والسمات

كان لصفاته وسماته الخلقية والخلقية تأثير كبير على تكوين شخصيته وأخلاقه . فاذا استثنينا ضعف بنيته، ورقة عظامه، وشيئاً من ترجمه بين الاهتزاز والاضطراب والخفة، نراه انساناً موهوباً، حبه

الطبيعة بسمات متعددة ذات أصول موروثية، كما رأينا،
رزق بمقتضاها ملاحاة الوجه وحسن الهيئة، وحلاوة
الانشاء، وسرعة الطرب والإطراب. ودقة التمييز
السمعي، والتوقيت الايقاعي. وهي قدرات،
واستعدادات عقلية تشير بوضوح الى القدرات الفنية
الكامنة فيه (١).

وهذا كله يعني التميز بذكاء خارق لا يتاح، في
العادة، الا للموهوبين، وذوي الشخصية الخلاقة.
وينبغي ان نلاحظ أن الرهافة الحادة، بمقدار ما هي
سمة مميزة وإيجابية العطاءات، ذات خطورة بالغة على
كيان المرء وسلوكه. وبالتالي فهي ذات عطاءات
سلبية. وبتعبير أصح، ذات مفاعيل هدامة، يبرز
معها صاحبها صراغيا، ومتناقضا مع واقع
الاجتماعي، والنظم السائدة فيه. لا سيما اذا كانت
هذه من النوع السخيف المرفوض عقليا. كاعتقاد
الناس، يومها، بان كل من تعاطى عملاً، او صنعة،
كان وضيعاً مرذولاً! أو ان كل من لم يكن نبيلاً، او
عربياً صليبا، او صريح النسب، او اد نسبه لا يرقى

(١) للاستزادة انظر كتاب: تحليل الشخصية. محمد بركات ص ٦٩
القاهرة.

الى كبار القوم، وكبريات القبائل، كان مذموماً .
فكيف اذا كان مطعوناً في دينه، او عقيدته . . ان مجرد
الإحساس بهذا الواقع المؤلم، وشدة وقعه على النفس،
يجعل من صاحبه انساناً مغايراً، في نظرنا، حتى اذا
جاهر برفضه كان انساناً متقدماً . تماماً كما جرى
لبشار، وأبي نواس، وابن الرومي، والمتنبي، وأبي
العلاء، والى حد في كبير أبي تمام . .

هؤلاء اختلفوا احساساً بالفاجعة، وتوافقوا
عقلاً وروحاً، وبدا ابو العتاهية كأنه يرهص،
برفضه، لما رفضوه، ويضع اسس ثورتهم على أوضاع
عصرهم، ومفاهيم اللغة والشعر لديهم . .

عصره :

ولد ابو العتاهية، كما ذكر ابنه محمد
سنة ١٣٠ هجرية . أي انه ولد في رحم الثورة
العباسية الكبرى، او الانقلاب الكبير الذي حدث في
تاريخ الدولة الاسلامية، وانتقال العرب والمسلمين
من حياة البداوة، او نصف البداوة، الى حياة
الحضارة التامة، الملقحة بشتى التيارات الثقافية،
والدينية والمذهبية والفنية الوافدة . . وتلك العلوم التي

حملها الداخلون في الدين الاسلامي من انماط الحياة الجديدة، وطرائق العيش، وفنون العمارة والموسيقى والادب والفكر والفلسفة، ومفاهيم اللذة.. فكان أن أحدث، كل ذلك، ثورة أخرى، لا تقل خطراً عن الثورة، الانقلاية المسلحة الأولى. الأمر الذي خلق واقعاً جديداً كان على الانسان العربي ان يحياه بكل مظاهره، وان يتفاعل مع خالقيه، بكل أبعاده، سلباً أو إيجاباً. مما أثار صراعاً عنيفاً في النفوس، وأحدث اضطراباً خطيراً في المفاهيم، وزج بالعقول الناشئة في أتون رهيب من الجدل والشك والبلبله.

وكان طبعياً ان يبرز على ساحة بغداد والبصرة والكوفة انسانان: انسان عربي مسلم محافظ، وآخر مسلم غير عربي، ثائر على كل قديم، داع لكل جديد. والناس بينهما حائرون مرتبكون، مذهولون او مندهشون، والدوامه تعصف بالجميع، وتخلخل اركان المجتمع^(١)

(١) وهذا ماسمي بالحركة الشعبية. وهي حركة داخلية نشأت ضمن اطار الاسلام، بين مسلمين عرب ومسلمين من غير العرب. هؤلاء =

وبيدي ان الشعراء أقرب الناس الى الانفعال
بكل هذه التيارات، واسرعهم الى الأخذ بجديدها،
وابرازه حارا لاهبا في شعرهم، لا سيما من كان متوفز
الحس نواقا الى كل مغاير، سريع التلقي، كأبي
العتاهية. وسنرى، كذلك، ان الصراع بين هذين
الانسانين سيكون شرساً ومدمراً. مما سيرمي بكثير من
الشعراء والادباء في جحيم من الشك والارتياب، بل
والكفر احياناً، كما سيرمون، من قبل التيار المحافظ،
بالزندقة والفسق، لما كان يبدو عليهم من حياة العبث
والمجون والهرطقة.

اما مكان مولد الشاعر فهو على التحديد في

= يحملون بذور حضاراتهم القديمة ومدنيتهم الغابرة، يريدون ان
يلدوها من جديد في التربة العربية الخالية من البذور الحضارية
لهم إلا بلرة الاسلام. واولئك يحاولون انقاذ دينهم وبراءة انسانهم
من ان يداخلهما الشك والزيف والتحريف. وعندي ان الانفتاح على
الخارج قد افاد العرب كثيراً من الناحية الفكرية والأدبية والفنية
والاجتماعية، كما أضر من الناحية السياسية. وما جره الموالي الفرس
ولا سيما الاترك من مأسٍ غيرت مسيرة الثورة العباسية تغسيراً
جذرياً خطيراً. . اما الانغلاق، بداعي الحرص على الدين فلم يفد
في شيء. . ولو عرف العرب المسلمون كيف يتعاملون مع هذه الموجة
لتغير وجه التاريخ. . المؤلف

عين ثمر القرية من الكوفة. ولا نعلم شيئاً عن نشأته هناك، ولكن الواضح انه نشأ فقيراً الحال، يساعد أباه في بيع الجرار والحجارة، ويبدو ان الأب قد ضاق بوضعه، وتاق الى حياة أوسع، فانتقل الى الكوفة حاملاً معه ابنه الصغيرين، زيدا وابا العتاهية. وما كاد هذا الأخير يشب عن الطوق حتى نراه يجنح مع الجانحين، ويتنظم في سلك المخشئين الذين تكاثروا في الحواضر، بفعل الموجات الحضارية الوافدة والتي تحمل في ثناياها بذور التخث والتخلاء والمجون، الى جانب ما تحمله من افكار جديدة، وفلسفات، وطرائق عيش لم تألفه الأجيال العربية فيما مضى، وطبيعي ان يسرع هذا الفتى في الجنوح، أكثر من غيره، لما كان يعمل في نفسه من شعور بالضيق، وإحساس عميق بالدونية، كانا ينميان فيه كبناً كثيفاً، لم يجد معه ابو العتاهية بداً من التنفيس عنه بالانزلاق في حمأة المجنون من جهة، وبتفجير ملكاته، في اعمال تدميرية مثيرة.. كما يؤكد علماء النفس اليوم.. او بابداعات فنية، والاتيان بروائع مدهشة، في اطار مواهبه الخاصة، من جهة أخرى..

وهذا تقريباً ما فعله ابو العتاهية المسحوق المحبط
الممزق داخلياً، الذي سرعان ما نراه يتدفق بالشعر،
مهما كان نوع هذا الشعر، ويتعبير أصح، يتنفس
بالشعر، وينفس به عن غلوائه، ويرتاح الى قذفه،
يومياً، في وجوه الناس، مداعبا، او ناقدًا، او هاجيا،
او متغزلاً . . ثم . . واعظا وزاجرا، وداعيا الى الله . .
ولعل هذا، كان سلاحه الوحيد في محاربة «الآخر»
وتحديه وتهشيمه، والوصول، بالتالي الى الشهرة،
ومحو العار المصطنع الذي ألصق به وبأسرته، ومهنته،
وأصله . .

وكانت بداية «المشوار» الطويل على طريق الشهرة
وتحقيق الذات، في الكوفة، حيث راح المتشاعرون
والصبية يتهافتون عليه لينشد لهم أشعاره، فيسارعون الى
تسجيلها على ما نثر من الخنزف في دكان أخيه زيد.
أو على ما يشترونه من الجرار (١).

وتلا ذلك خطوة ثانية هي الانخراط الكلي،
هناك، بعصبة المجان من الشعراء أمثال مطيع بن

(١) اغاني ٩/٤

لياس، ووالبة بن الحباب، وأبي دلامة، وحماد عجرد،
ويحيى بن زياد، وغيرهم ممن كانوا «حلية الأرض،
ونقش الزمان»^(١) على حد تعبير الثعالبي

هؤلاء كانوا قد ملأوا الدنيا مجونا وخلاعة،
وخلقوا موجة عارمة من الفسق والزندقة، اجتاحت
الجيل، خاصة الجيل المثقف المترف، ممن كانت
الكوفة تعج بهم وبأمثالهم من عرب، وفرس وسريان،
وصابئة^(٢). مما ولد نشاطا فكريا ضخما في شتى
الميادين. وكانت أرض الكوفة تنطوي على بذور قديمة
لديانات وعقائد كثيرة: كالمناوية التي تجمع بين
الزراداشتية والنصرانية، الى جانب بذور البوذية،
والمزدكية، هذه البذور ظهرت على السطح فتأثر بها
الجيل العربي المسلم الناشيء، وخلقت فيه نزعة قوية
الى الشك امام كل شيء. . يقابل ذلك ملل ونحل
اسلامية كانت قد تشكلت ونمت بحكم استمرار
الصراع الديني والسياسي القديمين: كالشيعة المعتدلة،
والغالية، وبقايا الخوارج. وطبيعي ان يتأثر شاعرنا

(١) الثعالبي ثمار القلوب ط ١٩٠٨ ص ٤٠٧

(٢) من صبا بمعنى خرج عن الدين الى دين آخر

المتحفز بها جميعا، فيظهر على سلوكه، وفي شعره،
وأقواله، الشيء الكثير منها.

كما وجد تيار أدبي آخر، أدخله الوافدون على
الكوفة، ليشاركوا عصابة المجان مجونهم، كابن المقفع
في أول أمره، ومحمد بن الأشعث، وابن عون
العبادي.

ولعل أسلوب ابن المقفع في كلامه، وفي أدبه
الذي نعت بالسهل الممتنع، هو الذي تأثر به شاعرنا
في قول الشعر «السهل الممتنع» إذا جاز التعبير. إلى
جانب مؤثرات أخرى سنذكرها حين نعرض لتحليل
خصائص شعر أبي العتاهية الفنية.

ها قد وجد شاعرنا في الكوفة كل ما يبتغيه،
ويتوق إليه، ليستر ضعف نسبه، ويحوّذ
نشأته^(١). وهذه هي بيئته الأولى يحول فيها باكورة

(١) وجدنا في المراجع القديمة والحديثة اجماعاً عربياً غريباً على ضعف نسب
أبي العتاهية، فقط لأنه كان نبطياً، ونهرانياً. . . فإذا كان أصحاب
المراجع القديمة معذورين لجهلهم التاريخ، ولتعصبهم على كل من لم
يكن عربياً قرشياً أصيلاً، وذات نسب صريح. . . فما بال أصحاب المراجع
الحديثة يجارونهم في جهلهم مؤكدين ضعة نسب أبي العتاهية،
لمجرد أنه كان نبطياً. . . تماماً كما قال القدماء ١٩! ولو تبصروا قليلاً، =

جولاته، اما بيئته الثانية فكانت بغداد المهدي
والهادي والرشيد. فكيف انتقل اليها؟

كان شاعرنا قد تعرف، في الكوفة، الى مغني
نبطي ناشيء هو ابراهيم الموصللي. وكانا صديقين
متحابين. وحين ضاقت بهما الكوفة، على رحبها حرية
ولذاذة عيش، ووفرة علم وأدب وفن، توافقا على ان
ينتقلا الى بغداد «عاصمة الدنيا» آنذاك، وملاذ الطامحين الى
الشهرة والمجد من كل نوع. . انتقلا اليها ليواجهها
مصيرين مختلفين: ابراهيم الموصللي ليصبح المغني
الاول في بلاط المهدي، ولا سيما بلاط الهادي واخيه
الرشيد، وشاعرنا لينال من المهدي، بدل الجائزة، لقبا
حمله الى الأبد هو أبو العتاهية! .

وهكذا فاجأه الفشل فور قدومه الى بغداد،
ولعل ذلك عائد الى جرأته وتحديه، وتسرعه في طلب
الشهرة.

= واطلعوا على حقيقة اصل النبط، او الانباط (راجع ص ٣ من هذا
الكتاب) لعلوا انهم كانوا عربا انشأوا امبراطورية قوية تحدث روما
نفسها ايام الرومان. الا اذا كان سبب الطعن دينيا. . وذلك احمى
وأمر. .

ترك ابو العتاهية بغداد، وفي قلبه حسرة وحقد،
عائدا الى الكوفة، عن طريق الحيرة. وفي الحيرة رأى
فتاة تدعى سعدى تستأجر كنائحة في المآثم لرقّة
صوتها، وكانت مولاة لبني معن بن زائدة، ذات جمال
ودلال، فأحبها، وتغزل بها. لكن سعدى أعرضت
عنه وشكته الى مولاها عبد الله بن معن، فزجره
ونهاه، فتصدى له الشاعر بالهجاء المقذع، فعاقبه الأمير
على هجائه بمائة سوط! ^(١) وتدخل مواليه من عنزة،
وكفو السانه . .

وفاء الاصدقاء:

لم يمكث ابو العتاهية طويلا في الكوفة، اذ ما
لبث ان ارسل اليه صديقه ابراهيم الموصلّي، يطلب
منه اللحاق به، فقد اقبلت عليه الدنيا، في خلافة
المهدي، وأصبح المغني الاول في البلاط، لكنه لم ينس
صديقه الشاعر المسكين . .

طار اليه ابو العتاهية، وهناك قدمه الى الخليفة،
فمدحه ابو العتاهية بقصيدة نالت إعجابه، ورضي

(١) ما شاء الله! كم كانوا حريصين على جوارهم! ولو عقلوا لحرصوا
على امبراطوريتهم قبل ان يسرع اليها الزوال!

عنه، وقربه، ولكن اللقب ظل يلزمه، غير ان شوقي
ضيف في كتابه «العصر العباسي الاول صفحة ٢٣٩
يرجع ان يكون اللقب (ابو العتاهية) الذي اطلقه
عليه المهدي، جاء بعد اللقاء الاول مع الشاعر،
وبعد فترة الاعجاب المتبادل، اذ يقول: «وتمر الأيام
بأبي العتاهية باسمه. لكن سحابة لا تلبث ان تنعقد
في سمائها، فقد تعلق الشاعر بجارية من جواري
زوجة المهدي رائطة بنت السفاح^(١) وهي عتبة،
وكانت تزدره، كما ازدرته سعدى من قبل. ومضى لا
يكف عن غزله بها، ولا يرعوي، فعرفت مولاتها
خبره، وأثارتها عليه، فحدثت المهدي بشأنه، فغضب
لتعرضه لحرمة جواري قصره، وأمر بضربه مائة سوط
وسجنه! ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري
ان شفع له لدى المهدي، فعفا عنه ورد
عليه حريته. ويقول الرواة انه لم يكن يجبها حبا
صادقا، انما كان يريد الشهرة في الاوساط الادبية
بذكرها، وانه امتحن في حبها، واثبت الامتحان

(١) جاء في مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٥ ان عتبة هي جارية الخيزران
وليس رائطة.

كذبه، وانه انما كان يتكلف هذا الحب تكلفاً^(١) لكن
المسعودي يتبت في «مروجه» انه كان صادقاً في حبه،
بدليل ان المهدي بعد ان رضي عنه «أمر له بخمسين
الف درهم، ففرقها ابو العتاهية على من كان بالبواب»
. فوجه اليه: ما حملك على ان أكرمتك بكرامة
فقسمتها؟ قال: ما كنت لأكل ثمن من أحبيت الخ.

ومهما يكن من امر تاريخ هذا اللقب، فانه لقب
أصبح قدر الشاعر المقدور. ولم يضره في شيء.. بل
لقد أصبح، مع الأيام رمز شاعر موهوب لامعته..
ولعله الشاعر الوحيد الذي ننسى، في رحابه، معاني
لقبه..

ويتوفى المهدي، فيخلفه الهادي (١٦٩ - ١٧٠هـ).
ويتقرب منه ابو العتاهية، مطلقاً فيه مدائحه، ويجزل
الخليفة عطاياه على الشاعر. ثم يستخلف الرشيد
(١٧ - ١٩٣هـ). وكان شاعرنا على صلة وثيقة به ايام
ابيه المهدي، فوصل ما انقطع، ولازم ابو العتاهية
قصر الرشيد لا يبرحه، مرافقاً الخليفة في جله
وترحاله. وكان يجري عليه كل سنة خمسين ألف

(١) نقلاً عن زهر الاداب وتاريخ بغداد.

درهم ، فضلا عن الجوائز السنية»^(١) واخذ الشاعر
يمدح كبار رجال الدولة، امثال يزيد بن مزيد
الشيبياني، وينال جوائزهم، ما عدا البرامكة الذين كان
لهم شعراؤهم، مثل أبان اللاحقي، واشجع
السلمي، فلماذا لم يقربوه مع إعجاب زعيمهم
جعفر بن يحيى به وكذلك الحسن بن سهل الذي كان
يجري لأبي العتاهية ثلاثة آلاف درهم كل شهر؟
أغلب الظن ان الشاعر قد اسرع في الميل الى التزهد،
فانقلب واعظا، والامراء لا يعجبهم الوعظ ولا يصغون
اليه، ومنهم البرامكة.

هنا، يبلغ شاعرنا القمة في الشهرة والثراء
والتهتك. فقد راح ينفق المال على ملذاته، ومجونه،
وتسريه، مع عصابة السوء اياها، سادرا في غيه
وفجوره، برفقة والبة، ومطيع، وأبي نواس، أولتقل
بلغة اليوم: متسعملا حرите الى أقصاها، مستغلا شبابه
وظروفه حتى مداه.. وكان قد تجاوز الاربعين من
عمره، فكأنه أراد، بهذا، نسيان أيام الجوع والتشرد،
والفقر والضياع من جهة، وتحقيق الذات

(١) اغاني ٧٤/٤

وتحدي «الآخر» من عصر، وتقليد، وقيم أهين بها
لافتقاره إليها، كالعروبة الخالصة والنسب الصريح،
والعقيدة الصافية، من جهة أخرى . .

انقلاب خطير

الى ان حدث ما ليس بالحسبان: لقد أعلن ابو
العتاهية زهده، وانصرافه عن العصابة، وقصر
الخليفة، فلماذا؟ وما هي الأسباب؟

سنة ١٨٠ هجرية انتقل الرشيد الى الرقة، وانتقل
ابو العتاهية الى الزهد . لكنها كانت مجرد صدفة في
التزامن، اثارى الرشيد، فحاول ان يردشاعره الى ما
كان عليه من حياة المجون، وما كان يطرب الرشيد
من رقيق غزل الشاعر وجزيل مدحه . . لكنه
امتنع . . ويضيق الخليفة بامتناعه، ويأمر بضربه
وحبسه . . ثم بالتخفيف عنه طمعا بعودته . غير ان
الشاعر يأخذ في استعطافه بمثل قوله :

انما انت رحمة وسلامة
زادك الله غبطة وكرامة
لو توجعت لي فروحت عني
روح الله عنك يوم القيامة

ويرجّو الرشيد عنه ويطلقه . . ويمضي الشاعر في
تزدهده، والاكتثار من ذكر الموت والفناء، والثواب
والعقاب يوم الحساب، والدعوة الى الاعتبار،
والاقلع عن مثل ما كان هو فيه، من فساد وغى
واستهتار. اما انه لم يذكر المعاد والحساب في زهدياته،
فليس صحيحا، كما سنرى.

السبب الأقوى:

يبدولنا ان الشاعر بعد ان اوغل في الخطيئة،
واسترسل في الغواية وقد ارق جسدنا ونفسنا، وتقدم
به السن حيث شارف على الخمسين، ومل حياة
المجون، اراد ان يمضي ما بقي من عمره في انتهاز
نمط حياة هادئة، رزينة، تأملية، يكفر فيها عن ماضيه
المثقل بالأوزار. وذلك أمر طبيعي حدث ويحدث
للكثيرين أمثاله. من مرهفي الاعصاب والمشاعر. حتى
ابو نواس، احد رفاق الشاعر في العصابة، كان في
فترات عديدة، يستفيق على ما هو فيه، فيهوله،
فيطلق ضراعات شعرية تنم عن مكنونات نفسية
ملتاعة، نادمة، منيية، لاسيما في لياليه الموحشة، حين

كان المرض يستبد به، وتشتد عليه نوبات الربو. (١)
هذا الداء الذي يصيب عادة المدمنين على الخمرة،
المستهترين بصحتهم. لكن ابا نواس سرعان ما كان
يعود الى غيه ومجونه بمجرد ان يطلع عليه الفجر،
وتزول نوبة المرض العضال، فيبدأ نهارا جديدا، وكأن
شيئا لم يكن، اما ابو العتاهية فلم يكن يسرع في
العودة. كزميله، ولعله ما عاد مطلقا، كما يفهم من
سيرته، مهما قيل في صحة زهده، ومداه. .

السبب الأوهى:

اما ما يقال عن اختلافه مع رئيس عصابة المجان
والبة، واحتدام ذلك الخلاف حتى تكسر في مهاجمة
حاددة متبادلة، نال فيها ابو العتاهية من والبة منالا
عظيما، رغم تقدم هذا عليه بالسن والشهرة، فان هذا

(١) انظر كتابنا: ابو نواس: مجددام شعوي: الصادر عن دار ومكتبة
الهلل بيروت ١٩٨١

(١) اغاني ١٢/٤

ليس سببا معقولا، لينتقل شاعرنا من ضفة الى ضفة،
ومن حياة الى حياة.

السبب غير المباشر:

الى جانب ذينك السبيين المباشرين: النفسي
والشخصي، نحن نرى سببا آخر بعيد مدى
المفعول، هو تأثر شاعرنا بفلسفات، وعقائد قديمة
مختلفة. فقد رأيناه يعيش في بيئة علم ومعرفة،
وتثقف عن طريق السماع والمعايشة والمدارس،
لكل ما كانت تعج به الكوفة، وبغداد، وقصور
الخلفاء، المهدي والهادي والرشيد، من تيارات
فكرية، وجدل كلامي وعلوم وافدة، وفنون راقية.
ورأينا شاعرنا يعتز بكل ذلك، ويشارك فيه. حتى
انه كان يعد نفسه «عالما». وكتب السير تشير الى علمه
وثقافته في غير موضع.. لذا جاء زهده متأثرا بكل
تلك التيارات الفكرية، ولا سيما المانوية والبوذية.

الشاعر - العالم :

جاء في الاغاني: «حدثنا النوشجاني قال: اتاني البواب يوما فقال لي: أبو اسحاق الخزاف بالبواب. أئذن له. فاذا ابو العتاهية قد دخل. فوضعت بين يديه قنوموز. فقال: قد صرت تقتل العلماء بالموز! قتلت ابا عبيدة بالموز، وتريد ان تقتلني به! لا والله لا أذوقه.» فهو بهذا يساوي نفسه بأبي عبيدة كبير شيوخ وعلماء هذا العصر في علوم اللغة العربية وآدابها وأخبارها، فقد ذكر له ابن النديم في فهرسته أكثر من مائة مصنف في القرآن والأمثال والفتوح والانساب والفقه، والأخبار والتراجم (١).

لكن هذا رأي شخصي لانعتد به، اذا لم يؤيده علماء ومؤرخون آخرون. روى الخطيب البغدادي ان صديقا لأبي العتاهية دخل عليه في مرضه الذي مات فيه، وكان قد أغمض عينيه. قال: فقالوا: كلمه. فقلت: يا أبا اسحاق. فلما سمع صوتي فتح عينيه. فقلت: أعزز على العلماء بمصرعك» (٢).

(١) الفهرست ٨٥ - ٨٦

(٢) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٦

وهذا جامع ديوانه ابن عبد البر النمري
يعده من العلماء، ويذكر الخصومة التي كانت بينه
وبين منصور بن عمار في: باب قول العلماء بعضهم
في بعض، من كتاب العلم. كما يقول عنه
انه، «داخل العلماء والصالحين، ونظم ما استفاده من
أهل العلم من السنن وسير السلف الصالح في
قصائد زهدية اعتبارية، تدعو الى الاقتداء بهم، وتحث
على مكارم الاخلاق.

غير ان هذا لا يعني انه كان عالما متفرغا. او ان
علمه ذو سمة منهجية أكاديمية اذا صح التعبير
شيمة معاصريه من العلماء او الفلاسفة او المناطق
او المتكلمين. كل ما في الأمر انه كان مراقبا ومقتبسا
من هؤلاء. فقد كان له، في شبابه، منصرف
آخر، ومعايشة من نوع آخر: كان متخصصا بالمجون
ومعاشرة الماجنين. وكان له من تجاربه، ومن مكونات
شخصيته، ودقة ملاحظته، واستعداده الفطري،
ويقظة حواسه، وحده ما استطاع به ان يغني، في
شعره، الكثير من الآراء والتأملات في الحياة والموت،
فضلا عن اقتباساته من الافكار، والعلوم السائدة في

عصره . وهذا ديوانه مختبر لكل تلك التجارب ،
وبوتقة انصهرت فيها كل مسائل المعرفة ، والخبرة ،
والدراية في شؤون الناس وشجونهم ، ومفاهيم الحياة
والأحياء ، من مضى منهم ومن عاصر ، لا سيما
مصائر كبار القوم من ملوك وباطرة ، وقيصرة ،
واكاسرة . كما تناول في شعره الزهدي الله وصفاته
واوامره ونواهيه ، ومسألة الخير والشر ، والجبر
والاختيار ، والايمان والكفر ، والقضاء والقدر ،
والحساب والعقاب ، والحشر والجنة والنار ، وأخلاق
الناس ، وما هم عليه من تقوى وفجور ، وغنى وفقر ،
وكفاف وقناعة ، وهو وشباب ، ومشيب ، ونسيان
وتذكر ، الخ . كل ذلك في نشيد صريح ، او نشيج ينم
عن شخصية منفعة احيانا ، يكل ما اختلط على
الناس فهمه ، او شذوا عنه ، او دعوا اليه ، وحيانا
أخرى ، عن شخصية غير منفعة ، تورد الحكمة او
الموعظة ايرادا تقريريا باهتا . تماما كما وردت في كتب
التعاليم ، وخطب الحكماء ، وكلام العظماء ، دون تغيير
او تبديل ، الا بالقافية . . ولولا هذه لما شعرنا بأن ما
يقوله هذا الواعظ ، شعر او نظم . .

مذهب الشاعر :

يخبرنا الأب لويس شيخو، وفؤاد افرام البستاني في «روائعه» نقلاً عنه) ان أهل الشاعر كانوا من النصارى. اما الشاعر فقد اسلم، ولكن على غير اسلام صحيح، كما زعم البعض. غير ان اشعاره واخباره لا تشير الى شيء من هذه التهمة التي لا شك في ان بعض خصوم الشاعر من متدينين محافظين، او شعراء حاسدين قد قذفوه بها، كما قذفوا غيره من شعراء المجون، ورموهم بالكفر والزندقة، لما هم فيه من استهتار بالطقوس الدينية، لا لما انطوا عليه من اسلام وايمان.

حدث الصولي في اوراقه قال: كان مذهب ابي العتاهية القول بالتوحيد. وان الله خلق جوهرين متضادين، لا من شيء^(١) ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما، وان العالم حديث العين والصفة، (محدث)، لا محدث له الا الله. وكان يزعم ان الله سيرد كل

(١) تعبير الصولي غير دقيق فلسفياً. فكلمة خلق تعني الخلق من شيء. فاذا كان المخلوق من لا شيء كان مبتدعاً. من ابدع وليس خلق. المؤلف

شيء الى هذين الجوهرين المتضادين، قبل ان تفنى
الأعيان جميعا. وكان يذهب الى ان المعرفة واقعة
بقدر الفكر والاستدلال، والبحث طباعا. وكان يقول
بالوعيد، ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، لا
يتنقص احدا، ولا يرى الخروج على السلطان، وكان
مجبرا...»

وعلى هذا يكون ابو العتاهية قد أخذ بنصيب من
الفلسفة الاسلامية، او التفلسف، كما أخذ عن
المناوية، وهو الذي امض ثلاثين سنة من شبابه في
الكوفة، ثم في الحيرة، أخيرا في بغداد: عاصمة
الفكر والفقه، والفن، والشعر والفلسفة. هذه
الفلسفة التي بدأت تفعل فعلها في عصر الشاعر، اثناء
حركة النقل الكبرى عن الفارسية واليونانية، بواسطة
ترجمة سريان وفرس، لكثير من العلوم والمذاهب،
والعقائد، والفلسفات.

كما سنرى انه أفاد من الحكمة، وشعر الاعتبار
للذين نقلوا مع ما نقل من الهندية والفارسية،
واليونانية، ومن مصادر أخرى غير اسلامية كالتصرانية
والمناوية^(١). وقد أتضح ذلك في سلوكه، وبعض

(١) نسبة الى ماني بن فاتك الحكيم (٢١٥ ق.م.) البابلي المولد =

شعره. واذا ما علمنا انه امضى ردها من حياته في الحيرة، وهي من المراكز المسيحية الهامة، وان عين التمر، مسقط رأس الشاعر، هي ايضا من تلك المراكز، واذا ما عرفنا ان المانوية ليست سوى مزيج من النصرانية والزراداشتية وانها عقيدة لعبت دورها على مسرح الافكار والعقائد، بلسان زنادقتها من مفكرين، وشعراء، وكتاب، ووزراء، ادرکنا ما كان لتلك المراكز، ولهذا الدور، من تأثير خطير على تفكير علماء المسلمين وشعرائهم، وكتابهم. حتى ان الخلفاء العباسيين « قد أفرعهم ذلك » على حد تعبير صاحب الفهرست لكثرة ما نفثوا من افكار، وما بثوا من

الفارسي الأصل. قضى حياته يشرب بدين جديد، ومحارب المجوس ومحاربونه. حتى تغلبوا عليه وصلبوه دون ان يقضوا على فكرته. كان والد ماني من المغتسلين. وهي فرقة مسيحية ضالة، تدعو الى التطهر بالعماد وليس الثياب البيض رمز الطهارة ادعى ماني انه المسيح الثاني، اي البارقليط الذي وعد به يسوع... وانه جاء العالم «بديانة الخلاص» وقد اخذ من الديانات الايرانية، الثنوية التي تجعل في العالم مبدئين: مبدأ خير ومبدأ شر، نور وظلام، والخلاص من الشر ممكن بواسطة التطهير، وهذا التطهير يكون عن طريق المعرفة الخ... انظر: تاريخ الفلسفة العربية ج ١ ص ٢٦ وما بعدها للدكتور خليل الحبر وحنا فاخوري دار المعارف بيروت ١٩٥٧.

عقائدهم الثنوية القديمة، تارة في علانية متحدية جسورة، وتارة في سرية مقصودة تحت شعار من ملل ونحل اسلامية مختلفة. وقد لعبت الشعوبية دورها، الرديف لذلك الدور، مما بلبل الأفكار، واشاع الشك، ونشر الزندقة^(١). وواضح تأثر أبي العتاهية بهذه العقائد عامة والمائوية خاصة، فهو يرى في اصل التكوين جوهرين متضادين، يصير العالم اليهما قبل فنائه. فمن المعروف، ان مبدأ ثنوية المائوية تقوم على هذين الجوهرين المتضادين، اذ يرى ماني واتباعه ان العالم نشأ عن اصلين هما: النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر، وكل منهما لا يقدر على الآخر. وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجا تاما. وفي رأس المائويين ان هذا العالم شر، لأن امتزاج النور بالظلمة فيه، شر. . ولهذا نزعوا منزعا رهبانيا، فحرموا النكاح استعجالا للنفاء. . وهم بهذا انما يجعلون اعمال الانسان من خير، او شر، جبرية، لانها تصدر عن هذين

(١) نيكلسون: تاريخ العرب الادبي ص ٣٧٢

الاصليين او المصدرين: النور والظلمة، او الخير والشر.

وسنجد في اقوال وأشعار أبي العتاهية ما يكون مذهبا في الحياة هو مذهب الجبرية نفسه القائل بالجوهريين المتضادين، يقول ابو العتاهية: «ان كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله.»

وهذا تأكيد لقول الجبرية يكاد يكون حرفيا. فهم ينفون - كما علمنا - الفعل عن العبد ويضيفونه الى الله الفاعل القادر الخالق^(١).

وحين نسترسل في استقراء اخباره واشعاره واقواله نقف على شخصية مثقفة ارادت، بطموحها، ان تحقق مجددين على الأقل: مجد الشعر، ومجد المعرفة، فنهلت من كل ينبوع، وما أكثر الينابيع، في عصره، على ضحالة بعضها، من دينية، ومذهبية وفلسفية، فجالت جولات، واعطت آراء، ولكنها لم تلتزم بواحد منها، ولم تجهر بما يصيها من أذى. . كانت شخصية انتقائية، اذا جاز التعبير، تأخذ من كل لون بطرف،

(١) الملل والنحل ص ٥٩ - ٦٢

وان كانت في مسألة «الجبر» متميزة تماماً لعمق تأثرها
بالمناوية .

اما تهمة « الجهل » التي الصبقتها بعض الاغرار
بأبي العتاهية، فتأتي تأكيداً لجهل مطلقها ورعونته، لا
أكثر، . . كما فعل أحد الطبّاخين ، ويدعى
عمروس، وكان جارا للشاعر، حين قال: ان ابا
العتاهية كان من اقل الناس معرفة، نقلا عن أحد
كبار المرجئة^(١) . في ذلك العصر، لعله بشر المريسي .
اذ ان من عايش عصره، معايشة عميقة، وتأثر بكل
شيء، وقبس من كل نار، كأبي العتاهية، لا يمكن
ان يسمى جاهلاً .

(١) المرجئة من ارجأ بمعنى امهل وأخر. سموا بالمرجئة، لأنهم يرجئون
أمر أصحاب الفرق الاسلامية الذين سفكوا الدماء كالخوارج
والعثمانية، الى يوم القيامة. فلا يحكمون على فريق دون فريق
والمرجئة فريق وسط مسالم (فجر الاسلام ص ٢٨٠) لا يكفر ببني
امية، ولا يكفر أصحاب علي. من كبار أئمتهم أبو بكر، وعبدالله
بن عمر، وعمران بن الحصين. ومن أقوالهم المستغربة في الايمان
«ان الايمان الاعتقاد بالقلب. وإن أعلن الكفر باللسان»! ومن
شعرائهم ثابت بن قطة القائل:

نرجي الامور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو فندا

وابوالعتاهية لم يكن عالماً بمعنى التلقي
والاختزان، بل كان ناقدا ورافضاً لما لا يتفق
وعقيدته. كمسألة خلق القرآن^(١) التي جاء بها
المعتزلة تكريسا لقدم الله وروحانيته. قال ساخرا من
القاضي احمد بن أبي نؤاد:
لو كنت في الرأي منسوباً الى رشيد
وكان عزمك عزمياً فيه توفيق
لكان في الفقه شغل، لو قنعت به
عن ان تقول: كلام الله مخلوق

فهو يرى ان الاشتغال بمسألة خلق القرآن لون
من العبث والجهل، لا فائدة منه.. وهذا ناتج عن

(١) خلق القرآن: مسألة كلامية هامة شغلت حيزاً كبيراً من فكر
المعتزلة، وحوارا بريرا بين الفقهاء لا سيما ايام المأمون الذي كان
على رأي المعتزلة بان القرآن مخلوق كأى شيء مخلوق آخر. وذلك
تنزيها لله عن ان يكون معه قديم آخر إلا هو.. حتى انقلبت المسألة
من قضية فكرية الى محنة.. عانى منها الكثيرون.. وكاد يذهب
ضحيتها الامام احمد بن حنبل نفسه. للاستزادة انظر ضحى الاسلام
ص ١٦١ وما بعدها.

موقفه العدائي من المعتزلة الذين كان بينه وبينهم عدااء مذهبي ، مرده الى انه من القائلين بالجبر، وهم يقولون بالاختيار. ومرة أخرى ينهض كل هذا، دليلاً على ثقافة الشاعر الدينية، وعلو كعبه في شتى ميادين الفكر والشعر.

تقلبه :

اما كون شاعرنا متقلبا، فهذا مما اجمع عليه دارسوه مؤكدين على انه لم يكن يلتزم بموقف، أو مبدأ، وقد ظهر ذلك في سلوكه. قال الصولي: كان ابو العتاهية مذبذبا في مذهبه، يعتقد شيئا. فاذا سمع طاعنا عليه، ترك اعتقاده اياه واخذ بغيره. . . . واذا عد غيرنا ذلك نقيضه، فنحن لا نرى في تردده وترجحه بين رأي ورأي، نقيصة او عيبا، بل نرد ذلك الى عصره، وناس عصره والنظام القائم، وما في مجتمعه من قيم مشوهة، ومفاهيم ملتوية، واعتبارات طبقية، ومذهبية تسيء الى حرية الانسان، وتفسد عليه انطلاقه الصحيح، فاذا وجد انسان موهوب، كشاعرنا، يملك طاقة هائلة على الابداع، لكنه لا يملك ثراء ولا نسبا عريقا، وكل ما يملك رقة حاشية، وشعور

متوفز، وطموح، وحب للشهرة، ورغبة في النقد
والسخرية، اذا وجد انسان كهذا عد مجنوناً، او
كالمجنون، واعتبره المهدي معتهاً... لا لشيء الا
لأن الشاعر تجراً على التغزل باحدى جوارى القصر!
وقد سلم رأس شاعرنا لأن تغزله كان بإحدى
الجوارى. وليس بربة القصر مثلاً! وما المهدي وامثاله
سوى الرمز البشع لكل ما كان عليه العصر من زيف
اجتماعي، وخلل في النظرة الى الانسان المميز...

ابو نواس استطاع ان يصرخ بصوت حاد وساخر
في وجه هكذا مجتمع، وهكذا مفاهيم... واعلن
ثورته... لكن ابا العتاهية لم يستطع ان يفعل الشيء
نفسه، وبذفس القوة والصراحة لاسباب ذاتية. فابتلع
لسانه احياناً كثيرة، ولجأ الى التقية... اتقاء لبطش
السلطان وغضبه... ثم الى التقى، ابتغاء للراحة من
عناء النفس ومعاناة الحياة، ومالم يستطع ان يظهره في
أقواله وشعره ومواقفه، حفر في نفسه اخاديد من
الأم، وأشعل نعمة مكبوتة، أكتوت بها حناياه... فوقع
في صراع نفسي حاد، ظهر على تصرفاته وحركاته
وسلوكه. فعدوا ذلك منه تذبذباً، وزادوا فعدوه
جنوناً... ولو عاش شاعرنا في عصر متقدم كعصرنا

لكان له شأن آخر بين يدي محلي الشخصية الفذة من علماء النفس التجريبيين .

ومن المؤسف ان بعض دارسيه من المعاصرين، وضعوه في المكان نفسه، ونسبوا تقلبه وسلوكه المضطرب الى عاهات ذاتية فيه . فلم يروا فيه انسانا مميزا او مغائرا او بعضا من هذا، يتمتع بشخصية هجومية وبشاعرية تجديدية اصيلة، اراد معها ان يجدد فلم تسعفه الاداة، وان لم يفتقر الى الروح او الارادة . .

ومهما يكن فقد كان على دارسيه اليوم ان يقيسوه بمقياس النقد الحديث، وان تحلل شخصيته في مختبر التحليل النفسي الجديد . والا فما معنى او ما فائدة الدراسة العصرية اذا كانت، امام الدراسة القديمة، حذو النعل للنعل ؟!

صحيح ان ابا العتاهية كان ضحية عصره، ومفاهيم مجتمعه، رغم محاولاته الجريئة والمتعددة للخروج من وضعه، ولقبه، ونظرة الناس اليه، خاصة رجال الدين . . . الا ان الصحيح ايضا هو انه وامثاله، لا يزالون ضحيتنا، نحن العائشين في أواخر

القرن العشرين، ما دمنا ننظر اليهم نظرة سلفية
محافظة، وكأننا نخشى ان تضام عهود الماضي، على
علائها.. ويساء الى ملوكهم (ولا نقول خلفائهم)
حين نكتشف، في بعض شعرائنا، انقلابيتهم، وحبهم
للتجديد، والثورة على كل ما اُتِرا في مجتمعهم
وتعفن! من قبلية، وعصبية، ومذهبية، وطبقية،
واتوقراطية وتبوقراطية، حيث كان أمثال ابي العتاهية،
وابي نواس، وشاربن برد يداسون بالاقدام لمجرد
دعوتهم للتجديد، أو ثورتهم على رجال الدين
المتزمتين، او حريرتهم الجريئة في الجهر بآرائهم،
ومعتقداتهم، والدعوة الى ما يرونه حسنا، ومنسجما
مع الحضارة الوافدة وروح العصر.. ان عصرا
يضرب فيه بشار(الاعمى) حتى الموت، ويسمم فيه
ابن الرومي، و«يجنن» ابو العتاهية، ويقطع ابن المقفع
إربا إربا ثم يحرق.. هو عصر تافه ومجرم لا يهمننا
الانتساب اليه، والمفاخرة به،.. ولولا ما التمع فيه
من حضارة، وارهص لفلسفة، واهتم بعلم، لولا عصر
المأمون بالذات... ثم لولا امثال هؤلاء الشعراء
المسحوقين والادباء التجديديين الذين استطاعوا ان
يصلونا بهم، وباحلامهم، وبأفكارهم، ولغتهم

الشعرية الخاصة، وأسلوبهم المشرق، لكانت صلتنا
بالتراث اوهى من خيط العنكبوت. . . وبذلك العصر
صلة المستريب. . .

حرصه على المال:

ولا نقول بخله، لأن من نشأ نشأة ابي العتاهية
فقيرامعدما، ينفق عليه أخوه زيد الخزاف، سيكون
من أشد اهتماماته الوصول الى الثروة باي طريق،
وبأي حيلة، حتى اذا وصل رأيناه يعرض على دراهمه
بالنواجذ. وهذه حالة طبيعية، لمن كان في مثل
وضعه، ومثل عصره، لا يحترم فيه أشباه الناس سوى
الغني، ولا يمجدون الا ذوي الجاه والسلطان، ولو
كانوا من المجرمين او اللصوص! فكيف بشاعرنا وهو
الذي يحس احساسا عميقا بمواهبه، وانه جدير
بالشهرة والمجد، الحالة نفسها ستحدث للمتنبى الذي
طمح الى مجد التربع على عرش الامبراطوريتين :
امبراطورية الحكم، وامبراطورية الشعر، فمات دون
الاولى، وعاش فوق الثانية ولا يزال. . .

المسألة اذن ليست مسألة بخل لمجرد البخل. انها
الحرص على الآلة الوحيدة لصناعة المجد المادي،

توصلاً الى تحقيق المجد الشعري، وتحقيق الذات، في ذلك الزمن الرديء الذي يرسب فيه الدر وتطفو الجيف، كما يقول ابن الرومي، والذي يرى فيه شاعرنا كل الناس اشحاء بخلاء.. في تقديرهم للمواهب وفي احترامهم لاصحابها، وفي... كل شيء...

فاضرب بطرفك حيث شئت
فلن ترى الا بخيلاً

فليكن هو مثلهم.. نكاية بهم، ! انها سخرية الاقدار تضطر أمثال ابي العتاهية الى ان تصبح صفة الحرص والشح من صفاتهم الراسخة، في زمان قل فيه الكرماء، وشحت الارباحية الا على من لا يستحقها من الاتباع والمبخرين!

وتروي كتب السير كالاغاني، وتاريخ الادب العربي لنيكلسون، وكتاب بغداد لطيفور، و مروج الذهب، وغيرها، قصصاً غريبة عن حرص ابي العتاهية وشحه، حتى ان كثيرين من متشديدي الاسلام الذين عاصروه، اتهموه في دينه لأنه يرى ان

الزكاة حرام . . وهذا الجاحظ المعجب بشعره، قد ذكره بين زمرة الأشحاء في كتابه «البخلاء». اما انه فاسد العقيدة ضعيف الاسلام لأنه بخيل، كما يؤكد بعض الدارسين (١) فهذا أمر عجب! واذا صح فيصبح ٩٠ ٪ من المسلمين غير صحيحي الاسلام!

اما كيف اهتدى هذا الدارس، الى مثل رأيه ذاك، فرواية لأبي الفرج الاصفهاني عن ثمامة بن اشرس يقول فيها: « انشدني ابو العتاهية :
اذا المرء لم يعتق من المال نفسه
تملكه المال الذي هو مالكة
الا انما مالي الذي انا منفق
وليس لي المال الذي انا تاركة
اذا كنت ذا مالٍ فبادر به الذي
يحق، وإلا استهلكته مهالكه

(١) هو الدكتور محمد محمود الدش . انظر كتابه: ابو العتاهية، حياته وشعره ص ١٣١ وما بعدها. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨

فقلت له: من اين قضيت بهذا؟ قال: من قول رسول الله: انما لك من مالك ما أكلت، فافنيت، او لبست فابليت، او تصدقت فامضيت، فقلت له: اتؤمن بان هذا قول رسول الله، وأنه الحق؟ قال نعم. قلت: فلم تجلس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك، ولا تأكل منها ولا تشرب، ولا تزكي، ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك، وفاقنتك؟ قال: يا أبا معن والله: ان ما قلته هو الحق، ولكني اخاف الفقر والحاجة الى الناس، فقلت: ويم تزيد حال من افتقر، على حالك وانت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم الا من عيد الى عيد؟ فترك جواب كلامي كله. ثم قال لي: والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابله . . . وما يتبعه بخمسة دراهم . . . فلما قال لي هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت عنه، وعلمت انه ليس ممن شرع صدره للاسلام!!



انسان ذاق مرارة الفقر، في الكوفة، و اکتوى بنار الحرمان في شبابه، حتى اذا جمع منه قليلا او

كثيرا، طالبه ابو معن هذا بانفاق زكاة ماله، حتى اذا تحايل عليه الشاعر فادعى انه ينفقها على عياله، شك في اسلامه فتأمل!!

ونحن لا نلوم ابا معن الزميت، بقدر ما نلوم الدكتور «الشدش» الذي اخذ روايات الاقدمين على هزائها، ولم يخضع ابا العتاهية «البخيل» لمقاييس علم النفس الحديث، فيبرئه او يعذره.. ولا يرميه بالزندقة، كما رموه. حتى ان نظرة عميقة الى موقع الشاعر من عصره وناس عصره، تغني عن مقاييس علم النفس..

ومهما يكن من أمر بخل شاعرنا، وحرصه على المال، فلسنا هنا لندافع عن اسلام ابي العتاهية. فقد يكون ضعيف الاسلام لأسباب أخرى، لكنه، قطعاً، ليس كذلك، لأنه بخيل..

ثروته:

جاء في كتب السير ان ثروة ابي العتاهية كانت تقريباً كالآتي:

- ٢٧٠ ألف درهم من مصادر مختلفة، لأنه كان يعرف كيف يهز أريحية الخلفاء والامراء والقواد.

- ٥٠ ألف درهم من الرشيد سنويا مضروبة
بخمسة أضعافها على الأقل.

- ٢٠ ألف درهم من المأمون مضروبة بعشرة
أضعافها على الأقل.

- ٣ آلاف درهم من الحسن بن سهل مضروبة
بعشرة أضعافها على الأقل.

- ٢ ألفا درهم سن زبيدة ام جعفر + ٢٠ ديناراً
سنويا (١) مضروبة بخمسة أضعافها الى ما هنالك من
أعطيات زهيدة..

ليعذرنا القراء الكرام على هذا التدقيق في ثروة
ابي العتاهية.. اذ ليس هذا من شأن مثل هذه
الدراسة، لقد كان ذلك منا على سبيل التحري
العلمي لنستنتج انها ثروة متواضعة بالنسبة لما كان

(١) كانوا يسمون كل عشرة آلاف فرك ذهباً: بدرة. ويقدر نيكلسون
كل ٥٠ ألف درهم بالقي جنيه. اما الدينار فهو وحدة نقد ذهبية
سكها العرب على غرار الدينار المرقلي، وهي تزيد وزناً على نصف
الليرة الانكليزية بقليل (٦٦ قمحة) وكان الدينار يعرف اولاً بعشرة
دراهم ثم اخذت اسعار الفضة تتقلب بحيث بلغ احياناً عشرين
درهماً: انظر كتاب: ابو العتاهية: رائد الزهد في الشعر العربي ص
١٥ د. اسامة عانوتي منشورات المكتبة الاهلية بيروت ١٩٦٢.

يحصل عليه محظوظون آخرون، اقل شأننا من شاعرنا. فهذا مروان بن ابي حفصة وهو شاعر يكاد يكون مغمورا امام ابي العتاهية، ينال الف درهم ثمننا كل بيت يقوله في مدح المهدي! والمهدي اياه يمنح عبد الله بن دحمان المغني مائة الف دينار دفعة واحدة^(١) والمأمون يفرق في يوم واحد ٢٦ مليون درهم ومائة الف درهم ثمن صوت يغنيه اسحاق الموصلي ليحيى بن خالد! فحري بأبي العتاهية ان ينتزع ثروته انتزاعا، قبل ان تذهب لغير الاكفياء ثم يحرص عليها ذلك الحرص الشديد، فيصون كرامته ، ولا يسيء الى اسلامه، في زمن كان الاسلام الصحيح في واد، وأكثرية المسلمين في واد آخر. وكان الذين يرمون ابا العتاهية بالزندقة احق الناس بالرمي والرجم.

(١) فاذا اجرينا على هذا الاساس عملية ضرب وقسمة كان مجموع ثروة ابي العتاهية النقدية ما يقارب ٣٨٥٠٠ دينار. وهي ثروة لا بأس بها. كانت كفيلة بتأمين حياته وكرامته اثناء الزهد والشيخوخة، وتأمين عياله. لكنها زهيدة بالقياس الى ثروات المحظوظين الآخرين. المؤلف

فصل خاص

تاريخ الزهد في العالم الشرقي القديم :

قبل أن نتكلم عن زهد أبي العتاهية، وقيمته، ومدى صحته، علينا، من باب الفضول والتوسع، ان نلقي نظرة عابرة على تاريخ الزهد عند الامم القديمة، بشكل عام، ثم عند العرب. قبل الاسلام وبعده، لنتتهي عند زهد أبي العتاهية بشكل خاص..

من قديم الزمان يوم صبحا الانسان على واقعه، وذاته، ومصيره، وراح يتساءل، ويسأل: مَنْ انا؟ وما الحياة والموت، والى اين المصير، وما قيمة ان احيا واعمل ثم اموت؟! وحين استطاع ان يعبر عن ذلك بشكل انشودة أو أهزوجة أو اغنية، او مرثاة، . كان ينشئ ادبا شفها، هو مزيج من نثر وشعر، قوامه الحكمة، وغايته الاعتبار، وما بينهما تنفيس عن كربته وضيقه، وأحزانه... حتى اذا تعمق في النظرة الى

الكون، وسر الوجود، ولج في السؤال، انقلب ادبه
فلسفة او تفلسفا، وانتهى الى وضع مبادئ ونظريات
يفسر بها العالم والكون والله والانسان .

وهذا نموذج من اناشيد قدماء المصريين، يعبر فيه
الشاعر عن حيرته امام الحياة والمصير في عبثية واضحة
امام الحياة، وغبطة تامة امام الموت :

ما التكاثر في الارض، والنهاية القبر؟!
تشبه بالحي الأبدى العادل
الذي لا يظلم احداً
السلام الذي لا يجب تعكير الصفاء ابداً
اليه يرجع الناس كلهم . .
اذا خلق الانسان، دعي الى سبل الرشاد
ووعظ بأن يكون سليماً معافى،
يعمل الخير، ويذكر الموت
حتى اذا جاء اجله استقبل القبر جذلاً مغتبطاً . .

ايها الكاهن: ان الموت الذي تتحدثون عنه ليس
الا الاتحاد بأرباب الابدية!^(١)

(١) انظر كتاب: على هامش التاريخ المصري القديم لعبد القادر باشا
حمزة. وكتاب مصر القديمة بجزئيه للاستاذ سليم حسن بك.

هذا الشعر الزاهد، او ما كانوا يسمونه الادب
الاعتباري، جاء في شكل هواجس يطلقها الشاعر تحت
تأثير الجو الديني الضاغط، وما كان الكهنة يثيرونه في
نفوس الناس من رعب وخوف من هول المصير، ولعنة
الآلهة التي تصب على رؤوس الخطاة.

ونجد عند الصينيين الكثير من هذا القبيل، يتلوه
الكهنة في بيعهم، ويصيغونه مواعظ زجرية للغواة،
وتمجيدية لنيهم الاكبر كونفوشيوس.

اما الزهدالمجسدالذي تمثل انسانا، وضج ايماننا
فكان في الهند. حيث عاش فلاسفة وادباء وشعراء
كثيرون جسدوا الروح الهندية التواقية الى الزهد
والتصوف، والدعوة الى طهارة القلب، وصفاء
النفس. فعاشوا هذه المثل والاخلاق، قبل ان يغنوها
شعرا، او يكسبوها في قوالب الحكمة، ونظريات
الفلسفة. فهذا بوذا يكرس هذا الاتجاه الروحي
تكريساً تاماً. فبعد ان هجر الحياة الارستقراطية،
واتخذ منعزلاً يأوي اليه اناء الليل واطراف النهار
مفكراً متأملاً، بينا لداته من الفتيان يلهون،
ويلعبون، سادرين غير مدركين، كما ادرك هو، أن كل

هذا الجمال الرائع فيهم، وفي ما حولهم، من مفاتن الطبيعة سائر الى القبر.. لقد ادرك ان كل ما ومن تلده الحياة مقضي عليه بالتغير والفناء. وان شبابهم هذا المتوهج بالحياة، ستلفحه ثلوج الشيخوخة، فيجمد ويخبو.. والحياة نفسها ستتحل عناصرها، وتزول، وهي على قصرها مليئة بالهم والعناء. ومهد الوليد كقبر الفقيد مترع ما بينهما بالأسى والعذاب والبلاء.. وكل جهد يبذله الانسان مفعم بالمرارة. وليست هناك سعادة دائمة في هذه الحياة الدنيا بل ليست هناك سعادة على الاطلاق، (كما سيؤكد ذلك شونهور الالماني في القرن التاسع عشر) اذ ما معنى سعادة يسبقها ألم الحصول عليها، ثم يعقبها ألم السرعة في فقدانها، وعدم القدرة على الاحتفاظ بها.. كما يقول هذا الأخير..

ويصرخ بوذا:

آه لو استطاع الانسان ان يتخلص من الحياة التي لا تسبب له سوى الهم والشقاء. لكن الانتحار عبث لا يجدي.. لأنه لا يقتلع الشر من جذوره. فقطف الثمرة، لا يقتل الشجرة، اذ سرعان ما تزهر ثم تثمر.. ان جذر الحياة هو الرغبة في الحياة، فان

محوت من نفسك هذه الرغبة، فقد قتلت مصدر
الألم، ومحوت الشر، واعددت نفسك للطمأنينة
الكبرى^(١) . . هذا ما دار في رأس الفتى الشاب
بوذا، فلما اكتملت رجولته كان قد صمم على
العزلة. وفي التاسعة والعشرين من عمره، غادر قصر
أبيه، تاركا وراءه زوجة جميلة، وطفلا رضيعا. وكان
في صحبته رفيق واحد. ولم يمض في رحلته طويلا
حتى أعاد هذا الرفيق، وأعطاه سيفه وحصانه.
وصادف في طريقه فقيرا فبادله ثوبه الجميل بثوب
ممزق بال. . لقد هاجر بوذا الى . . نفسه . . ولم
تكن هجرته عزلة هروبية يائسة، بل باتجاه الناس، لا
لكي يحكمهم، كأبيه، بل ليكون حكيمهم
وهادئهم . .

ومن اقواله:

دعني ازل شعري ولحيتي، دعني ارتد
ثوبا اصفر (هو ثوب الزاهدين) واغادر حياة الأسرة،
الى حياة بغير مأوى . .

(١) قصة الادب في العالم ج ١ ص ٥٧ للاستاذين احمد امين وزكي
نجيب محمود.

ثم راح يتلقى مبادئ الدين عن البراهمة. لكنها لم تعجبه. . فازدري تعاليم الفيدا لأنها تدعو الى التحكم الديني المطلق. فمن يبعث الطمأنينة في نفسه الحيرى؟ الاشراق الروحي؟ اجل. انه ذلك التآلق الروحي الذي يفيض على نفس الزاهد المتأمل فيملأها نورا. . حينئذ يهتدي الى حقيقة وحيدة كفيلة بخلاص الانسان من خطيئته وشقائه هي: ان يحب الانسان كل كائن حي حباً لا يرجو من ورائه غاية غير الحب. هذا الانسان الممتلئ حبا هو وحده القريب من نعيم النيرفانا(١) ذلك الفناء الذاتي هولب البوذية ورائدها. وسيكون لتعاليم بوذا اثرها العميق في مختلف الديانات الارضية والسماوية المقبلة. لكنها ستختلف عنها بأنها لم تسن لاتباعها طقوساً دينية يمارسونها.

من اشعار البوذيين الاعتبارية ما جاء في ديوان

(١) النيرفانا حالة روحانية يحى فيها كل تفكير في الذاتية الشخصية: فكلمها سرت خطوة في انكار نفسك دنوت من. النيرفانا (ومن طقوسها اليوغا) وكلمها حصرت تفكيرك في نفسك ونزواتها بعدت عنها. للاستزادة: انظر المصدر السابق ج ١ ص ٥٩ وما بعدها.

«طريق الحق» لأحد شعرائهم والذي ترجم نماذج منه
إلى العربية الأستاذان أحمد أمين وزكي نجيب
محمود^(١)

ان الكراهية في هذا العالم، لا تمحوها كراهية مثلها
إنما يمحو الكراهية الحب
ان الخير للعقل ان يخفف حدته
فالعقل جموح صعب المراس
ينزع الى ميله، وهواه
انك لن تجني من الخطيئة ثمرا
وقد يحسها الحمقى مترعة بالرحيق
لكن اذا تم للخطيئة نضجها
هوى الحمقى باثمهم في هاوية الأسى . .

وتنقل تعاليم بوذا الى اليابان والصين، وتصبح
دستورا للوعاظ والزهاد والمتصوفين.. وفي بلاد فارس
يظهر نبي جديد هو زارا دشت اوزردشت^(٢) وقوام

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٦١

(٢) نسبة الى زرادشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب
بن هراسب الملك (بين العاشر والخامس ق.م). أبوه من أذربيجان
وأمه من الري واسمها دغدويه زعموا ان الله بعثه رسولا بعد ان

الزردشتية: العيش وفق قوانين الطبيعة. فلكي يكون الانسان جزءا سليما في هيكل الكون ينبغي ان يعيش صحيحا معافى. والا يكون ضعيف النفس والجسد. وان يكون ذا ضمير حي، وحدث شفاف ليميز الدنس من الطهارة، والحق من الباطل، فيحيا وفق ارادة الله.

ومن هذه العقيدة سيقتبس ماني عقيدته الجديدة،
وان كان يختلف وزردشت في نظرتهما للانسان،

= بلغ الثلاثين يهدي الناس الى عبادة الله واجتناب الخبائث. من اركان دينه:
ان النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك ميزانواهر من، وهما مبدأ وجود العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة والله هو خالق النور والظلمة ومبدعها. وهو واحد لا شريك له ولا ضد. وما الخير والشر الا من امتزاج النور والظلمة ولولا هذا الامتزاج لما كان العالم وهما يتقاومان ويتغالبان الى ان يغلب النور الظلمة... وذلك هو سبب الخلاص. فالنور هو الاصل ووجوده وجود حقيقي اما الظلمة فتابع (كالظل بالنسبة الى الشخص) لوارادشت كتاب معروف هو زند اوستا الخ. الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها) اما المحتوى الاجتماعي للزردشتية فهو: الدعوة الى الاصلاح واحلال النقاء الروحي محل الطقوس. والانتصار للخير والتطهر الداخلي الذي يقود الى السعادة وقد ظلت الزردشتية مسيطرة في ايران حتى الفتح الاسلامي. المؤلف.

وطريقة سلوكه في الحياة وصولاً الى النيرثانا. ماني
تزهد، وكان زهداً سليماً. اما زردشت فكان يؤمن
بالحياة الحرة القوية الطاهرة، والاحياء الاقوياء
الاحرار الأطهار، فلم يتزهد بمعنى الانقطاع عن
الناس، والكفر بالحياة، وتفضيل الفناء على البقاء..
بل كان، ضمن الحياة، صراعياً داعياً الى انقاذ
الانسانية، وخلص الانسان بالتطهر. وخير مطهر
هو النار التي اصبحت معبودة فيها بعد عند المجوس
والفرس عامة، بعد ان كانت عند زردشت رمزا..

من اقوال زردشت الاعتبارية:

اياك والكبرياء من اجل كنوزك ومالك
لأنك تاركها، ولا شك، في نهاية امرك
اياك والفخر بنسبك وحبك فانما تركن، في
نهايتك، الى ما قدمته يداك. واياك والعجب
بحياتك نفسها.

فان الفناء لاحقك عند آخر المطاف
وسيعود الى الارض جزؤك الفاني..

وغير بشعراء العبرية الاعتباريين الزاهدين مروراً
سريعاً لكثرتهم في التوراة. حتى ليكاد كل نبي من

انبياء اليهود ان يكون شاعرا . ما بين حكيم وباك
وراث وزاهد بالحياة . تكاد التوراة تصبح مجموعة
رثائيات وبكائيات تندب مجد صهيون الغابر، كما
تبكي الهيكل والشتات وويلات الحياة: فمن سفر
ايوب، ونشيد الاناشيد، الى سفر اشعيا الزاهد
المتشائم، الى سفر ارميا، الى سفر دانيال صاحب
«الانشيد» - التعازي، الى مزامير داود (ويسميتها
العرب الزبور) الى كتاب الأمثال، وسفر الجامعة .
ويبدو ان واضعه حكيم زاهد، خبير باحوال الدين
والدنيا، فاقد الأمل من صلاحهما، حيث يطلق هذه
الصرخة البائسة على لسان ابن داود (سليمان) ملك
اورشليم :

«باطل الاباطيل، وكل شيء باطل»!
ماذا يجني الانسان من جهده تحت الشمس؟!
ما كان سيكون، وما سبق سيعاد عمله
ولا جديد تحت الشمس . .
كل ما تحت الشمس باطل، وقبض الريح . . .

ونكتفي بهذا القدر، اذ لم يكن رائدنا من هذا
الاستعراض السريع لمظاهر ودوافع الزهد عند بعض

الأمم الشرقية، الا لنؤكد حقيقة جامعة لخصائص هذه الأمم وهي : النظرة المتقاربة الى الكون والاسان، ومفهوم الالهوية، وموقف المفكرين، والانبياء والرسل، والشعراء من الحياة وقيمتها، والموت وما بعد الموت، وقد اقتبس هذه الافكار وبرمجها كثيرون من فلاسفة اليونان.

حتى اذا انتهينا الى ابي العتاهية، وهو الشاعر والمثقف، لم نجد بدعاً زهداً، ولا موقفه من الحياة وسرى، وقد رأينا، ان زهده هذا، مهما قيل فيه، هو حصيلة ثقافة، ونتاج عقيدة، وافراز طبيعي لحالات وجدان شرقي، في وجدانية وجودية عاشها وعانها انسان وجد نفسه بين فكي الضياع والهوان. . ثم بين فكي الفسق والندم. . وهما حالتان من شأنهما، بل لا بد لهما الا ان تقذفا بهذه الشخصية المرفهة، المثقلة بالاوزار والافكار، خارج حلبة الصراع المادي والفكري الى حيث التطهر بالزهد والتأمل والاعتبار شيمة اولئك الحكماء والانبياء والشعراء.

الزهد العربي :

اما العرب في جاهليتهم فقد كان لهم

حكماؤهم وزهادهم ونساكهم وسواحهم ورهبانهم
فكان لهم شعر زهدي كثير كثيرة هؤلاء .

ولقد اتشح زهد الجاهليين بوشاح النسك او
التنسك . ويستدل زكي مبارك^(١) على ذلك بلفظتي
«الديان» و «الرباني» الواردتين في شعر زهادهم ،
ويؤيد مبارك رأيه «بصيام الأبد» الذي كان ذائعا في
الجاهلية . وفي الحديث : «لاصام من صام الأبد» .
وهذه اشارة واضحة الى مثل هذا الصيام عند نساك
الجاهلية ، وإلا لما ذكره النبي . وهذا الجللحظ حين
يذكر الشاعر عدي بن زيد العبادي يصفه بأنه «كان
ربانيا وصاحب كتب» فنحن نعرف عنه انه كان
نصرانيا ، متأثرا بتعاليم النصرانية التي تدعو الى
التضحية والزهد والرهبانية . حتى اذا نكب ايام
النعمان الثالث ، ثم مات في سجنه خنقا ،
ظهر في شعره هذان المؤثران الكبيران :
النصرانية والنكبة التي حلت به ، مع انه كان
قبل ذلك فتى فاتكا وصاحب مجون .

(١) في التصوف الاسلامي د. زكي مبارك ص ٥٣ .

وهكذا تحول شعره، بتحول حياته، الى قصائد في الزهد والاعتبار، يطلقها وجدان ملتان وعقل ضحا على تفاهة الحياة وهول المصير. وان الانسان، مهما عظم، ما هو، الالعبة القدر. حتى ولو كان «كسرى الملوك انوشروان» او سابور قبله، او «ملوك» الروم الخ^(١). وهذا حنظلة بن أبي عفراء^(٢) الشاعر يتنسك ويزهد، بعد ان تنصر، حتى انه بنى ديراً عُرف باسمه. كما يروي صاحب تاريخ بغداد ان هارون المذكور في الآية القرآنية ﴿يا اخت هارون﴾. الخ كان رجلاً صالحاً في بني اسرائيل. والصالح هنا هو النسك واخت هارون هي مريم ام المسيح.

ومن هؤلاء الزهاد من لبس الصوف، والخرقة، ممهدين بذلك، الى ظهور حركة التصوف الكبرى في الاسلام (في القرنين الثالث والرابع الهجريين) الى جانب التمهيدات والمؤثرات الخارجية الأخرى بالطبع. تلك الحركة التي انقلبت الى حركة فلسفية وطقسية

(١) المجاني الحديثة ج ١ ص ٢٥٥ المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٠

(٢) معجم البلدان.

وحلولية، لها مناضلوها وشهداؤها؛ ثم انتهت من «حرقه الى خرقة» كما قيل عنها. اي من فلسفة الى شعوذة، وانقطاع تام عن الدنيا. وحسبنا اخيرا ان نذكر من زهاد الجاهلية ونساكها وربانييها ورقة بن نوفل^(١) وزيد بن عمرو، وامية بن ابي الصلت، واكثم بن صيفي وقس بن ساعدة، لتؤكد من ان نزعة الزهد كانت موجودة بكثرة في الجاهلية^(٢) يجسدها هؤلاء وامثالهم قولاً وعملاً .

جاء في الأغاني:

ان زيد بن عمرو كان من بين
الذين اعتزلوا عبادة الاوثان، وهم قليل. وامتنع عن
اكل اضاحيهم. وكان يقول: «يا معشر قريش، ايرسل
الله قطر السماء. وينبت بقل الأرض، ويخلق
السائمة فترعى فيه، وتذبذبوها لغيره؟! والله ما اعلم

(١) ورقة بن نوفل هو ابن عم السيدة خديجة زوج النبي الاولى. وهو احد من اعتزل عبادة الاوثان، وتزهد. وصفه النبي بقوله: «قد رأيته في المنام كأن عليه ثياباً بيضا. فقد اظن انه لو كان من النار لم أر عليه البياض» (الاغاني ٣ / ١١٩) وقد نهى النبي عن سبه.

(٢) ابو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي ص ٨٠ د. اسامة عانوتي منشورات المكتبة الاهلية بيروت ١٩٦٢

على ظهر الأرض احدا على دين ابراهيم غيري» وله
كما لورقة شعر روي زهدي غاية في الندم والتحرق
وحراة الايمان . .

ولم يكن حال امية بن ابي الصلت بأحسن من
حال هذين الزاهدين، فقد قيل عنه: انه نظر في
الكتب فقرأها، ولبس المسوح تعبدًا، وذكر فضائل
ابراهيم، واسماعيل، والحنيفية، وحرّم شرب الخمر
وشك في الاوثان، والتمس الدين، حتى انه طمع في
النبوة. لأنه قرأ في الكتب ان نبياً يبعث من العرب،
فكان يرجو ان يكونه . .

وهناك شعراء جاهليون كثيرون تأثروا بسيرة
وتعاليم النساك في الجاهلية، وطريقة حياتهم. نعد
منهم ولا نعددهم: امثال عمرو بن ضحيشة، وزهير
بن ابي سلمى، والأعشى، على تهتكه. كان متأثراً
بذلك لكثرة تردده على رهبان «كعبة نجران» وعبادي
الحيرة. وليبد، والممزق العبدى، وعمرو بن الأهم
التميمي .

وهكذا نرى نزعة الزهد، معتدلاً ومفطرفاً،
تشكل تياراً كبيراً في الجاهلية، وفي حضارات

وفلسفات الامم الشرقية القديمة، مبعثه هذه الحضارات والفلسفات نفسها، مضافة الى واقع كل زاهد، وما كان يعتريه من حالات اليأس والشك حين يتقلب به الدهر من نعيم الى جحيم، ومن شباب الى شيخوخة، فلا يجد امامه سوى التأمل واستجلاء حقائق الحياة من وراء سرايا الخادع فينطق بالحكمة الاعتبارية كما رأينا عند الادباء الحكماء والانبياء والوعاظ ثم بالشعر الزهدي التائب المنيب عند الشعراء الخاطئين، لعلهم بهذا الشعر النشيج يهدثون من روع انفسهم، ويكفرون عنها اثم اوزارها، او يسترون عليها، كما فعل ابو العتاهية احيانا كثيرة. . .

الزهد الاسلامي:

كان للقرآن الكريم وتعاليمه أثر بالغ في نفوس المسلمين الأوائل، على صعيد الفكر والروح. فتحولوا من عشق الذات الى عشق المثال، وتخففوا من ربة المادة الى رفقة الروح. . . وكان النبي خير مجسد لتلك المثل والتعاليم الإلهية، حين عاشها أولا، ثم دعا الى ان يعيشها حواريوه واقرباؤه

وصحابته . ومن الواضح في سيرته وفهمه لتلك المثل ،
انه لم يكن مغاليا فيها ولا مقتصداً ، لا مفرطاً ولا
مفرطاً اي انه كان «وسطاً» في كل شيء .

ومن جملة دعواته دعوته الى الوسطية او التوسط تارة
في القرآن ، كما في الآية : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى
عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً
محسوراً﴾ وتارة على لسانه «كنتم امة وسطاً» و«خير
الامور اوسطها» . من هنا كان الزهد الاسلامي الأول
لا شطط فيه ، فلا صوفية ، ولا انقطاع تام عن الدنيا
فلا رهبانية . . وقد مدح النبي الدنيا بقوله : الدنيا
حلوة خضرة وان الله مستعملكم فيها ينظر كيف تعملون^(١)
كما مدح العمل وذم السؤال والفقر وكان قبل
البعثة تاجراً . . كل ذلك بمواقف واقوال كثيرة لا مجال
لذكرها هنا^(٢) .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٢

(٢) للاستزادة اطلب اقوال النبي واحاديثه عن ابي اسحاق و«المجتبى»
لابن دريد ، وما جمعه منها الزجاجي والمبرد ، ونفطويه وجعفر بن
محمد بن حمدان الموصلي وغيرهم .

وراح المسلمون الأوائل يأخذون من الدنيا حظاً يقيم الأود، ولا يفتن، ويدعون نوافلها وما فيها من بهرج خادع ومتاع الغرور فجاء زهدهم محمدياً إيجابياً لا زهداً مانوياً سلبياً زهداً يدعو الى العمل خير العمل والكسب الحلال، زهداً في الحياة لا عن الحياة.. جاء في القرآن الكريم: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واحسن كما أحسن الله اليك﴾^(١) والمال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً^(٢) ومن كان يريد الحياة الدنيا، نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يُخسّون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا فيها يعملون^(٣) يروى عن النبي أن رجلاً جاءه فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته احبني الله واحبني

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) سورة الكهف الآية ٤٦

(٣) سورة هود الآية ١٥-١٦

الناس، فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس^(١). وقيل للنبي: من ازهد الناس في الدنيا. قال: من لم ينس المقابر والبلى، وآثر ما يبقى على ما يفنى: وعد نفسه مع الموت^(٢). . . وعلى هذا، وفي ما لا حصر له من الآيات والاحاديث والمواقف، نجد ان الزهد الاسلامي الاول كان مثالا يحتذى ورمزه النبي، ونهجاً يتبع ومثاله سيرته. جاء زهداً صافياً لا يشوبه كدر الاقتباس من العقائد السالفة، كما لم يأت تحويراً لها او تطويراً إلا ما كان منه متمماً لمكارم الاخلاق الشرقية القديمة، والسنن القدسية القديمة.

الشعراء والحكماء الزاهدون:

كان لا بد للاسلام الاول ألا يُروج للشعر، فلا يقرب الشعراء. لاسيما وان النبي نفسه قد اهتمه اعداء دعوته بأنه شاعر مجنون^(٣). . . فرد عليهم

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٦

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٧١

(٣) ومجنون هنا لا تعني فقدان العقل، بل تعني أن جنأ قد خالط عقله، وادعى له بتلك الآيات... كما كانوا يأفكون.

الوحي بقوله: « وما علمناه الشعر، وما ينبغي له... »
 لكن هذا لا يعني الا ينهض من بين المسلمين شعراء
 متأدبون بأدب النبي، ومتأثرون بروعة الكلم في
 القرآن الذي يقرب عما ينظمون، لكنه يسمو عليه
 سموا روحيا وتعبيريا كبيرا، فيدافعون بقصائدهم
 الايمانية عن الدعوة الجديدة، والداعي الجديد،
 ويشيرون بالقيم الجديدة.. كحسان بن ثابت
 الانصاري، وكعب بن زهير بن أبي سلمى، وجعدة بن
 الطبيب، والحصين بن الحمام (سيد بني مرة
 الذيبانيين) والنمر بن تولب، وأبي ذؤيب الهذلي. ومن
 رثاء هذا الاخير لابنائه الخمسة الذين ماتوا في وباء:

واذا المنية انشبت أظفارها
 الفيت كلّ تميمة لا تنفع
 والنفس راغبة اذا رغبتهـا
 واذا ترد الى قليل تقنع

ومعن بن أوس المزني يدخل في شعره الحكمي
 ما توحى به الآيات القرآنية من بر بالاقرباء، وصلة
 بالرحم، والحلم، والتعفف. كقوله:

وذي رحم قلمتُ أظفارَ ضغنه
بحلمي عنه، وهو ليس له حلم
وعمر بن احرر الباهلي، يلوذ بربه مستغفرا منييا،
حين يدهمه المرض، فيقول:
اليك إله الحق ارفع رغبتي
عيذا، وخوفا ان تطيل ضمانيا
فان كان برءا فاجعل البرء نعمة
وان كان قبضاً فاقض ما انت قاضيا

اما كعب بن زهير فقد اوفى على الغاية في تصوير
الجو الاسلامي الذي اشاعه النبي، وخاصة حين
أطلق في مدحه لاميته الشهيرة «بانت سعاد» بعد ان
قبل النبي منه اسلامه، وخلع عليه برده. . وقد
دعيت عصاه هذه بالبردة.

ثم راح كعب يمسخ شركه الماضي بزيت النبوة،
وهدي القرآن، فاذا به، سيرة وشعرا، اقرب ما يكون
الى زهاد المسلمين الذين تكاثروا، ايام النبي، وبعيد
وفاته، الى أن رقت حاشية الاسلام بعد ان تحول
المسلمون اثنريجيأ، نحو الدنيا وما فيها من حكم

وسلطان وطغيان، ولذائد ومتع وشهوات، قتراجع الزهد وكادت تطوى تلك الصفحة المشرقة من حياة الزاهدين المسلمين الأوائل الذين جمعوا الدين والدنيا في إهاب واحد.

ردة فعل :

وقد حدث ما كان متوقعا من ردة فعل نفسية، ففي العصر الاموي، رغم انتشار المجون، والغناء، وظهور الغزل الاباحي، وانتشار الفسق والزندقة، خاصة في الحواضر كالمدينة ومكة والطائف، وما قرب منها كوادي العقيق، ظهرت، مقابل ذلك، موجة مضادة مثلتها فئة كبيرة لها وزنها وتأثيرها، هي فئة الزهاد والمصلحين الداعين الى الدين، والعودة الى الينابيع الاولى، من قرآن وسيرة ونهج قويم، فحاربوا الفسوق والمروق والزندقة. وكان على رأس هؤلاء الحسن البصري، الفقيه الاكبر، الذي كان مدرسة بحد ذاته، تدعو المسلمين الى اصول دينهم وصلاح دنياهم، بالبر والتقوى، والعمل الصالح، فكان لهذه المدرسة الاثر البالغ في تقويم الاعوجاج، وسد الشرخ الكبير الذي اصاب المسلمين من جراء تفشي

الزندقة، وانحراف الجيل عن الجادة، لكثرة ما أصاب من حرية ورخاء، واستمتاع بنعم الفتوح، واستغلال لانفتاح السياسة الاموية على اجيال المعارضة لصرفهم عن الثورات والثارات .

فجاء الحسن البصري، بسيرته وتعاليمه، يضرب المثل الصالح للزهد المتعفف او التعفف الزاهد، داعيا الى تقوى الله ومرضاته، وان ما عنده خير وابقى، ومن عظاته: « يا ابن آدم بعْ دنياءك بآخرتك، تربحهما جميعا، ولا تبغْ آخرتك بدنياءك، فتخسرهما جميعا. . . يا ابن آدم، اذا رأيت الناس في الخير، فنافسهم فيه، واذا رأيتهم في الشر، فلا تغبطهم به، الشواء، ها هنا، قليل، والبقاء هناك ، طويل، فالوحاء الوحاء، والنجاء النجاء. . . » او قوله: « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم، ويؤثرون بالفضل. الا ان هذا الموت، قد أضر الدنيا ففضحها، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا، فإياكم وهذه السبل المتفرقة. التي جماعها الضلالة، وميعادها النار، والذي نفس الحسن بيده، ما اصبحت في هذه القرية مؤمن إلا وقد أصبح مهموماً حزينا، وليس

لمؤمن راحة دون لقاء الله» (١).

وكان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز احد
كبار المتأثرين بنزعة الزهد الاسلامي لشدة اقتدائه
بسيرة الحسن البصري وتعاليمه ومواعظه.

وخلاصة القول في حقيقة الزهد الاسلامي انه
كان زهدا ايجابيا صريح المصاد، ومصادره، كما
يراها نيكلسون، ويراها الكثيرون: القرآن، وسيرة
النبي والخلفاء الراشدون، وكبار الصحابة، فلم
يدخل هذا الزهد اي مؤثر خارجي، بالرغم من
وجود هذا المؤثر على تخوم الدولة الاسلامية الناشئة.

ومن الشعراء الزاهدين زهدا اسلاميا صريحا
وايجابيا: ذو الرمة وصاف الطبيعة المشهور، والنابعة
الشيواني، وابو الاسود الدؤلي، والامام الشافعي،
سيرة وشعرا.

ومن شعره الزهدي الابتهالي:

(١) البيان والتبيين ٨ / ١٥٧ و ٣ / ١٣٢ وما بعدها.

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي
جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاضمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي، كان عفوك أعظما
فلولاك لم يغدر بأبليس عابد
فكيف، وقد أغوى صديقك آدمما

لكن هذا الزهد الاسلامي، لم يبق على صفائه،
فتقد خولط، عند بعض شعراء العصر الاموي،
بشيء من مانوية، او بوذية، نتيجة اتساع الفتوح التي
جاءت بالموالي من فارس والهند والصين، والروم.
وهؤلاء كان منهم الزنديق، والمانوي، والزرذشتي،
والبوذي. فكان لا بد ان يتأثر بعض شعراء الزهد
بمفهوم هؤلاء للكون والطبيعة والله، والخير
والشر، والمعاد، كعبد الله بن عبد الاعلى الذي قال
عنه صاحب الامالي « انه كان سيء العقيدة » وفي
شعره يقف طويلا عند فكرة الفناء كقوله :

يا ويح هذي الارض ما تصنع
أكلٌ حي فوقها تصرع

تزرعهم، حتى اذا ما أتوا
عادت لهم تحصد ما تزرع
كما شاعت عند بعضهم فكرة «التوكل» التي
فهموها اتكالية، ونبدأ للعمل: أي ان الله يرزق
العباد دون جهاد او سعي. وعلى هذا فسروا الآية
«وما من دابة إلا على الله رزقها» تفسيراً خاطئاً، ولم
يربطوها بآيات أخرى كثيرة تحض على العمل والسعي
والجهاد في سبيل العيش الكريم.

كما تناسوا سيرة النبي نفسه واقواله في الحث على
العمل الشريف مهما كان ضئيلاً. كقوله: «لئن يأخذ
أحدكم أحبله، ثم يذهب إلى الجبل، فيأتي بحزمة على
ظهره، فيبيعها، فيأكل، ويتصدق، خير له من أن
يسأل الناس، أعطوه او منعوه».

تدخل النبي لدى غلاة الزاهدين:

وحين طغت موجة الزهد الاسلامي الاول،
وتعاضمت عند كبار الصحابة، وكادت تميل بهم عن
الزهد المقبول، الى نوع من التصوف المرفوض...
تدخل النبي ليخفف من غلواء بعضهم

كعبدالله بن عمر الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل،
ويحتم القرآن كله في ليلة^(١). وينصحه النبي
بالتخفيف، فيقول: «يا رسول الله، اني آخذ قوة..»
فيقول له الرسول: «ان لجسدك عليك حقاً»..
وعثمان بن مظعون يؤثر التعب الطويل «على مشغلة
البيت والزوج» فيردعه ناصحاً.

ويتعذر على النبي ان يتعرف على «كهمس
الهلاكي» حين رجع اليه، لما أصابه من نحول ووهن
في جسمه، وسأله عن سبب ذلك. فقال: «اني والله ما
أفطرت بعدك نهارة، ولا نمت ليلاً» فقال النبي: مَنْ
أمرَكَ ان تعذب نفسك (ثلاث مرات)..

حتى ان نفراً من مثل هؤلاء، كان يفر من زحمة
الحياة والأحياء، ويلوذ بنفسه ودينه الى الخلوات،
كعروة بن الزبير التابعي. وصلة بن أشيم، يخرج الى
المقبرة، ويتعبد فيها حتى يموت.. غير ان نفراً آخر من
الصحابيين والتابعين كان، الى شدة زهده ولبسه
الصوف، وكثرة تعبه، لا يدع الدنيا وشأنها، والناس

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٩ وما بعدها

وما هم عليه من بلاء وشقاء وظلم، بمعنى انه كان لا يسكت عن ظلم ولا يقر باستبداد. فلا يتحرج من نصيح الخلفاء والولاة، واحياناً تهديدهم وتحذيرهم من مغبة ظلمهم، واغتصابهم لحقوق الناس. لاسيما في عهد عثمان الذي يحدثنا المسعودي، وابن خلدون، انه كان من أسوأ العهود. فقد استشرى الفساد، وسادت الطبقية، وعظم ثراء الانسباء، والولاة، والقواد، وكان طبعياً ان تنشأ، مقابل هذه الطبقة المستغلة، طبقة أخرى هي عامة الناس، تعاني من الفقر والشقاء ما تعاني، وان يطلع من بينها شعراء زاهدون، موغلون في زهدهم، حيال ما يرون من فساد، واستئثار وطغيان. لكنهم، كانوا على تزهدهم، لا ينصرفون عن الدنيا وعن الناس نهائياً بل ينبرون الى الطغاة، مهما علا شأنهم، ينصحونهم ويحذرونهم من مغبة طغيانهم. وكانوا بذلك يعبرون عن الضمير الديني والاجتماعي للأمة، أمثال أبي ذر الغفاري، وعامر بن قيس، وهذا ضرار بن ضمرة الكناني لا يجد بأساً من وصف الامام علي في مجلس معاوية فيقول: «كان، والله، بعيد المدى، شديد القوى، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس

بالليل وظلمته، وكان، والله، غزير العبرة، طويل
الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من
اللباس ما قصر^(١) ومن الطعام ما خشن .. « ويمثل
هذه الروح والثقة يدخل ابو حازم الاعرج على
بعض خلفاء بني مروان ناصحا ومحذرا، وابن شبرمة
لا تعجبه هذه الهالة من العظمة الزائفة يحيط بها
خالد بن عبد الله القسري نفسه، فينشد في حضرته
قول الشاعر ابن حطان:

فان كانت الدنيا تحب فانها
سحابة صيف عن قليل تقشع

اما المتعظون بالزهاد، فقد كانوا كثيرا، حتى من
الخلفاء. فهذا عبد الملك بن مروان يبكي حتى بل
طرف ثوبه، حين قرأ كتاب ذر بن حبيش، الذي جاء
في آخره: ولا يطمعك، يا أمير المؤمنين، في طول
الحياة، ما يظهر من صحتك، فانت اعلم بنفسك،
واذكر ما تكلم به الاولون:

(١) نشأة التصوف الاسلامي ص ٩٨ وما بعدها د. ابراهيم بسيولي -
دار المعارف بمصر ١٩٦٩

إذا الرجال ولدت أولادها
وبليت من كبر اجسادها
وجعلت اسقامها تعتادها
تلك زروع قددنا حصادها

لقد ايقظ هؤلاء الحكماء الزهاد ضمير الحاكم،
الى حد بعيد، واعطوا من تزهدهم، وترفعهم، عن
الدنس والدنايا، وبهارج الحياة، المثل والقذوة،
فكانوا مصلحين ثوريين، في نظرنا، وان على تقطع
انفاس... واذا كانوا قد لبسوا الصوف، ولزموا
المساجد، وأكثروا من ذكر الموت، ورهبة
الحساب، فلأجل هذه الغاية، دون سواها: غاية
الاصلاح ومحاربة الفساد..

انه الفعل وردة الفعل في كل زمان ومكان،
وبأساليب كل زمان ومكان..

حتى اذا استفحل الشر، وسادت الفتن
والحروب، واشتجر الخلاف بين سفيانيين ومروانيين
وعلويين.. ثم، بعد الثورة العباسية، بين عباسيين
وفرسيين، وفرق من كل مذهب ودين.. رأينا
الزهد ينقلب تصوفا، اصلاحيا اول الأمر، ثم هرويا

وحلوليا، آخر الأمر ويصبح الوعظ بالسيف لا
بالحوار، والاقناع بالقتل، لا بالحجة . . ويصبح
التصوف حيلة المفلسين . .

وكمنازة ترسل أشعتها عبر المحيط
كان ابو العتاهية، قبل المعري، يرسل
اشعة فكره، ووجدانه، باتجاه محيط المحيط: الله . .
لاكفيلسوف، شيمة ابي العلاء، بل كمتأمل .
أغتنه التجاريب عبر رحلة الشباب والعذاب . .
كما أغناه فكره عبر السفر، والمشايخ،
والقراطيس . .

فتزهد، على طريقته، كما قال الشعر على
طريقته . .

ارضى الديانين، في توبته، أم لم . .
المهم انه «شعر» في أعماقه، بأنه قد أَرْضَى رَبَّهُ
ونفسه . .

عود على بدء

دوافع زهد الشاعر:

هناك، إذن، أسباب كثيرة دفعته الى الزهد، منها

المباشر، وغير المباشر، وقد ذكرنا بعضها في مطلع هذه الدراسة نتيجة استطراد اضطراري. وها نحن نذكر الباقي:

فشله في حب عتبة التي أخلص لها الحب، لكنها لم تكن على مستوى هذا الحب، كما يخيل الي. فهي جارية من جوارى المهدي، تعيش في بلاط ينظر الى الناس من عل، حتى جواريه. وكانت حجتها، في رفضه، امام سيدها المهدي: انه بائع جرار، قبيح المنظر(١) يتكسب بالغزل ويقضي الشاعر المقيم سنوات من عمره يتغزل بها، ويتدله في حبها، حتى ضاقت به الدنيا، فقرران. يتزهد. هكذا يرى المسعودي. لكنه، في نظرنا، سبب من جملة أسباب، ولعله أقواها لا اوحدها.

ومنهم من قال كالبيستاني: ان الباعث على تزده، حبه هذا النوع من حياة التأمل والعزوف عن حياة كبار الناس، في عزلة «متكبرة أنوف»^(١): وميله،

(١) على حد تعبير مجدد دائرة المعارف الاستاذ فؤاد افرام البيستاني. انظر دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٤٢.

أصلاً، الى حياة الزهاد، والنسك، وتوقه الشديد الى التعبير عنها في شعر اعتباري، ربما اراد السبق فيه، والتفرد به، ليذكر به، من بعده (١) وقد اعتمد البستاني، في ذلك، على رواية ابن منظور عن أبي خلد الطائي قال: جاءني ابو العتاهية. فقال لي: «إن ابا نؤاس لا يخالفك، وقد أحببت ان تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً، فإني قد تركت له المديح، والهجاء. والخمر، والرقيق، وما فيه الشعراء، وللزهد شوقي». فبعثت الى ابي نؤاس، فجاء الي، واخذنا في شأننا، فقلت له: ان ابا إسحاق (أي ابا العتاهية) من قد عرفت جلالته، وتقدمه، وقد أحب انك لا تقول في الزهد شيئاً. فوجم ابو نؤاس، عند ذلك، وقال: يا ابا خلد، قد قطعت علي ما كنت احب ان ابلغه من هذا، ولا اخالف ابا اسحاق في ما رغب اليه!.

ما هذا؟! كأن الشعر سلعة! فهذه للنساء، وهذه للرجال، او رزق حرام يتقاسمه اللصوص.. او

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٤٣

هواية من الهوايات، يوزعها، الهواة الفارغون، على بعضهم، كل لما قدر له، او هو عقد مشبوه بين تاجر ومستهلك!! حقا. ان هذا ما اساء الى قيمة الشعر العربي القديم، حين اعتبره أهله سلعة، او هواية، لا أكثر. . وإلا فما معنى هذه المقايضة يا ابا العتاهية؟

وهناك دافع آخر نراه وجيهاً، في تبرير زهد ابي العتاهية، وهو دافع نفسي فقد أراد هذا الفتى المتهتك ان يكفر، بالزهد، عن اوزار نفسه، وبالشعر الزهدي ينفس فيه عن كآبة دفينة فيه، وضيق بكل اوضاع مجتمعه. فقد نشأ فقيراً معدماً، او شبه معدم، متهما بنسبه، ودينه، وعقيدته، وسلوكه، واستطاع، بطموحه وتحمديه، ان يصل الى بلاطات الخلفاء ومحيا حياة القصور، ويستقطب من حوله، كبار الاصدقاء، والمعجبين، من أمراء، وقواد، ومغنين، وملحنين، ويمحو بهذا، ذلك العار الذي ألصق به زورا وبهتانا. . كما استطاع ان يكنز المال، ويقتني البيوت، والخدم والجواري. ويلد البنين والبنات. . .

لكن هاجسه كان أقوى من وضعه القديم

والجديد، وعقله الرازح تحت وطأة مزاج سوداوي .
انتهايه الى رفض كل ذلك، حين رأى فيه سرايا
خادعا، واحس، رغم النعيم الذي وصل اليه،
بالغبن الاجتماعي الفادح، ويجور الحكام وتقلبهم،
وفتكهم بأقرب الناس اليهم، وأخلصهم، وقد عانى
هو من هذا الجور والتقلب الشيء الكثير . فتكشفت
له الدنيا عن عبث مطلق، وتفاهة لا حد لها . وان
لا عيش فيها للكريم الشريف، او العامل الحر . .
ولعله، لهذا، فكر في تلك العزلة المنشودة، او
المحدودة على الاصح يُغني فيها أحلى ما تاق اليه من
معاني الزهد والاعتبار . فتهدأ تلك النفس اللهيقة،
وتُهدد هاتيك الاعصاب الرقيقة .

اما ان زهده كان سلبيا، بمعنى الهروب التام من
الحياة والأحياء، فلا . اذ بالرغم من انه ودع حياة
اللهو والمجون والغزل، الى حيث لا رجعة، وحطم
كؤوسه، وهجر ملاعب لهوه وعبثه، فقد كان يحن
اليها، بين الفترة والفترة، لكن، سرعان ما يردع
نفسه، ويعود الى الزهد . ويجمع الرواة على انه لم يقل
شيئا في الغزل بعد تنسكه . كما يجب ان نلاحظ انه

يفرق بين الحياة والأحياء. فهو يرى الحياة الدنيا شراً كلها. وهذا من تأثير المانوية، التي ترى ان الظلمة او الشر عنصر غالب في هذه الحياة. والنور او الخير عنصر مغلوب. وما الانسان سوى الضحية او الفريسة لذلك الشر الغلاب والإله القادر. فنرى الشاعر يقف أكثر شعره الزهدي على نصح «الفريسة» بألا تغتر بجاه او مال او شهاب. ما دام الموت بالمرصاد. كما تظهر «جبريته» في قوله بأن الانسان مجبر على فعل الشر والخير، ولا خيار له فيهما.

خليلي مالي لا تزال مضرتي
تكون مع الاقدار حتماً من الحتم

وكلتا الجبرية وغلبة الشر، من تعاليم المانوية، كما رأينا، في حين ان الاسلام الصحيح، لا جبرية فيه، ولا شر سائد او غالب، لا سيما لدى مفكري الاسلام الاحرار: المعتزلة. الذين قالوا بالاختيار، وكانوا على خلاف مع ابي العتاهية، ربما لهذا السبب نفسه، على انه من المغالاة القول بأن هذه النظرة عند شاعرنا كانت تحدد موقفاً نهائياً له فهو شاعر وليس فيلسوفاً.

اذن، هو مع الأحياء، في زهده، لا مع الحياة،
مع المظلوم، لا الظالم. القتل لا القاتل...،
يذم هذه، وينصح ذاك... ولكن متى؟
أحين عب من رحيقها شابا، وخاض في عباها
فاتكا؟ أم حين دامه الهرم، والوهن والخذلان، فلم
يستطع؟!

كثرة شعره في الزهد:

إذا قسنا عدد قصائده، وأراجيزه الزهدية، بعدد
قصائده في غير الزهد، لفاقت نسبته ثلاثة أرباع
ديوانه. فما السبب يا ترى؟ هل أصبح هذا الزاهد
ولا عمل له سوى النظم في الزهد؟ تراه انقطع
للزهد، فلا يجد أمامه سوى آيات الاعتبار، ينظمها
شعرا حكما زاهداً؟ وهل كل هذا نابع من اعماق
تجربته القاسية مع الحياة والوجود، وذوبان روحه في
استشراف سبل الخلاص؟ أم ماذا؟ الواقع أن تجربة
الزهد، ومعاناة حياة الزاهدين، لم تكن حارة، ولا
عميقة في كيان الشاعر، بقدر ما كان توقه الى تصوير
تلك الحياة، بكل معانيها، ومعطياتها، وأجوائها،
والرغبة في التخصص، دون سواه، بهذا اللون من

الشعر الذي قل الناظمون فيه، في عصره، رغم كثرة الزهاد يومذاك، هو الدافع الخارجي الحقيقي الذي دفع بأبي العتاهية الى الاكثار من مثالث زهدياته ومثانيها، تارة، وقصائدها الطوال تارة أخرى. ولم يخف هو هذا الدافع، حين طلب من أبي نؤاس ان يترك له النظم في الزهد، كما أسلفنا، فوافقه على ذلك.

وانصافا للواقع، علينا ألا ننكر زهده، او انه لم يعيش حياة التزهد والتقشف، كما انكر عليه ذلك، بعض معاصريه، من خصوم وحاسدين، ورجال دين.. حتى ابو العلاء المعروف بذلك الزهد الملتزم في عزلته الطوعية، وبدقة نقده، ورقة حسه، وشفافية حدسه، قد شك في صدق زهد ابي العتاهية، وتنسكه، حين قال في شيء من السخرية:

الله ينقل من شاء
رتبة بعد رتبة
ابدى العتاهي نسكا
وتاب عن حب عتبة..

مشيرا الى انه لم يبدِ نسكا، الا بعد فشله في الحب. . . وهذا ليس انكاراً، على كل حال. والاصفهانى، في حديث رفعه الى مخارق المغني، يربط بين هذا التنسك، وبين ذلك الفشل في حب عتبة. قال مخارق : «جاءني ابو العتاهية يوما فقال لي: قد عزمت ان اتزود منك يوماً تهبه لي. فمتى تنشط لذلك؟ فقلت: متى شئت، قال: اني أخاف ان تقطع بي. قلت: لا، ولو طلبني الخليفة. فقال: يكون ذلك في غد؟ فقلت أفعل. فلما كان الغد، باكرني رسوله، فجئته، فادخلني بيتاً نظيفاً، فيه فرش نظيف. ثم دعا بمائدة وعليها خبز سميد، وخل، وبقل، وملح، وجدي مشوي، فأكلنا منها حتى اكتفينا: ثم دعا بسمك مشوي. فأكلنا منه شيئاً، أيضاً، ثم دعا بفراخ ودجاج وفراريج مشوية، فأكلنا منها حتى اكتفينا. ثم أتونا بحلواء، فأكلنا، وغسلنا ايدينا. ثم جاؤونا بفاكهة وريحان، وألوان من الانبذة. فقال لي: اختر ما يصلح لك. فاخترت وشربت. وصب قدحاً ثم قال: عن لي قولي:

أحمد قال لي، ولم يدر ما بي
اتحب الفتاة عتبة حقاً؟
فتنفست، ثم قلت نعم حـ
بأ جرى في العروق عرقاً فعرقاً

فغنيته، فشرب اقداحا، وهو يبكي أحر بكاء،
ثم قال لي: غن لي قولي:

ليس، لمن ليست له حيلة
موجودة، خير من الصبر
فغنيته وهو يتحب ويبكي. ثم قال: غن ايضاً
قولي:

خليلي، مالي لا تزال مضرتي
تكون مع الاقدار حتماً من الحتم!

فغنيته اياه. وما زال يقترح علي كل صوت غني
به في شعره، وأنا اغنيه، ويشرب ويبكي، حتى
صار العتمة، فقال لي: أحب ان تصبر حتى ترى ما
أصنع. فجلست، فأمر ابنه وغلامه، فكسرا كل ما
كان بين أيدينا من النبيذ، وهو يبكي، حتى لم يبق
من ذلك شيء. ثم نزع ثيابه واغتسل، ولبس ثياب

يباض من الصوف، ثم عانقني ويكى . و قال :
عليك السلام يا حبيبي ، وفرحي من الناس كلهم ،
سلام الفراق الذي لا لقاء بعده . وجعل ييكى ،
ويقول : هذا آخر عهدي بك في حال تعاشر اهل
الدنيا . فظننت انها بعض حماقاته . وانصرفت . فما
لقيته زمانا . ثم تشوقته ، فاتيته ، فاستأذنت عليه .
فاذن لي فدخلت ، فاذا هو قد أخذ قوصرتين^(١) وثقب
احدهما ، وادخل رأسه ويديه فيها ، واقامها مقام
القميص ، وثقب الاخرى ، واخرج رجليه منها ، واقامها
مقام السراويل . فلما رأيته نسيت ما كان عندي من
الغم عليه ، والوحشة لعشرته ، وضحكت ضحكا ما
ضحكت مثله قط . فقال لي : من اي شيء تضحك ،
لا ضحكت ! فقلت اسخن الله عينك ! هذا اي شيء
هو ؟ من بلغك انه فعل مثل هذا من الانبياء او
الزهاد ، أو الصحابة ، أو التابعين ، أو المجانين ؟ أنزع
عنك هذا يا سخين العين . فكأنه استحى مني . . .
ثم بلغني عنه انه جلس حجاما ، فجهدت ان اراه

(١) القوصرة : وعاء يرفع فيه التمر من البواري . وتلفظ : قَوْصَرَة ،
وقَوْصَرَة . انظر : لسان العرب مادة قَصَرَ .

بتلك الحالة . فلم أره . ثم مرض . فبلغني انه اشتهى ان أغنيه ، فاتيته عائداً ، فخرج الي رسوله يقول : ان دخلت ، جددت لي حزناً ، وتاقت نفسي الي سماعك ، والى ما قد غلبتها عليه ، وانا استودعك الله ، واعتذر اليك من ترك الالتقاء . . ثم كان آخر عهدي به . . . » (١) .

ورواية مخارق هذا ، على ما فيها من اسلوب الاختلاق ، والصنعة الروائية الواضحة ، ان صحت ، فانما تدل على ان الرجل دخل في الزهد ، وحياة التنسك ، من بابها العريض ، رغم ما في حركات هذا الدخول من غرابة وهجنة .

وهناك روايات كثيرة عن طريقة زهده ، وكلها تجمع على انه تزهد فعلاً . لكن على طريقته الخاصة . . بمعنى انه انقطع عن حياة اللهو ، لا عن الحياة كلها ، شيمة البوذيين المانويين ، فقد ظل ملتصقاً بالناس واعظاً ، وراذعاً ، ومذكراً ، حتى انه عاد بعد الرشيد (وفي أيامه تزهد الشاعر) ، الى معاشره ولديه

(١) انظر : دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٤٢ بيروت

الأمين، ثم المأمون، مادحا وواعظا . فكيف ينعنون
زهده بانه زهد بوذي بعيد عن روح الاسلام؟ وقد
علمنا ان بوذا تنسك وهجر الملك والسلطان، وانقطع
عن الحياة نهائيا . وترهب . . مطبقا على نفسه تعاليمه
التي تقول بالتصوف والانقطاع؟! واذا كان ابو العتاهية
قد اعجب بصورة بوذا - الملك - الزاهد . وكررها
في شعره . كما في قوله :

يا من تشرف بالدنيا وطيتها
ليس التشرف رفع الطين بالطين
اذا أردت شريف الناس كلهم
فانظر الى ملك في زي مسكين
وكررها في قوله :

لله أهل قبور كنت اعهدهم
اهل القباب الرخاميات، والغرف
يا من تشرف بالدنيا وزيتها
حسبُ الفتى بتقى الرحمان، من شرف
أو قوله :

من قر عيننا بغنى بلغة
يوما بيوم، عاش عيشة الملك

او قوله :

لما حصلت على القناعة لم ازل ملكا، يرى الاكثار كالإقلال
اذا كان قد اعجب بهذا المثال الرائع للملك الزاهد
حين يدفع به ايمانه الى قتل النفس وشهوتها الى القوة
والسلطان ورآه متجسدا في بوذا، فقد رآه متجسدا
كذلك في المسيح - الملك الذي دعا الى القناعة والعيش
عيشة الكفاف: «اعطنا خبزنا كفات يومنا» الى الترفع
والترهب . . حتى الاستشهاد . . فصوره وراح يتغنى
به . . فليس معنى هذا ان ابا العتاهية كان بوذي
المنهج والطريقة والروح في زهده، او نصرانيا في
تنسكه . .

كل ما هنالك انه، كشاعر، متزهد، تعجبه
صورة ملك او أمير، من ابناء الملوك كبوذا هجر الملك
والسلطان طائعا مختارا، وعاف، كل ما اتيح له من لذائذ
الحياة، وتنسك . . او كالمسيح يسوع في فلسطين
حافيا متنسكا مبشرا ونذيرا . . فيعكس كل هذه
الامثلة الرائعة في شعره كنماذج خالدة، والواعظ
الزاهد بحاجة الى الأمثال والأمثلة كلها أراد ان يدعم
موعظته بالحجة الدامغة، والمثل الحي . .

كان عليه، في نظر بعض الباحثين، ان يتخذ مثاله من سيرة السلف الصالح وحده، حتى يصح اسلامه، ويصدق زهده، وإلا فهو زنديق او بوذي! منطلق تعصبي ضيق، لا يثبت على محك النقد الادبي الصحيح، في اي حال.

ومهما يكن فليس ابو العتاهية، الشاعر، اول ضحية، ولا آخر ضحية من ضحايا بعض باحثينا الذين ينظرون الى من يدرسون من الادباء والشعراء والفنانين، نظرة سلفية محدودة، وحيانا مشبوهة.. وخطأهم انهم يؤرخون، ولا يحللون، ويعتمدون في تأريخهم، على أقوال شائعة يعتبرونها مسلمة..

اما نحن، فنميل، بعد التحليل، الى اعتبار زهده حقيقة من حقائق تطور الشاعر، ورشحا من رشوح ثقافته، وطبيعة من طبائعه التي غطى عليها الشباب يوماً. فقد كان. كما علمنا، بعيدا عن الناس لصيقا بهم في آن. بعيدا بعدا نفسيا وعقليا، لا بعدا جغرافيا او ماديا، بمعنى انه كان رافضا للكثير من عاداتهم، ومفاهيمهم، ومعتقداتهم. ومن كان هذا شأنه، منذ البداية، لا بد ان يدفع به اليأس اخيرا، ويعد تجارب قاسية، في الحب وغير الحب،

معهم الى العودة الى تلك الطبيعة النافرة المستنفرة
الساخرة.. الى ذلك المزاج السوداوي الذي فطر
عليه.. ولم يكن الفشل في الحب الا تلك الشرارة
الاولى التي أشعلت حطب شبابه اليابس، واهبت
وجدانه البائس..

والمؤسف ان القدامى وبعض المعاصرين، لم
يربطوا، كما يجب، النتائج بأسبابها الحقيقية في قضية
زهد أبي العتاهية، جماع ما قالوه: لقد فشل في حب
عتبة، فتنسك. وكان نسكه مزورا.. لأنه قسري، لا
طوعي.. كما لم ينطلق من منطلق اسلامي ايماني
صريح. فهو اذن زهد ملغوز.. مانوي.. بوذي!
وكفى الله المؤمنين شر النقد والتحليل، والانصاف..

في هذا الجو النفسي الذي بدأ يعيشه الشاعر،
ومع كل ذلك الاستعداد الفطري، وكل تلك الرغبة
في الزهد، والتطوع لتصوير حياة الزاهدين
ومواعظهم شعرا، كان لا بد لأبي العتاهية الا يقول
الشعر الا في الزهد والتنسك والاعتبار، حتى اصبح
الزهد هو الموضوع الوحيد الأثير لديه حين يتكلم،
وحين ينظم، وحين يعظ.. ترفده في كل ذلك

شاعرية فياضة وقدرة قادرة على صياغة الكلام العادي شعرا. . وحرية في التصرف بالقوال والبحور والقوافي ميزت سائر قصائده وارجيزه، بالسهولة المطلقة، والعفوية التامة. . حتى بدا وكأنه يتنفس الشعر تنفسا. . فأى معنى شائع من معاني الحكماء والبلغاء والفلاسفة، وحتى العاديين، سرعان ما يتناوله الشاعر فيصبه في قالب نظمي سهل سريع، وإذا به يتجسد حكمة شائعة، وقولا مأثوراً.

ولم يكن من الضروري، ، ان يمرر كل هذه المعاني على محك وجدانه، او ان ينبثق من كيانه، وتجربته الخاصة. . كما سيفعل المتنبي، مثلاً، حين كان يفعل بمعانيه المقتبسة، انفعالا شديداً، ثم يقذفها، عبر تجربته العقلية والوجدانية، فاذا بها حارة عميقة، حرارة وعمق وجدانه وعقله .

كان المتنبي، في هذا المجال، كالمولد الكهربائي Générateur. كما سميناه^(١) وكان ابو العتاهية كالآلة الحاسبة، او العقل الالكتروني (كمبيوتر) يفرز، في

(١) انظر كتابنا: المتنبي: أمة في رجل الصادر عن دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠

دقة متناهية، كل ماتدخله في جهازه من معلومات، وكل ما تطلبه كنتائج ومحصلات.. وكما يتميز المولد بالحرارة، واتصال الاشعاع، يتميز الكمبيوتر بالبرودة والانقطاع.. والقذف بالمعلومات تباعا، وبالتائج، في تراكمية كثيفة، طوأن فترة الطلب والعرض!

من هنا كان لا بد لشاعر، هذا شأنه، بل لناظم هذه آله، أن يكثر ويكثر من النظم عند كل طلب، ويعد كل مناسبة وما كان أكثر الطلب، في زمانه، وأكثر المناسبات! كان الناس والمريدون، أمامه، كأنهم أمام ماكينة تعمل آليا، ويمجرد «كبسة زر» تنطلق في الفرز والافراز، بلا هوادة، وينطلق المريدون بالالتقاط والحفظ والتدوين.. كميات هائلة، اذن، من الشعر الزهدي، وغير الزهدي، افرزته تلك الآلة العجيبة.

ولا بد انها جمعت في ديوان.. ولكن اين هو هذا الديوان؟^(١) وهل منه نهتدي الى تلك الكثرة الكاثرة لقصائد الشاعر وارجيزه؟

(١) لقد جاء ديوان ابي العتاهية الذي بين ايدينا ناقصا ومبتورا. اولاً: =

كلا. فقد ضاع أكثر قصائد ابي العتاهية، في
مهيب رياح الفتن والحروب التي اصابته الأمة العربية
عبر تاريخها الطويل، كما ضاع غيرها من نفائس
التراث..

=لأنه جمع بعد وفاته. وثانيا: لأن جامعيه لم يوفقوا الى جمع كل ما قاله
نظراً لثناقصه عبر الزمن، وجراء الفتن والحروب، وموت الرواة
الاولئ، وثالثا: لأن ابا العتاهية نفسه قد ساعد على ذلك، لأنه،
بعد ان تزهد، كان يغفل الكثير من قصائد اللهو والمجون والتهتك
لثلا يؤخذها.

ولم نعرف له ديوانا شبه متكامل الا على يد ابن عبد البر النمري.
وهو لا يزال مخطوطا، محفوظا في دار الكتب المصرية رقم ٣٩٣-
ادب. وفي المكتبة الشرقية ببيروت. وما قبل هذا لم يكن هناك سوى
كتب لم يؤلفها اصحابها لجمع قصائد ابي العتاهية وحدها: ككتاب
الفهرست والاغانى واختيارات اشعار الشعراء لطيفوز، ومروج
الذهب وزهر الآداب. والاوراق الخ. وفي عصرنا هذا نجد ابرز
ديوان او مؤلف هو: الانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية ط.
بيروت للأب لويس شيخو، الذي لم يكتف بمخطوطة دار الكتب
المصرية، بل أضاف ما عثر عليه من اشعار زهدية اخرى لابي
العتاهية مبثوثة في ثنايا كتب التاريخ والأدب. المؤلف.

وسبب آخر ضييع العديد من قصائد الشاعر،
واراجيزه نراه في تعصب الرواة ضده.

فكلما شموا منها رائحة زندقة، او مانيوية، او
تهجماً على رجل دين او عقيدة، شطبوها من
ذواكرهم، وكراريسهم. . اذ لا يعقل ان يكون ما
ضمه الديوان، هو كل ما قاله ابو العتاهية، من
قصائد، ومقطوعات، وارجيز، وهو من هو، إكثارات،
ورغبة شديدة في صياغة كل معنى يخطر على باله
شعراً، حتى كاد ينطق، حين ينطق، بالشعر. . ألم
يقل يوماً: ان الناس، وليس هو فقط، حين يتكلمون
ينطقون بالشعر، ولا يدرون. وهو يقصد، ان كلامهم
هذا، في صوره، وتفاعليه المختلفة، يأتي موزوناً،
وايقاعياً، على نحو ما، وهو بالتالي شعر، في نظره، او
على الأصح: نظم، في نظرنا. . او قول موزون
وموقع. . فكيف به وهو الشاعر الموهوب،
والمتخصص، قبل الزهد ويعدّه، بكل فنون القول،
وموضوعات الشعر، وان كان الغزل اقلها. .

يقول ابو العتاهية (في رواية لابن عساكر) انه قال
في الزهد عشرين ألف بيت، وبالطبع فقد اضاف

عليها، مئات ان لم نقل آلاف، بين قوله ذاك، وبين موته، ويقول صاحب الاغاني^(١) انه قال في ارجوزة واحدة. وهي المسماة بذات الأمثال، اربعة آلاف بيت وهاهي بين ايدينا لم يبق منها سوى خمسين بيتا. او أكثر قليلا، كما يجمع المؤرخون ورواة شعره، ان لديهم ما قاله قبل الزهد، ما يقارب عدد قصائد الزهد، ان لم يزد عليها. ومعنى هذا بالارقام: ٢٠ ألف بيت في الزهد + ٥٠٠ بيت اضافية على الأقل + ٤٠٠٠ بيت قوام الاجوزة = ٢٤٥٠٠ + ١٧٥٠٠ بيت تقريبا في اغراض شتى قبل الزهد = ٤٢٠٠٠ بيت فيكون مجموع ما قاله على وجه التقريب اثنين واربعين ألف بيت من.. الشعر.. اما ما وصل الينا فلا يتجاوز الخمسة آلاف بيت!! أي فوق العشر بقليل. ونحن لم نورد هذه الاحصائية، لابداء أسفنا على هكذا شعر، غث، مكرور في أكثره، بل لنسجل ظاهرة خطيرة، يؤسف لها حقا، هي ان الكثير من كتب التراث، وأثار الادباء والعلماء، والشعراء خاصة، قد ذهب، لا

(١) الاغاني / ٤ و ٧٨ و ٣٥

(٢) العمرة / ١ و ٢٢١ و ٢٢٢

بفعل الفتن والحروب، والغزو الخارجي فحسب، بل
على يد الرواة العرب والمسلمين انفسهم الذين
مزقوا واحرقوا ما لا يعجبهم من آراء وعقائد
بعض الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة
التي ضمنوها اشعارهم وآثارهم . . تماما كما فعل ديوان
التفتيش في اسبانيا . . فحرمونا من الزبدة، ربما،
وابقوا على الزبد . . والمؤسف ايضا، ان ابا العتاهية
نفسه، قد احرق، او مزق، كثيرا من قصائد المجون
والغزل، حرصا على تخصصه في الزهد، ووقاره في
حياته الجديدة بعد الخمسين . . وليذهب النتاج الاعمق
والاجمل : نتاج الشباب بكل زخم التجربة . . الى
الجحيم !

مسكين ابو العتاهية، لم يكفه ان جنى عليه
الجنة، بعد الممات، فطمسوا معظم آثاره، فجاء هو
يمهد لهم الطريق، فيعفي على الاجمل منها، عنيت
الاهم قيمة فنية، واعلق في النفوس، من المواعظ
والنصائح المكرورة الباهتة، التي يمجها الناس من
الزاهدين الحقيقيين، فكيف من زاهد كأبي العتاهية،
لم يعشها، كما يجب ! . .

كما يلاحظ ان الخمسة آلاف بيت التي وصلت
اليها، وهي العشر، لم تخل من انتحال، ودس، لا سيما
في الجانب الزهدي من الديوان، فهناك أبيات
في العتاب، والزهد، قد خلت الديوان، وهي ليست
للشاعر، بل هي تارة لأبي نواس، وتارة لابن دحمان،
وسواهما. ذلك لأن الرواة، قدنسبوا اليه لانسجامها
مع روحه في التنسك، وطريقته في الوعظ، ومن جهة
ثانية، فقد انتزع من أبي العتاهية، أبيات في الزهد،
والاعتبار، والحقت، خطأ، بغيره. . حتى ان بعضها
قد نسب الى شعراء جاهليين كالحطيئة وزهير، كقول
أبي العتاهية:

الحمد لله أني في جوار فتى

حامي الحقيقة، نفاعٍ وضرارٍ
لا يرفع الطرف إلا عند مكرمة
من الحياء، ولا يغضي على عارٍ

يقول ابن رشيق في عمده: «ورواه بعضهم
للحطيئة. وهذا شرف عظيم لأبي العتاهية ان كان
الشعر له. ولا أشك فيه.» ومثل هذا الأمر نجده في
ما يرويهِ الخطيب البغدادي: «واخبرنا عبدالله بن يحيى

السكري . قال : نبأنا جعفر بن محمد بن احمد بن
الحكم الواسطي قال : عن ابن عباس انه قال :
وجدت جمجمة في الجاهلية مكتوبا عليها :

أُذُنٌ حَيٌّ تَسْمَعِي
اسمعي ، ثم عي وعي
انا رهن بمصرعي
فاحذري مثل مصرعي

والخطيب نفسه يروي هذا الشعر ، في قصة
أخرى ، فيقول : حدثني عبد العزيز بن علي الوراق
قال : سمعت عبيد الله بن احمد بن علي المقرئ
يقول : سمعت محمد بن مخلد العطار يقول : سمعت
اسحاق بن ابراهيم البغوي يقول : قرأت على قبر أبي العتاهية :

اذن حي تَسْمَعِي
اسمعي ثم عي وعي
انا رهن بمضجعي
فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة
ثم فارقت مجمعي

ليس زاد سوى التقى
فخذي منه، او دعي..

ويروي ابو الفرج هذه الأبيات الاربعة، مع اختلاف يسير في اللفظ، وان ابا العتاهية أمر ان تكتب على قبره، ورغم ان.الذي نسب هذه الأبيات الى شاعر جاهلي هو ابن أبي العتاهية، فان الروايات المتواترة قد اكدت نسبتها الى ابي العتاهية دون سواه، والميزان الفني يرجح هذه النسبة، لكون الابيات تنسجم وروح ابي العتاهية في الوعظ والوقوف على القبور. . ولعل ابن الشاعر قد اراد نسبة هذا الشعر لغير ابيه، من شعراء الجاهلية، لينفي عنه عادة الكتابة على القبر، وهي عادة جاهلية. وفي هذا تشويه لسمعة الأب الذي عرف بالزهد والتبسك^(١) اذ يكفي ما شكك فيه. . .

ومهما يكن من امر ابي العتاهية، فقد كان غزير

(١) ابو العتاهية: حياته وشعره ص ١٨٧ د. محمد محمود الدش -

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨

المادة، سيال الموهبة، طويل الباع، في نظم النثر،
ونثر النظم... ولا تضييره إضافة أبيات الى ديوانه،
او حذفها منه، ما دام كذلك الزراع الذي يذهب الى
الحقل فاتحاً جعبته المليئة بالبذار، ناثراً منها ذات
اليمين وذات اليسار، قمحاً صليبا او زؤانا غريبا،
غير آبه، وقع البذار في التربة الخصيب، ام على
الصخر الجديب! المهم انه يبذر ويبذر، ولا يكف عن
البذار... .

كثرة الحكمة في شعره:

لأنستطيع القول ان الحكمة عند شاعر ما، هي
دائما وليدة تقبل الشاعر للعقل، والانطلاق، نتيجة
هذا التقبل، الى صياغة المعاني صياغة عقلانية مضغوطة،
بحيث تتقوّل هذه المعاني في قالب تقريرى لتصبح
وكأنها من النظريات الثوابت التي تعبر عن موقف
الشاعر امام الحياة والاحياء، والقيم الاجتماعية
السائدة.. .

بل قد تأتي الحكمة نتيجة ضعف التجربة
الشعورية.. . اذ سرعان ما ينقلب شاعر رومنى كابن
الرومي، الى حكيم.. . خاصة في مطولاته، حين تبرد

العاطفة وتضعف التجربة، ويخف الانين والحنين والوجع،
في هذه الحالة، تنعدم «الحال» ليطل العقل
بكل منطقيته، وبرودته، فيأتي الشعر غثا باردا،
تتخلله صفتان هما من اهم صفات العقل وافرازاته:
الحكمة المقولبة، والثرية الجافة، حتى اذا خلا، مثل
هذا الشعر من الحكمة، وقع الشاعر اسير التقريرية
وحدها.. حيث يموت الشعر.. وهذا بالضبط ما
ضبط فيه ابن الورمي، في قصائده الطوال، متلبسا..

وحين رفض ابو نواس مثلا، الرؤيا العقلية،
وغاب، لنسيانها، في نشوة اللذة المادية، لا سيما
في الخمرة حيث يسقط العقل، وتستيقظ كل المدارك
الشعورية.. حينذاك كان شاعرا حقا، وحين صحا،
لم يكن.. إلا بمقدار..

والمتنبى انسان عاقل، او عقلاني.. بمعنى انه
يدرك اكثر مما يتأثر، ويتعبير اصح: انه قادر على ان
يعقلن تأثيره. فتأتي رؤياه العقلية، او تجربته العقلية،
ذات خميرة شعورية لذات يحركها «الأنا» المشبوب،
فاذا به يصوغ كل هذا حكمة حارة مثيرة، وكأنها
بكل معانيها ررموزها من صنع هذا الشاعر العظيم

الذي استطاع ان يدرك العالم من خلال ذاته التواقة،
وان يدرك ذاته من خلال العالم، وبكلمة، : امكنه ان
يجد الصلة التي يتجاوز بها ذاته الى «الأخر» او يتجاوز
«الأخر» الى ذاته، في معادلة عقلية . شعورية، رجح
فيها العقل فكانت «الحكمة» ولم تنعدم الذاتية،
فكانت الاثارة وتحتّم بيننا وبينه، الاتصال.

فالحكمة، على هذا الاساس ليست فلسفة، لأن
الفلسفة تهدف الى ايجاد النظرية التي تفسر علاقات
مجموعة من الأشياء، او تحدد موقف الانسان من
الحياة، والموت، والله . والحكمة لا تفعل ذلك .
فالشاعر- الحكيم . اذن، ليس فيلسوفا على الاطلاق،
وحين يحاول الانتقال الى الفلسفة، يسقط كشاعر،
وقد لا ينجح كفيلسوف، كما فعل ابو العلاء . . اراد
ذلك، ام لم . . فما هي الحكمة اذن، واين موقعها من
الشعر؟

الحكمة دون نعت، تصبح رأيا خاصا، او
منقولا، وتسقط فنيا، اما اذا نعتت «بالممتعة» او المثيرة
فهي التي عناها «نيتشه» حين قال انها تلك التي تثير
الخيال، وتطلقه، مدركا ومثيرا في آن، والخيال الواعي

هو ، في نظره: «ولادة حتمية لالتقاء الارادة بالعقل» حتى اذا سطح هذا الخيال، ووصل الى منطقة الوهم، بالارادة، والاختيار، انقلب الشاعر العقلاني الحكيم فنانا، وفنانا كبيراً. ذلك ان الفن ما هو الا محصلة، «الاختيار الارادي للوهم» على حد تعبير شوينهور. او هو بتفصيل أكثر من بول فاليري: «لا بد ان يتدخل، في الفن^(١) شيء آخر غير الحساسة، هو العقل، فالعقل اذن يتدخل، فيتدخل معه التنبؤ السواعي ثم يليه التخيل المثقف، او اللاتلقائي .» فالشاعر الحق، هو الذي لا يكتفي بمنهجية العقل، او نظامية التفكير، بل هو الذي تهزنا «لانظامية نظامه» اذا جاز التعبير. .

وبكلام آخر: تهزنا مقدرته على الخروج، بحرية، من سجن العقل، ونظامه. . الى فضاء الذات الأرحب، ودنيا الاحساس الأوسع. . الى عالم لامتناهٍ من المشاعر والتخيلات، والهواجس، اي حين يصبح قادرا على اشارة العقل، ودفعه إلى الحياة في حمى المغامرة،

(١) الخلق الفني - بول فاليري ١٩٢٧

والمغايرة، والهجرة، . . شيمة ت . ي . لورنس .
مثلا، والمتنبى الى حد كبير . .
اما ابو العتاهية، فلا يرقى الى هذه الذروة من
الامتياز . . فما هي « حكمته » وما لونها وطعمها
ونكهتها؟ ومن اين انطلق بها؟

نبادر الى القول ان ابا العتاهية «الحكيم» هو ابو
العتاهية الناظم . . اي ان قدرته على صياغة الحكمة،
كقدرته على قول الشعر، سواء بسواء، سهولة سهلة،
وعفوية مطلقة، ومعايشة للمعاني متصلة ترفده ذاكرة
قوية وسرعة استدعاء لمخزوناتنا فلم يعد بحاجة إلى
اعمال فكر أو صناعة بلاغية، كما سيفعل ابوتمام مثلا
لتأتي حكمته من أعماق الذات والعقل والتجربة،
يكفي ان يطرح عليه سؤال في الموت
وما بعد الموت، وفي الانسان، واللذة والقناعة
وما سواها، . . حتى يتدفق ابو العتاهية بالحكمة
الجامعة المانعة، في تلقائية ارتجالية بارعة لا يعوقها
عائق من تفنن او تصنيع، او تفلسف . . .

قيمتها الفنية :

الا ان هذا لا ينفي عن حكمته، قيمتها الفنية،

فالتلقائية، في قول الشعر، وصياغة الحكمة، مسألة يعتبرها النقاد المعاصرون ذات وزن، لا يقل عن وزن الشعر المثقل بالتجربة العقلية التي ذكرناها، والتي تميز بها شعر ابي تمام والمتنبي، ولورنس، وامثالهما.

يقول بول فاليري: ^(١) « سيظل الناس ينسبون الى التلقائية (في الشعر) قيمة متعالية، وسيظلون، ايضا، يتحدثون عن الالهام، ويعارضونه بالعقل، ولكن دور العقل، هو مجرد دور الكائن البشري الذي يراقب نشاطا خاصا، ويوجهه، وينمو هذا الدور الذي يلعبه العقل في العمل الفني بنمو الثقافة، فكلما ازدادت الثقافة ازداد عمل العقل . . . ان الموهبة الحقيقية للفنان والخاصة به، هي تلك التي تجعل من هذا(الشعر) عملا فنيا يغني من تلقاء نفسه، وبصورة مستقلة عن المشابهة، ان كل عمل فني يمثل شيئا من الكمال . . . اني لا اعرف الا عددا قليلا من القصائد المؤلفة . . . الخ» أي تلك التي تتطلب جهدا فكريا، وتقنيات لغوية وبلاغية، وابو العتاهية شاعر تلقائي، اي انه لا

(١) الخلق الفني: تأملات في الفن ص ٧٠ بول فاليري ترجمة
بديع الكسم. منشورات الرواد (بدون تاريخ) دمشق

يؤلف قصائده تأليفا « تقنيا » بل يطلقها في مسار عفوي . يطول او يقصر بحسب طول النفس ، او قصره ، لا النفس . . فاللغة العتاهية هي الاقتراب حتى الالتصاق من بساطة التعبير الشعبي . وعفوية اللغة المحكية التي لا تهمل حرفا من طقوس الفصحى ، واسلوبه الشعري الفريد ، هو هذه البساطة المتناهية في التركيب النحوي والتصوير الفني . . فنحن لا نشعر « برهبة » المثل امام نص ابداعى ، كحالنا امام ابي تمام او المتنبي ، كما اننا لا نشعر بالسهولة المجانية التي لا تريد ان تقول شيئا . . هناك في الواقع عمق شفاف ، في حكمة ابي العتاهية ، وفي شعره بشكل عام ، . . بمعنى انه يريد ان يقول شيئا ، ان يعمقه في ذواتنا ، ان يقنعنا بأنه هو ايضا ، يشعر به ، في عمق وحرارة وإيمان ، . . خاصة مسألة الموت ، وعدمية الحياة . . حتى لبدو وكأنه أسير هذه الحقائق الكونية الصارمة والمحتمة والمؤلمة في آن . . . يصبها في حكمة تلوب باستمرار حول عدمية الحياة والوجود مرصباها الى الفلسفة العلائية وحكمة ابي الطيب ، ففي هاتين ظلال وانعكاسات كثيرة ، من ابي العتاهية ، لا مجال لتفصيلها هنا . .

ثم ان التلقائية تبقى محتفظة بحرارة انبثاقها، فلا
تبرد بفعل العقل، ولا بفعل سيطرة الصياغة عليها
بله التعقيد. وهذا ما يبقي جوهرها فوق المحك..
واذا كانت حكمه المبتوثة في ثنايا موضوعات
شعره غير الزهدي هي نتاج ثقافة متعددة الروافد، او
انها حصيلة التماع ذهني، فان الحكمة في شعره
الزهدي هي انبثاق وجداني ايماني يللمه العقل
بسرعة مذهلة، ويقذفه دون ان ينفع به، الى
الناس المعنيين مباشرة به، والذين ينتظرونه بفارغ
الصبر، يقذفه اليهم، وفي مناسباتهم، مرتجلا احيانا،
حارا وطازجا، في كل حين، تماما كما كان يفعل عمر
بن ابي ربيعة، حين يلح عليه المغنون والمغنيات،
وخاصة الملحنون « فيفبرك » لهم غزلا رقيقا على
الأشطار والمجزئات الملائمة لأوتارهم وحناجرهم،
والمنسجمة مع الجوالنسائي المعطر..

شعر ابي العتاهية الزهدي، وأكثره حكم، يرد
العالم من نهاياته، النبع من مصبه، والنهار من
غروبه، يطل على اجسادنا من جراحاتنا، ولا ينثر
الزهور على جثثنا، بل يزيدها جراحا معلنا نهاية العالم
وعبثية الحياة، ولعنة القدر.. ربما لنبقى معه
« أحياء » متألين..

اما الانسان - الضحية فيتناوله كعابر سبيل،
كمسافر مكره على السفر فيزوده ببعض النصائح،
والمحاذير، عليها تنفعه في تفادي وحوش الغاب قبل
ان يصل الى المقلب الثاني من الدرب الكبرى ..

نماذج من حكمته :

أ - في الغزل :

رأيت الهوى جمر النضاض، غير أنه
على جرة في صدر صاحبه حلو
وما من حبيب نال ممن يحبه
هوى صادقاً، إلا يداخله زهو
ان المحب اذا شطت منازلها
عن الحبيب، بكى، او حن، او ذكرا
من كان يزعم أن سيكتم حبه
او يستطيع الستر، فهو كذوب
الحب أغلب للفراد بقهره
من ان يرى للسر، فيه، نصيب
اني لأجهل ذا هوى متحفظا
لم تتهمه أعين وقلوب

ب - في العتاب .

قال يعاتب صديقه عمرو بن مسعدة :

بلوتُ اخا للناس ، يا عمرو كلهم
وجربت حتى احكمتني تجاربي
فلم أر ودّ الناس الا رضاهم
فمن يُزِر ، او يغضب ، فليس بصاحبي

وقال يعاتب صديقا آخر هو أحمد بن يوسف :

ألم تر ان الفقير يرجى له الغنى
وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
إن الصديق يلج في غشيانه
لصديقه فيمل من غشيانه
واقبل ما يلقي الغنى ثقلا على
اخوانه ، ما كف عن اخوانه
واذا توانى عن صيانة نفسه
رجل ، تنقص واستخف بشانه

ج - في الهجاء :

حتى في الهجاء نراه قادرا على صياغة الحكمة .
هجأ يوما حميد الطوسي المتكبر ، منكرا عليه تكبره

وتيهه، فجاء انكاره في قالب الحكمة والموعظة غير
المباشرة:

للموت أبناء بهم
ما شئت من صلف وتيه
وكانني بالموت قد
دارت رحاه على بنيه.

د- في المديح:

وتسري الحكمة العتاهية في كل باب، فهي في
المديح كما هي في التهاني، وفي الهجاء: آراء وخواطر
مصوغة صياغة الحكمة الشائعة.

قال من قصيدة في مدح الرشيد:

ومن ذا يفوت الموت، والموت مُدرك
كذا، لم يفت هارونَ ضدُّ ينافره

ووقف مرة، وهو شيخ، على باب الرشيد،
فانشد مادحاً، وقد بدأ بالحكمة:

ليس للانسان إلا ما رزق
أستعين الله، . بالله أثق
الى آخر الأبيات. وهي في تعداد خصال الرشيد،

ومزاياه . ' أعجب بها احد الهاشميين الذين سمعوه وهو
ينشدها، فقال : ان الاعناق لتقطع دون هذا
الطبع . .

حدث اسحاق الموصلي، قال : « قال لي الرشيد
يوما : بأي شيء يتحدث الناس ؟ قلت : يتحدثون
بأنك تقبض على البرامكة ، وتولي الفضل ابن الربيع
الوزارة . فغضب وصاح بي : وما انت وذاك ، ويلك ؟ !
فأمسكت ، فلما كان بعد أيام دعا بنا . فكان اول
شيء غنيته :

إذا نحن صدقناك
فضر عندك الصدق
طلبنا النفع بالباطل
اذ لم ينفع الحق
فلو قدم صب في
هواه الصبر والرفق
لقدمت على الناس
ولكن الهوى رزق

والايات لأبي العتاهية . قال : فضحك الرشيد .
وقال : يا اسحاق قد صرت حقودا . . »

ولكن الهوى رزقاً! حكمة بالغة اجاد شاعرنا
سبكها، حين ضغطها في ثلاث كلمات.. وحملها
كثيراً من ظلاله النفسية وتجربته.

روي انه لما قتل الخليفة الأمين، ارسلت زبيدة
الى أبي العتاهية، بأن يقول على لسانها أبياتاً تستعطف
بها المأمون. فأرسل اليها الأبيات التالية متوجة
بحكمة تختصر اقدار الناس.

ألا ان صرف الدهر يدني ويبعد
ويمتد بالآلاف، طوراً، وينفد
اصابت بربب الدهر مني يدي يدي
فسلمت بالاقدار، والله أحمد
أقول لربب الدهر إن ذهبت يدُ
فقد بقيت والحمد لله لي يدُ
وله في طباع الناس وشذوذها حكمة تختصر مقالة
برأسها:

مالي أرى الأبصار لي جافية
لم تلتفت مني الى ناحية
لا ينظر الناس الى المبتلى
وانما الناس مع العافية

تأمل: وانما الناس مع العافية.. ما أقربها الى القلب، واسرعها الى التغلغل في الوجدان، بصرف النظر عن الحقيقة المقررة فيها.. ولعلك تشعر معي بوجع الشاعر وروحه الشعبية المتناعة.. فقد استطاع بمثل هذه السهولة، والمباشرة، ان ينطق بلسان تلك الفئة الواسعة من الشعب التي ترى كل يوم وتسمع ما يصرف الانظار عنها، ويتركها سادرة في شقائها. فالناس اتباع القوي الصحيح، أعداء الضعيف المريض في كل زمان ومكان.. صدقت يا أبا اسحاق: وانما الناس مع العافية.. مع حق القوة، لا مع قوة الحق.. كما قال يوما بليز باسكال^(١) ويبقى لحكمتك هذه وهجها ودفئها، وعافيتها..

حدث موسى بن عبد الملك، قال: كان أحمد بن يوسف، ابو جعفر، صديقا لأبي العتاهية، فلما خدم المأمون، وخص به، رأى منه ابو العتاهية جفوة، فكتب اليه:

(١) وعلى الاصح قال ما معناه: حين عجز لسان عن تثبيت قوة العدالة، في الارض، ثبت عدالة القوة!

ابا جعفر إن الشريف يشينه
تتابه على الأخلاء في الوفر
فإن نلت تيه بالذي نلت من غني
فإن غنائي في التجميل والصبر

ولا ننسى ما للحكمة في معرض العتاب من
ذوق رفيع، ونبل في المخاطبة والمعاتبة، من جهة،
وقدرة فنية في نقل الخاص الى العام، وجعله موجها
لكل انسان، وموعظة غير مباشرة لكل من القى
السمع وهو شهيد. . ومن هنا بلاغة الحكمة، أي
حكمة، حين «تُسْنُ» من خلال التجربة العقلية
والشعورية، نظاما للمجتمع وللعالم. . نظاما مبرجا في
كلمات. . يؤمن به الشاعر، ويدعو اليه في
امبراطورية الاحلام الموهومة. . وعالم المثل
المرصودة. . وقد وقف الشاعر من خلال هذه الحكمة،
موقف عز وكرامة، طالما عانى ابو العتاهية من أمثال
هذا الصديق، ومن الخلفاء والأمراء الشيء الكثير.
فهم لا يستقرون على حال حيال خلصائهم، تارة
مودة وإخاء، وتارة غدر وملل ونفور، يشكون في
كل شيء، ولا يطمثون الى شيء. . يمدحهم الشاعر

بما فيهم وما ليس فيهم، فيطربون. أما إن صدقهم القول، شكوا، أو ملوا، أو نفروا، أو فتكوا.

وقد ضاق أبو العتاهية بهذه الحالة، واكتوى بنارها. استمع إليه يصورهم أحسن تصوير وأصدقه في حكمة جامعة تصلح بل تصح أن تكون درساً لكل طاغية:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا
فلا يكن لك في أكنافهم ظل

ماذا ترجي لقوم أن همو غضبوا
جاروا عليك، وإن أرضيتهم ملوا

وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم
واستقلوك كما يستقل الكل^(١)

فاستغن بالله عن ابوابهم كرما
أن الوقوف على ابوابهم ذل

ها هنا صدق نفسي، وصدق فني، وراءهما انسان

(١) الكل: قفا السيف والسكين غير الحاد. والكل: المصيبة
(لسان العرب مادة كَلَل)

مثقل بالتجربة، متعب بضرورة العيش مع مثل هؤلاء
الاصنام البشرية. . لصيق بهم بقدر ما هو بعيد، بروحه،
عنهم. حتى اذا تخفف من طغيانهم، ولجأ الى حرية،
انطلق على رسله في فضحهم، والتطهر، بالشعر،
منهم، عائدا الى براءاته الاولى، عائذا بنفسه وبربه من
شيطانهم. رموز الشر هؤلاء سوف يصبحون في
حس المتنبي ووجدانه: أحق بضرب الرأس من
وثن.

فلا اعاشر من املاكهم أحدا
الا احق بضرب الرأس من وثن
وهكذا يتحرر الشاعران من عبادة الاوثان الى
عبادة الحرية والهجرة: هذا يتحرر بالتوبة، ويهاجر الى
الله عبر الناس، فينتقل من الآني المتناهي الى
اللامتناهي. وذاك يتحرر من «الآخر» في رحلته
البعيدة نحو المجهول عبر «الأنا» الطاغية، ينميها
بالتجربة، والمعاناة والمعاناة، والرفض والتحدي
والإلتئام. . ويغنيها بأناشيد، الكرامة والمجد
والاستعلاء. . متطاولاً على الدنيا، جامعاً الزمان
والمكان بين قبضات سيفه، وقلمه، وامنياته وأناه. .

فكان بهذا، شاعرا، قبل ان يكون بذاك . والفرق بين الشاعرين في هذا المجال، هو الفرق بين الهمتين، والتجربتين، ومدى الامتلاء «بالأنا» . ابو العتاهية متقطع الانفاس، يترجح بين الرفض والقبول، بين الانتهاء واللاإنهاء . والمتنبى رافض ابداء، حتى وهو في صميم قبوله . . .

ابو العتاهية مغاير بقدر، ممتليء بأنه بقدر . اما المتنبى فعنوان للتقحم والمغايرة، ورمز للامتلاء والاستعلاء . . ابو العتاهية الشاعر: بحثري التجربة والضحالة، اذا صحت المقارنة، لمأح الخطاطرة، قليل الخطر . . والمتنبى: ثمامي الغوص والاصالة ذاتي التجربة . . فبين الاثنين، اذن، شأو كبير . .

هـ - في الرثاء :

وهنا تبدو الحكمة حارة، ذائبة ذوب وجدان الشاعر امام الموت والميتين، واكثر رثائه كان في اصدقائه الأوفياء او أبناء وبنات اصدقائه . فكان طبيعيا ان يجيء هذا الرثاء حزينا صادقا ينطلق من تجربة حقيقية عاشها الشاعر مع قيم الصديق وشمائله قبل الموت . ومع هذه القيم المفقودة بفقد من كان

يحبسدها ويحبها . فاذا به كعادته ، يسارع الى ايراد
الحكمة من خلال تصوير الفاجعة المزدوجة : فاجعة
فقد الصديق وفجيئته به ، فكأن من مات ليس
الصديق وحده ، بل الشاعر ايضا ، والناس اجمعين . ويزيد من
«متعة الحكمة» هنا انها مزيج من تجربتين : شعورية وعقلية .
وأنها «لذيذة» كذلك ، لأنها غير نفعية على
الاطلاق (الا اذا كانت في رثاء ابنة الرشيد) . وهي
الى هذا كله . صادقة صدقا اخلاقيا ، وصدقا فنيا .
موضوعها : المتناهي - الانسان ، ومجالها
اللامتناهي - الله - وراء ديمومة الموت والقيم . .

جاء في امالي الزجاجي : قال ابو العباس
(المبرد) : ولما دفن علي بن ثابت ، وكان من أخلص
اصدقاء ابي العتاهية ، وقف شاعرنا على قبره ، وردد
هذه الأبيات :

ألا من لي بانسك يا اخيا
ومن لي ان ابثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر
كذاك خطوبه ، نشرأوطيا

فلو نشرت قواك لي المنايا
شكوت اليك ما صنعت إلينا
بكيترك يا علي بدمع عيني
فما اغنى البكاء عليك شيئا
كفى حزن بدفنك، ثم اني
نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات
فانت اليوم، اوعظ منك حيا

ومهما قيل في شأن هذه المقطوعة من انه اخذ
معانيها من كلام الفلاسفة (اليونان)، لما احضروا
تابوت الاسكندر (من بلاد فارس)، وقد اخرج
جثمانه ليدفن، فقال احدهم: كان الملك امس اهيب
منه اليوم، وهو اليوم اوعظ منه امس، وقال آخر:
سكنت حركة الملك في لذاته، وقد حركنا اليوم في
سكونه حزنا لفقده، الى آخر العظات التي اطلقها
الفلاسفة وكانوا اثني عشر ومعهم ام الاسكندر.

مهما قيل بهذا الشأن، فان الشاعر استطاع ان
يصوغ معاني الفلاسفة، ولا سيما في البيت الأخير،

صياغة الحكمة البالغة، وان يسبغ عليها من روحه واسلوبه الخاص ما جعلها تحيا من جديد، حارة مؤثرة، حرارة المناسبة، ومؤثرات الفاجعة. وكأنها أصبحت ملكا له. وانها لكذلك، في المفهوم الفني لصناعة الشعر. اذ ليست القضية في الصنيع الشعري، كما هو معلوم اليوم، قضية معان جديدة او غير جديدة، سبق اليها أو لم يسبق. فالمعاني - كما يقول الجاحظ « مطروحة في الطريق يلتقطها البر والفاجر الخ » والمهم ان يلتقطها الاديب او الشاعر بملقطه السحري. فاذا انفعل بها وبث فيها من وجدانه وكيانه وتجربته وبعث فيها روحا جديدة، وألبسها لباسا خاصا. خرجت من بين اصابعه، وتند شحنت بكهربائية الشاعر الخاصة، وطلاله وصوره وذوقه، وهذا ما عناء توفيق الحكيم، في مسألة الخلق في الادب^(١) حين قال: ليس الابتكار في الأدب والفن، ان تطرق موضوعا لم يسبقك اليه سابق، ولا ان تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك، انما

(١) انظر كتاب: في الادب لتوفيق الحكيم ص ١٠ مكتبة دار
الاداب ومطبعتها. بدون تاريخ - القاهرة

الابتكار الادبي والفني، هو ان تتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس، او ان تعالج الموضوع الذي كاد يبلى بين اصابع السابقين، فاذا هو يضيء بين يديك، بروح من عندك، فالكثير من موضوعات شكسبير نقل عن بوكاشيو، وبعض ملاهي مولير عن سكارون، ولوب ده فيجا وغوته (في قصة فاوست) عن مارلو، ومآسي راسين عن مآسي ايروبيدس، وسوفوكل . . . الى ان يقول: « الفن ليس في الهيكل، انه في الثوب . الفن هو الثوب الحديد الذي يلبسه الفنان للهيكل القديم . انه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير . » وواضح ان الثوب هنا، هو الاسلوب الخاص وطريقة تناول الموضوع، او المعنى القديم . تناولوا جديدا بروح جديدة وصياغة خاصة بالاديب او الشاعر او الفنان . .

وهذه المراثاة التي القاها ابو العتاهية على قبر صديقه (او ابنه ؟)^(١) قد أخذت معانيها من اقوال

(١) روى كثيرون هذه الأبيات على انها في رثاء ابن له . كما روي ان قائلها هو ابنه وليس هو . .

الفلاسفة اليونان. لكن الروح التي فيها، والدمعة الساخنة التي ذرفت في ثناياها هي روح ابي العتاهية، ودمعته، ولوعته، سكبت في نشيج مأساوي جنائزي خاص به.. وحين نسمعه ينشدها، او حين نلقيها عنه، ننسى تماما مصدر معانيها، ولا نعود نسمع ونرى الا ابا العتاهية دون سواه..

والشأن نفسه مع كبار الفنانين المبدعين الذين لم يلجأوا الى ابتكار المعاني الجديدة، او الموضوعات المستحدثة. بل لجأوا الى انفسهم ومواهبهم، وتجاربهم، وثقافتهم، حين واجهوا هذه المعاني والموضوعات القديمة او المتداولة، مواجهة الخالق حين اراد خلق الكون والانسان. فلم يقل لاشيء: كن فكان.. بل قال للشيء (للمادة) كوني، فكان الوجود، وللطين: كن، فكان الانسان..

على ان ابا العتاهية لم يكن من النوع الذي يبدع دائما، او يفعل بمعانيه، بل كان من ذلك النوع الذي يسرع في قول الشعر، والتقاط المعاني عن غيره التقاطا باردا، « ينشلها نشلا كاللصوص، فيغير صياغتها تغييرا يسيرا، ثم يدعيها لنفسه، في اغلب الأحيان! لم يكن

الشعر عنده عملية صعبة، ولا ولادة قصيرة.. كان، في أكثره، نظماً هيناً ليناً لا غناء فيه، ولا جهد، ولا تجربة، ما عدا بعض الفلذات التي اشرنا اليها.. حتى وقع في الابتذال والتكرار والسطحية في معظم شعره. كما وقع في السرقة.. مع انه كان بغنى عن كل ذلك، لولجأ الى موهبته وثقافته، واعطى نفسه الوقت الكافي، ولم يستجب للسوق وعامة الناس، وبعض الصبية في شوارع الكوفة وبغداد، يداعبهم بالشعر، او بالأحرى يلاعبهم ببعض الاحجيات الشعرية والفلذكات المنظومة..

جاء في الأغاني^(١) «اجتاز ابو العتاهية في اول امره وعلى ظهره قفص فيه فخار، يدوربه في الكوفة ويبيع منه، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر، ويتناشدونه، فسلم، ووضع القفص عن ظهره، ثم قال: يا فتيان: اراكم تتذاكرون الشعر. فأقول شيئاً منه، فتجيزونه. فان فعلتم، فلكم عشرة دراهم، وان لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم، فهزؤوا منه،

(١) اغاني بيروت ج ٤ ص ١٠ وما بعدها

وسخروا به، وقالوا نعم، قال: لا بد ان يشتري
 بأحد القمارين رطب يؤكل، فانه قمار
 حاصل، وجعل رهنه تحت يد أحدهم. ففعلوا. فقال:
 اجيزوا: ساكني الأحداث انتم... وجعل بينه وبينهم
 وقتا، في ذلك الموضع، اذا بلغت الشمس، ولم يجيزوا
 البيت، غرموا الخطر^(١)، وجعل يهزأ بهم، وتممه:
 مثلنا بالأمس كنتم
 ليت شعري ما صنعتم
 اربحتم، ام خسرتم؟! وهي قصيدة طويلة في
 شعره. (٢)

ومعني هكذا، في اوائل امره، يتندر بالشعر.
 ويدخله في باب الالهيات والاججيات، والمطارحات
 بين المتأدبين والفارغين من الناس، ويضع
 النظريات... نعم يضع النظريات... فقد قال بأن الناس

(١) الخطر: رهن القمار

(٢) لكن هذه القصيدة الطويلة لم نعثر عليها في الديوان أما شارحو
 الديوان فيذكرون مطلعها هذا، ويقفون عنده ويكتفون بالقول انها قصيدة
 طويلة.

كلهم شعراء حين يتكلمون ويتخاطبون؛ لكن
تقصهم القدرة على تأليفه وترتيبه، لأنهم لا يدرون
انهم يقولون شعرا. قال ابو العتاهية: أكثر الناس
يتكلمون بالشعر. وهم لا يعلمون. ولو احسنوا
تأليفه كانوا شعراء كلهم، قال: فبينما نحن
كذلك (١) اذ قال رجل لآخر عليه مسح (مسوح):
يا صاحب المسح تبيع المسحا؟ فقال ابو العتاهية: هذا
من ذلك، ألم تسمعه يقول: يا صاحب المسح تبيع
المسحا، قد قال شعرا وهو لا يعلم. ثم قال الرجل:
تعال ان كنت تريد الربحا. فقال ابو العتاهية: وقد
اجاز المصراع بمصراع آخر وهو لا يعلم.

وهو يقصد بالشعر النظم على بحر وقافية. لأن
كلمة «شعر» كانت تطلق على المنظوم من كلام
العرب، ايا كان موضوعه، وكانت قيمته، وقد
سموه «شعرا» لأنهم «شعروا» به متأخرين، كما يقول
الباقلاني. شعروا بأن تلك الاساجيع المتطورة والمنظومات
والاناشيد الجاهلية ما هي سوى شيء آخر

(١) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ٤١

غير النثر.. ثم عمدوا الى ضبطه ووضع
بحوره وتفاعيله.. فهم، اذن، لم يكونوا ليفرقوا بين
نظم وشعر، كما نفرق نحن اليوم، اذ شتان بين هذه
الأعيب التي يسميها ابو العتاهية شعرا، وبين الشعر
الذي نفهمه نحن اليوم..

ومن مسطحاته وألغيه، ما جاء في الأغاني:
همُّ القاضي بيت يطرب
قال القاضي لما عُوتِبَ
ما في الدنيا إلا مذنبٌ
هذا عذر القاضي وأقلب

وقلَّب: عذر: غدر بالتصحيح. وقد روى
المسعودي هذين البيتين، ووزنهما «فعلن»
اربع مرات. قال: «ابو العتاهية خرج فيهما عن
العروض» وقد قال قوم: ان العرب لم تقل على وزن
هذا الشعر، ولا ذكره الخليل، ولا غيره من
العروضيين^(١) وطبعي ان يتصرف ابو العتاهية
بالاعاريض والبحور، تصرف المالك بملكه، لأنه كان

(١) الديوان ص ٣٠١

يشعر في قرارة نفسه بأنه اكبر من قواعد الخليل والأخفش. وإن موهبته كفيلة بسد النقص العروضي، ان وقع، روى الصولي قال: ان أبا العتاهية سئل: هل تعرف العروض؟ فقال: انا أكبر من العروض، وله أوزان لا تدخل في العروض. »

حبذا لو توسع في هذه « الأنا الأكبر ».. اذن لكنت لنا مدرسة عتاهية في تجديد الشعر العربي واطلاقه من عقاله سبقت زمن الموشحات بقرون.. ولكن ابا العتاهية اكتفى بالقليل منها مراعاة للعصر، ورضوخا لقواعد نقاد الشعر يومذاك.. حسبه انه كان من تلك النخبة المجددة كبشار وابي نواس، التي حاولت الرفض، ولم تخضع، رفضت بعض القيم البالية في المجتمع، ورفضت بعض مفاهيم الشعر وقيود النقاد اللغويين وارادت التحرر من شعر القصور وما فيه من كذب وتملق، وذل.. فانزلوا الشعر من عليائه المصطنعة.. الى الطبقات الشعبية الدنيا، الى دجاجات رباب.. وخان الاصبهاني! وخمار اليهودي في بغداد. وصبية الكوفة..

فكانوا، بهذا، الوجه التجديدي المشرق لشعر

طالما تحنط في قوالبه وموضوعاته حتى كاد يموت . .
وحسب ابي العتاهية انه جرى، في شعره، مجرى
الطبع، وتحدى باختراعه، وتوليده، ما اصطلح عليه
الشعراء الكلاسيكيون، والعروضيون والنقاد اللغويون
من قوالب جامدة، تحد من حرية الشاعر، وتمت
تجربته، ليصبح أسير القوافي والبحور المفروضة،
والصناعات البلاغية المرسومة . .

ولو ارتفع شاعرنا بالتلقائية، قليلا، وسما بشعره
عن الابتذال والمجانية، لأضاف الى عفويته، وليونة
شعره، ورفضه، وشعبية روحه، فنا الى فن، ولكان
أشعر أهل زمانه (بالأذن من معاصريه: بشار وإبي
نواس، وابن الرومي، والبحري . .)

و - حكمته في الزهد :

سنشهد، هنا، حكمة عتاهية ارقى وابلغ في
النفس، نظرا لأن شعره الزهدي يتميز، عن سائر
فنون شعره، بالجدية، واللوعة والندم، واللهفة، الى
جانب قسط لا بأس به من التأمل، واستشراف
حقائق الوجود والموجود، والمجتمع والحياة، والموت،
والمصير، في روحية شرقية اشراقية تكاد تبلغ مراتب

الصوفية.. روحية هي مزيج من قيم الشرق القديم،
وتعاليمه، وعقائده، والقيم الجديدة التي دعا اليها
الاسلام، وعاشها النبي، والصحابة الاولون، مضافا الى كل
ذلك، خصوصية تضج بها «أنا» الشاعر المتلذذة التي
اسرفت في تعاليها، واوغلت في غلواء
مجونها وعبثها، وارادت، اخيرا ان تنيب الى
الله في توبة نصوح، (ربما؟) او شبه نصوح؟ كما
ارادت ان تتميز بهذا اللون الشرقي الروحاني من
الشعر الاعتباري الذي طالما عبر به حكماء الشرق
عن خلجات قلوبهم الخاشعة، وعقولهم المتألمة
الحيرى، امام الله، والكون، والانسان، والمصير،
فجاء شعرهم الزهدي والصوفي، كما جاء نثرهم،
ابتهالات احتفالية، ولا اروع! وتراتيل دينية ولا
امتع! بدأ من المصريين، والفينقيين، والصينيين،
والهنود، والايرائيين، كما رأينا وانتهاء بالعبرانيين
والعرب عبر التوراة والزبور^(١) والانجيل والقرآن: سجل

(١) الزبور جمع. ومعناها الكتب وفي الآية: وآتينا داود زبوراً اي
كتبا. والزبور: بفتح الزاي: الكتاب المزبور: المكتوب وقد غلب الزبور
على صحف داود وكل كتاب زبور. قال تعالى: ولقد كتبنا في الزبور من
بعد الذكر. قال أبو هريرة: الزبور ما انزل على داود من بعد الذكر،

حافل بروائع العبر، وجوامع الكلم، في صلوات
خاشعة، وترتيلات تأسر القلب، وتهز الضمير: .

من على هذا الاساس انطلق ابو العتاهية في
ترتيلاته وابتهالاته وعظاته . فلم يكن بدعاً شعره
الزهدي، ولا زهده، بالرغم مما قيل في هذا الزهد
من تبديع وتهجين. اما لماذا أكثر من هذا الشعر،
فالأمر أصبح واضحاً كل الوضوح، ونلمه في اربعة:

اولاً: لأنه انقطع عن قول الشعر في سائر
الموضوعات لا سيما الغزل والخمرة والهجاء.

ثانياً: لأنه تفرغ للنظم في الزهد، واختص به،
وكان وحيداً فيه، كماً لا نوعاً .

ثالثاً: لأن حياة الزهد، وكره الحياة (لا
الأحياء) كانا في اصل طبعه ومزاجه. وموحيات
ثقافته. حتى الأحياء الذين احبهم، وعاش معهم لم
يكن يحب فيهم تهافتهم وتحاذلهم، واستسلامهم
للهوان والطغيان، وكثيراً من عاداتهم وعقائدهم، اما

من بعد التوراة. وقرأ سعيد بن جبير: في الزبور بضم الزاي. وقال:
الزبور: التوراة والانجيل والقرآن الخ. (لسان العرب مادة زَبَرُم)

الحكام، فقد وجد نفسه مرغماً على معايشتهم طلباً للشهرة، والمجد والمال، رغم ما يراه فيهم من ظلم وجور، وقتك بالصدق عند اول هفوة . .

رابعاً: ردة الفعل كانت عنده قوية بحيث هاله ما ارتكب من خطيئات، وما تحمله من اوزار، ووقع فيه من رذائل وموبقات، طيلة حياته الالهية الماجنة .

فكان طبيعياً ان يترد الى ينابيع جبلته وحقيقته مزاجه، يستوحىها الخلاص مما هو فيه، وسرعان ما اوحى اليه بتلك العظمت الزاجرة والحكم البالغة يمشي على هديها في طريق الرشاد والصخوالروحي، داعياً الناس، من ثم، الى تمثلها والاتعاظ بها، وبكثرة المواقف، وكثرة التأمل في احواله واحوال الناس كثرت الحكمة في زهدياته . وبسبب انفعاله الى حد ما بما يقوله من جهة، وسهولة ضغط التجربة الوجدانية عنده، وسرعة التقاطه لمعاني الزهد والورع والتنسك، جاءت حكمه تلك وكأنها مسلمات يتوج بها نظام السلوك الأول في رأيه . .

اما المناسبات اليومية، والحوادث الطارئة فما كان أكثرها في حياته، ما يكاد يمر بها او يسمع عنها، حتى

يسارع الى صياغتها شغراً تأملياً زاجراً حتى انه كان قادراً على تحويل المضحك منها مبكياً . كان يرى المأساة من خلال الملهاة ، لأنه كان في واقع حاله ، يعيش المأساة الإنسانية نفسها ، شيمة كبار الشعراء التأملين الرومنسيين في الغرب .

وهذا واحد منهم ألفرد ده ميسيه يهتف من اعماق وجدانه :

« يا لها من ملهاة تلك التي لا تكاد نضحكنا حتى تبكيننا . ! وهو يعني ، بالطبع . ملهاة الحياة : بدءها ومنتهاها .. »

عاش ميسيه الحياة بالألم المادي والمعنوي ، وعاشها ابو العتاهية بالندم . . والندم أشد ايلاماً من الألم المادي نفسه .

نماذج من حكمه الزهدية :

ألا اننا كلنا بائد
واي بني آدم خالد
وبلؤهم كان من ربهم
وكل الى ربه عائد

فيا عجباً! كيف يُعصى الإله
أم كيف يحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد..

يخالجني امام هذه الابتهالات، شعور أكيد بان
تهمة الزندقة، او الزهد المزور كانت تهمة باطلة،فها
هو وبشيء من الاصرار الايماني والايمان المصر
يقول بالمعاد، ويوم الحساب، والوجدانية. الى جانب
ما في هذه الأبيات من سهولة في ضغط التجربة تحت
تأثير الشعور العميق بهول المصير، والايمان المطلق
بالله، وقدرته، وكلها مزايا فنية لا تتاح للشعراء
المهجناء او الزاهدين الدخلاء..

امام الموت دائماً:

ولكثرة ما وقف ابو العتاهية امام الموت
متعظاً واعظاً، وشامتاً من أولئك الغافلين
عنه، السادرين في شهواتهم، ومصوراً لرهبته

وهولـه، حتـى كـدنا ان نسمـيه شاعـر الموت، في
الاقـدمين، كـما هو « كـيتس » الانكليزي شاعـر الموت
في المـحدثين. وسـيكون ابو العـلاء مجسـدا لهـذا
الاتجـاه تجسـيدا حـياتيا ووجدانيا تاما. .

لا بد من الموت:

تعلقت بآمال طوال، أي آمال
واقبلت على الدنيا ملحا، أي إقبال
أيا هذا! تجهز لفرا ق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

وفي نبرته دائما سمة الزجر والمخاطبة من فوق لمن
تناسى حقيقة الموت، والناس كلهم يتناسون، وحق
لهم ان يتناسوا، ولا هلكوا يأسا وقنوطا، فيأتي ابو
العنايه يصحهم ويهز فيهم مشاعرهم الدفينة تجاه
الموت، رحمه بهم لا نقمة عليهم ولا تشفيا. وفي
البيت الأخير كثير من التقريرية في قالب حكمة
متداولة. لكن المهم فيها هو عنصر الاثارة،
وتلك « اللابد » وما في حتميتها من رهبة تجعل
الانسان رهين هاجسه الابدني: الموت!!

الذكر الحسن:

سكن يبقى له سكن؟
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار نخبرنا
ببلاها، ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح
لامرئ فيها، ولا حزن
في سبيل الله انفسنا
كلنا بالموت مرتين
كل نفس عند ميتتها
حظها من مالها الكفن
ان مال المرء ليس له
منه، الا ذكره الحسن

هنا يسمو اسلوبه بلاغياً فيترجح بين غيبة
وخطاب، وتساؤل وجواب، ثم يراوح بين الانسيابية
اللغوية البارة في التقاط الألفاظ الملائمة، وبين
النثرية التقريرية، ولولا القافية والوزن، لما احسنا
اننا نقرأ شعرا، او قولا منظوما، وكل ما وفق اليه

الشاعر هنا، لين البحر (فهو من المديد) ورقة
القافية، وكلاهما ينسجم والروح الزهدية في حال
تسليمها، ونظرتها بعين اللوعة والألم، الى طبيعة هذه
الدار (الدنيا)، ومع ذلك الموقف المأساوي امام تفاهة
العيش، وضآلة الانسان، وتفاهة جهده وجهاده في
الحياة . . ولا ننسى ما للاستفهام الانكاري من بلاغة خطابية
توجت مطلع الأبيات، وما تنطوي عليه من أسى وأسف
ولوعة. اما البيت الثاني ففيه أنسنة وتشخيص للموت، ذلك
الخطيب اللسن الذي يعلن في كل لحظة ان هذه
الدنيا دار سوء. لا تدوم على حال . وهي شر كلها وباطل
الأباطيل !.

وهكذا يبرز الموت بكل توابعه ورموزه:
العدم - العيب - لاجدوى اكتناز المال . .
الألم - الفناء - ضيق المجال - تقطع الآمال . . يبرز
مصورا، في زهديات شاعرنا بكل رهبة ورعونته
وبشكل شبه دائم وحاضر في دائرة المركز . .

رغم كل هذا فلا نرى الشاعر يدعو الى ترك
العمل وهجر الحياة الى عزلة تامة، كما سيفعل ابو

العلاء، ولا إلى قطع النسل بعدم الزواج. وتحريم أكل اللحم. فهذا هو يدعو إلى العمل والسعي والمتاجرة، على عكس ما اتهمه به البعض، حتى بعد تزهد « قعد للحجامة » على حد تعبير الاغاني. ورغم شبح الموت الذي خيم على فكره ونفسه وشعره، فقد دعا إلى القناعة والرضى بالقليل :

ما شرف المرء كالقناعة
والصبر على كل حادث يقع
لم يزل القانعون اشرفنا
يا حبذا القانعون ما قنعوا

وكأنه يحس انه لم يكن من القانعين، ايام غلواء شبابه، وهو في حرصه على جمع المال، وانتهاب اللذات. قد تجاوز حد القانعين . . فوعظ الناس بها وحثهم عليها. ولا اظن الا انه كان يعظ نفسه ويظهرها. حتى اذا حرره الزهد من الجشع والطمع، هتف قائلاً :

لما حصلت على القناعة لم أزل
ملكاً يرى الاكثار كالإقبال

ان القناعة بالكفاف هي الغنى
والفقر عين الفقر بالاموال

ولعل المتنبي اعجب بهذا الشطر الثاني من البيت
الأخير، فصاغه صياغة جديدة، ارقى وافضل حين
هتف:

ومن ينفق الايام في جمع ماله
خافة فقر، فالذي فعل الفقر

وطالما رأيناه يكرر هذا المعنى في مواعظه وكأنه
تكفير عما وقع هو فيه، وتطهير لنفسه من اوضاره
واوزاره . .

وخير ما أعجبني في شعره الاعتباري، ذاك الذي
كان يتوجه به الى الحكام واعظا وزاجرا بطريقة لبقة
غير مباشرة ولكنها، ملغوزة . . وكثيرا ما كانوا يتبهنون
الى قصده فيتعظون، واحيانا، يكون . . كما فعل
المهدي حين وقف ابو العتاهية يرثي ابنة الخليفة
بقوله:

ما للجديدين لا يلى اختلافهما
وكل غصن جديد فيهما بال
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته
كم بعد موتك ايضا عنك من سال
كأن كل نعيم انت ذائقه
من لذة العيش يحكي لمحة الال
لا تلعبن بك الدنيا وانت ترى
ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت الا كل صالحة
او، لا، فما حيلة فيها لمحتال

فلم يملك المهدي الا دمعة ساخنة يرسلها على
خديه . .

وكذلك يوم قدم الشاعر على المأمون،
فاستنشدته حاشية الخليفة وفيها العلماء والادباء. فقال
ملغزا، بالندير، مغلفاً بالموعظة، مؤطراً كل ذلك
بالحكمة العامة:

الم تسر بيت الدهر في كل ساعة
له عارض فيه المنية تلمع

ايا بائي الدنيا لغيرك تبتي
 ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع
 أرى المرء وثاباً على كل فرصةٍ
 وللمرء يوماً، لا محالة، مصرع
 تبارك من لا يملك الملك غيره
 متى تنقضي حاجات من ليس يشبع
 واي امرئ في غاية، ليس نفسه
 الى غاية اخرى سواها تطلع؟!
 واجمع الحاضرون على انه له كان طبع ابي
 العتاهية بجزالة لفظ: لكان اشعر الناس^(١) والجدير
 بالتوقف عنده، هو ان ابا العتاهية كثيراً ما توجه
 بحكمته الواعظة الى هؤلاء الملوك. فهم في نظره
 رأس الظلم وقمة الطغيان، وخافة ان يقع، مرة
 أخرى، ضحية جورهم ارتفع بالمناسبة الخاصة،
 وتجاوز الاسماء، الى العام اللاحدود، فكان ابلغ.
 ومن آرائه المصوغة حكماً ان الملك لا يدوم لأحد،
 وان الدنيا دول: ملوك تأتي بعد ملوك:

(١) اغاني بيروت ٤ / ١٢

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارت نجوم السماء في الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك
قد انقضى ملكه، الى ملك

قيل ان هذين البيتين السائرين قد اعجبا ملك
الروم (أيام الرشيد)^(١) يوم قدم رسول القيصر الى
بغداد، فاستمع الى ابي العتاهية، وكان يحسن
العربية، فمضى الى ملكه وذكره له، فطلبه القيصر
من الرشيد، فرفض الشاعر الذهاب. قيل: وعلم
الرشيد ان ملك الروم أمر بأن يكتب البيتان المذكوران
على باب مدينته^(٢) دليلا على اعجابه بهما.

انه حقد قديم يعتمل في نفسه، على ذوي
السلطان والجاه، ذلك لأن الاذى لم يأتهم الا منهم،
واذا كان قد استطاع ان يرد الاذى يأتیه من قبل
الفئات الاخرى من شعراء حساد، كوابلة وامثاله، الا
انه لم يستطع ان يرد اذى الملوك والأمراء الذين اهتموه

(١) لا اظنه نفقور فقد كان ارعن.. بل لعله قسطنطين السادس

(م٧٨٠)

(٢) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ١٠٥.

في نسبه وأدبه واسلامه، وانطوى على آسى عميق.
وكره دفين لهم. وما كان تقربه منهم الا طلباً للشهرة
والمال. كما كان يكره فيهم الكبرياء والصلف
والاستعلاء.

يقول في القاسم بن الرشيد دون ان يصرح
باسمه:

-يتيه ابن آدم في جهله
كأن رحي المنية لا تطحنه
وقال فيه ايضاً: ;

حتى متى ذو التيه في تيهه
اصلحه الله وعافاه

يتيه اهل التيه من جهلهم
وهم يموتون وان تاهوا
من طلب العز ليبقى به
فان عز المرء تسقواه

(١) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ١٠٥

لم يعتصم بالله من خلقه
من ليس يرجوه ويخشاه

الا ترى معي تلك الظلال النفسية التي تحيط
بكل معنى من معاني هذه الموعظة الحكيمة؟ فهو يث
فيها اعطق ما في نفسه من معانله لقيها من أمثال
القاسم وابيه وجده . حتى اصبح في « حكمته »
ومواعظه نذيرا لهم ، وليس مجرد واعظ ، ولا إخال
عامة الشعب قد احبت زهدياته ومواعظه الا لهذا
السبب . . فالشعب ، يحس بالمعاناة ، ويدوق مرارة الفقر
والحرمان والظلم كل يوم ، ، لكنه لا يستطيع ان يعبر
عن احساسه هذا ، في كثير من الأحيان ، حتى اذا
نهض من بين صفوفه شاعر شعبي المنطلق كشاعرنا ،
ذاق مثلهم الوانا من القهر والإذلال ، وراح ، في
زهدياته ، يعظ ويحذر ، ويتقم ، سارعوا الى فهمه
وتصديقه ، والاعجاب به ، لا على انه واعظ من وعاظ
المساجد . وما كان أكثرهم ! بل على انه منهم
ومثلهم ، استطاع ان ينفس عنهم ويتقم لهم ، كذا ،
فعلوا مع عترة ، في سيرته ، حين خلقوا منه ، فيها ،
بطلا اسطوريا ، خاصة تلك النهاية الرهيبة التي

احبوا، عبر واضعي السيرة، ان يلقاها بطلهم، لكي يتساوى في وهمهم مجد البطل. التاريخي المقام للعنصرية، والعاشق الشريف، مع ايجاد ابطال الأساطير. . والشعب، في اعماقه، يهوى امثال هؤلاء الابطال، حتى اذا رأى قيمه التي يؤمن بها، محققة في انسان، هتف له، وخلده. فكيف اذا كان شاعرا يهجس بما يهجس ويغنيه؟! وانا أرى، في التحليل الاخير لنفسية ابي العتاهية، المضطهد، المتهم، المشبوه، شاعرا اراد ان ينتقم من اضطهده، واتهموه، فوجه سياطه اللاذعة، وسخريته المبطنة نحو هؤلاء. . ولم يجد منتقما جبارا حتمي الارادة، الا الموت، فراح يحاربهم به، في مواعظه الملهوذة، فأبكاهم وغرّاهم. . وانتصر. .

وإلا فلا قيمة لأكثر مواعظه وحكمه المكرورة، ان لم تكن « طالعة » من اعماق نفس مثقلة بهموم الوجد من كل نوع. وما لم يكن فيها، بهذا المقدار من الصدق النفسي، يسقط في نظرنا، ولا يعود يصلح الا لتراتيل الدراويش. او لتعليم الصبية المراهقين. . ناهيك بالصدق الفني المفقود. .

ومما يؤكد ما نذهب اليه من تخصصه بملاحقة
الملوك والخلفاء انه يلاحقهم بعد موتهم ليتخذ منهم
عبرة لغيرهم وسيله إلى ذلك دائماً الرمز عن طريق
الحكمة يموت المهدي، فيقول:

كل نطاح من الدهر
له يوم نطوح
لست بالباقي ولوعم
رث، ما عمّر نوح
فعلى نفسك نح، ان كـ
نت لا بد، تنوح

وكما أبكى المهدي الأب ابكى الرشيد الإبن حين
طلب منه ان يعظه. روى الصولي ان محمد بن ابي
العتاهية. قال: قال الرشيد لأبي: عظني. فقال له:
اخافك. فقال له: انت آمن. فانشده:
لاتأمن الموت في طرف ولا نفس
اذا تسترت بالابواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة
لكل مدرع من لا ومترسر
ترجو النجاة ولم نسلك طريقته
ان السفينة لا تجري على اليبس

قال : فبكى الرشيد حتى بل كمه^(١)

ولا ننس تلك الصورة الرائعة : ان السفينة لا
تجري على اليبس . التي ابدعها شاعرنا للنجاة من
النار حين صور النجاة سفينة . ولكي ينجو المخطيء
عليه ان يبحر بسفينة نجاته على الماء لا على اليابسة طبعاً .

ومع حبه للمأمون كان شاعرنا يرى ان الحقيقة
احب اليه منه ، وانها يجب ان تقبل ، ولكن في اطار
مذهب . طلب منه المأمون يوماً ان ينشده احسن ما
قاله في الموت . فانشده :

أنساك محياك المماتا
فطلبت في الدنيا الثباتا
أوثقت بالدنيا وأن
ت ترى جماعتها شتاتا
يا من رأى ابويه . في
من قد رأى كانا فماتا

(١) الاغاني ٤ / ١٠٦

هل فيها لك عبرة
أم خلت ان لك انفلاتا!
سائر حكمه :

وطبيعي الا تقتصر حكمته في زهدياته على الملوك
والخلفاء وعلى التذكير بالموت والتخفف من مغريات
الحياة، بل نرى له خطرات تأملية في الانسان،
والمجتمع، وما يسوده من قيم، وعادات، ونظم،
يقف منها موقفا ثابتا يصوغه في كلمات، او جوامع
كلم، لا نكاد نحس انها منظومة لولا قافيتها، وإيقاع
لفظي لا تنبع موسيقاه من موسيقى نفس الشاعر،
بقدر ما تنبع من مقدرة فائقة في حسن رصف
الكلمات ورصها بسهولة ويسر عرف بهما. وكأنه ذلك
البناء الماهر يجيد وضع المداميك بازاء بعضها، فلا
تحيد قيد شعرة، واذا بكل هذه السهولة تخلق خلقا
فنيا مستساغا، ننسى معه ثريته وتقريرته، تحت تأثير
تلك الروح الوهية التي قدمت لنا هذا الخلق السوي
في شكل رأي او حكمة، تحدد موقف الشاعر وتبث
بعض وجعه الروحي من اولئك الناس، وتلك القيم،
كما تحدد اطار رفضه النهائي لها ولهم، بعد ان كان

قبل زهده، منتقدا لها ولهم، او متكيفا معها ومعهم؛
إرواء لثمنه الشبابي الملهوف.

حكيمته الاجتماعية :

ونريد بها تلك الموعظة الشعرية الملمومة التي لا
تجعل من قائلها خطييا، بل حكيما، يعظ برفق
واختصار، ولا يطيل فيزعج.

اتصوره بعضا من سقراط، يمشي في اسواق
الكوفة وبغداد، منتقدا وواعظا ونائر حكم، وأحكام،
والطلاب حولهما يساجلون او يسجلون، او
يعتبرون. . لم لا؟ والسوق رائجة، والطلاب كثيرون،
والطلب أكثر من العرض، او هو بعض من استاذ
الحسن البصري، يعظ وينصح وينذر والفرق بينهما ان
هذا محاط بهالة ايمان قدسي ومهابة علوية، وابو
العتاهية محروم منهما. .

ثم انه خبير باحوال الناس والمجتمع ، يعرف
حاجات النفس الانسانية، كما يعرف ما انطوت عليه
من جشع وطمع وزيف وحب للسلطان. بشكل
عام، ويعرف كذلك حاجات هؤلاء العامة المنكوبين

بكثير من الولايات والظلم الاجتماعي . فتراه يضرب ،
في حكمه ، واحكامه ، على الوتر الحساس فيهم .

امام حاجات النفس الانسانية يتحدث عن
طبائعها التي لا تتغير: كالحرص والطمع وحب
الشهرة ، والاقبال على الحياة ، والنفور من الموت ،
وحب الرئاسة والجاه والتمادي في الملذات .

وعن ناس عصره : يتحدث عن الظلم والغلاء ، وتقلب
الدهر والزمن ، والناس رؤساء ومرؤوسين ، كما يتحدث عن
الصدق والعدالة ، والقناعة ، والتوبة ، والعلم . والزهد
بالدنيا ، ببهرجها على الأخص ، وبما لدى الآخرين من متاع
زائل . . قاصدا من كل ذلك التكفير عن نفسه والتخفيف عن
هؤلاء المساكين ، حين يعبر عما في نفوسهم ،
ووجداناتهم ، فاصاب بزهدياته الحكمية ، او حكمه
الزاهدة ، غايتين ، وحقق رغبتين . واحسب ان هذا
فضيلة من فضائل زهده حيث اتخذ سبيلا الى التوجيه
والتعليم . . ومهما يكن فان مثل هذا الزهد لا يعتبر
سليبا . وماذا نتظر من شاعر زهد ، واعتزل ، الا ان
نراه بهذا الوجه ، التعليمي العابس بعض الشيء ،
المتجهم امام هول ما ينذر به . . واذا ما انصرف عنه

المقبلون على الحياة، فلسوف يقبل عليه التائبون
اليائسون، يدغدغ لهم آمالهم فيما وراء الحياة، بعد ان
فقدوا أمل البقاء مع الحياة.. ويخفف عنهم احوال
المصير، قدر الامكان. وليس افضل من الشعر، وشعر
الحكمة خاصة، سبيل خلاص، واداة اعتبار لمن كان
في حالة التقبل والاقبال...

فلو كان هول الموت لاشيء بعده
لهان علينا الموت واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر، وجنة

ونار، وما قد يستطيل به الخبر
وحين يحاور اهل القبور، والقبور نفسها، فما ذاك
الا لث المقبلين عليها للتزود لما بعدها بالتقوى
والبر، والعمل الصالح، وتطهير النفس وتحسينها
بالعفة والقناعة والصدق والوفاء والحب.. لأن
معكوس ذلك، في نظره، يكشف وحشة القبر، ويثقل
خطى الساعي الى عفوره.. يقول في جامع المال:

يا جامع المال منذ كان، غدا
يأتي على ما جمعته الحرب
او- ولا تفرح بمال تقتنيه
فانك فيه معكوس المراد

ولكن ابا العتاهية، هنا، يعظ الناس، وينسى نفسه.. فقد تواترت الأخبار على انه كان من احرص الناس على المال الى درجة حرمان عبده له كان يقوم بخدمته رفض يوما ان يعطيه .غيفاً واحداً أكثر من الرغيفين المقررين له يوميا، رغم الوساطات التي لجأ اليها هذا العبد المسكين، فاعتل ومات، لكننا في فصل سابق، بررنا له هذا الحرص من الناحيتين النفسية والظرفية..

ومهما يكن، فان الوعاظ في كل زمان ومكان، شعراء كانوا ام خطباء ينسون انفسهم حين يعظون غيرهم الا قلة قليلة من اولئك الربانيين الملتزمين الكبار.

من هنا تخفف، في نظرنا، قيمة مثل هذا الشعر، او تلك الخطب، من الناحية الاخلاقية على الأقل لعدم مصداقيته، وعدم انبثاقه عن قلب قائله ووجدانه، وحقيقة موقفه من الحياة والمجتمع.. ليصبح كلاما مجانيا عاريا..

اما متى يرتفع شعر الزهد، فنيا، الى مراتب الشعر الحقيقي الخالد فمسألة تتعلق بالموهبة القادرة

على تجاوز الوعظ والتعليم الى مرحلة تحديد المواقف
وتصوير النفس الزاهدة وقد ادركت حقائق الأشياء،
وقبضت على سر الكون او اكادت...

فمضى استطاع الشاعر ان يدخل معها رحاب
المراثي الانسانية، والوقوف بذهول امام هول المصير،
وسخرية امام عبثية الوجود وعدمية الحياة^(١) وتفاهة

(١) ونقصد بالعدمية هنا عدم جدوى الحياة كمرحلة نجاهد فيها
ونهرق الدماء والدموع من اجل تحقيق ما سمي بالسعادة فاذا بنا اخيرا،
امام السراب... والموت. اما العدمية الفلسفية Le Nihilisme فهي
كما يعرفها نيتشه : انها اهم سمات الانحطاط الحضاري. فالعدمية
الجلدية تعني باننا مقتنعون ان الوجود مزعزع والعدمية حالة مرضية
وسيلة (فالتعميم الضخم والاستنتاج أن ليس ثمة معنى لأي شيء، هو
ظاهرة مرضية) فاما أن تكون القوى المنتجة ليست قوية بما فيه
الكفاية، واما ان الانحطاط ما زال يتردد ولم يجد بعد، وسائله
المساعدة. ان العدمية ليست السبب بل هي منطق الانحطاط فقط.
ويعتضى تشخيص نيتشه الواضح، فان العدمية هي النتيجة، وهي
التعبير عن الانحطاط... للتوسع انظر كتاب: ضرورة الفن
ص ١٠٦ وما بعدها لارنست فيشر ترجمة الدكتور ميشال سليمان -
المكتبة الاشتراكية - دار الحقيقة - بيروت (بدون تاريخ) اما الاصل
الفرنسي فتاريخ صدوره ١٩٦٥ باريس.

العلائق بين البشر ومفاهيمهم.. متى استطاع ان يسكب كل ذلك من ذوب نفسه وخياله في بوتقة الحكمة الجامعة عبر تجربة عقلية وشعورية عميقة، او في اطار الملحمة والاسطورة.. قبض على ناصية الخلود.. ولو كان في صومعة.. فكيف إذا كان في سوق، بين الناس؟!.

والحقيقة ان ابا العتاهية لم يستطع ذلك التسامي بالرغم من انه كان موهوباً.. ومضى في وعظه، عادي الحكمة متشابه البناء النظمي في نمطية تلقائية عرفت به وعرف بها.

وهكذا اوشك ان يسقط في الخطابية الفوقية المزعجة، والتعليم الملل، ويخرج نهائيا من دائرة الشعر..

وظل سادرا في وعظه، لا يترك سانحة الا ويتتهزها، ولا موضوعا الا ويقول فيه شيئا من الشعر، فالقناعة، مثلاً، وهي ام الفضائل عند الزاهدين، لم لا يدعو الناس اليها؟ وما داموا متخاذلين قاعدين عن طلب العلى، وما دام العصر قد افرز الناس فئتين لا وسط بينهما، فئة حاكمة مستبدة مستأثرة مستغلة.. وأخرى محكومة مستغلة..

وما دام الثوار مغلوبين على أمرهم.. وما دامت الحياة ملك الفارس الأقوى.. فهيا ايها المسحوقون، تعالوا الى القناعة والرضا والتسليم.. تعالوا الي وافعلوا مثلي، انا من طحتته الحياة برحاما والقصور بجورها وعقوقها.. تعالوا تزهّدوا واقنعوا من هذه الفانية بالكفاف فعما قليل نرحل جميعا.. الى حيث لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم..

اما الخلفاء فيرحبون بمثل هذه المواعظ، ويكون لها احيانا، ألم يكفهم ابو العتاهية شر الثوار، وخطر صحو الشعب؟! ويمضي أبو العتاهية قاذفا بهذه المخدرات لا يلوي على شيء، ولا فضيلة له كشاعر، الا انه صاغها احيانا صياغة الحكمة وضغطها في لمحات مختصرة بارعة الاداء وترك مفاعليها لمؤرخي الثورات والباحثين عن حقوق الانسان يلعنون امثاله من قتلة الطموح في الانسان، ومنومي الشعوب بمخدر لا يطاله القانون!!

تأمل قوله:

واذا ما الفقير قنعه الله
فسيان بؤسه والنعيم

ان في الصبر والقنوع الدهر
وحرص الحريص، فقر مقيم
انما الناس كالبهائم في الرزق
سواء جهولهم والعليم
ليس حرص الغني يجر له الرزق
ولا عاجزا يعد العديم..
أولاً: ان الله لا يقنع الفقير ليرضى بفقره
ويؤسه، يا ابا العتاهية.. وها أنت نفسك لم يقنعك
الله لترضى ان تبقى حجاما او بائع جرار في
الكوفة.. بل دفعك طموحك الى ابعد من ذلك
بكثير.. فهل كان ذلك منك حزما وعزما، ولم يكن
عجزا وتواكلاً! أم ماذا؟!

ثانياً: الناس ليسوا كالبهائم، كما وصفتهم، في
طلب الرزق، وسأحك الله على هذه الفرية!.. بل
لعلك تقصد المتكالبين منهم على جمع المال، حرامه
والحلل، من جهد الغير، وعلى حساب كرامتهم
وصحتهم.. ثم متى كان «العديم» انسانا في عجزه
عن طلب الرزق؟! لعله، في مقاييس الاسلام،
والموازين الانسانية، اقرب الى البهيمة من المتكالب
عليه...

ثالثاً: لعلك نسيت، في غمرة زهدك، وتشاؤمك، واحتقارك للدنيا واهلها، ما كان منك من حب لهم، وغرام بها.. لكن.. ما هكذا يكون الوعظ الا اذا كان من.. مانوي... على اي حال، يجدر بنا ألا نقيم حِكمَ ابي العتاهية، ومواعظه الزهدية، على أساس الربط بينها وبين حقيقة موقفه وسلوكه. اذ سنجد تناقضاً كبيراً، في هذا المجال، اما اذا اعتبرناها مجرد صناعة تفرغ لها الشاعر، حال تزده، وراح ينظم قيم المجتمع وحقائق الحياة الثابتة، ليطلقها دروساً اعتبارية، وحكما سائرة امام ابناء هذا المجتمع الذين كانوا بانتظارها، يتلقفونها في تقبل روحي تام، عنيت بهم، طبعا، الطبقة المسحوقة الياثسة، وبعض الخلفاء، في بعض صحوهم.. الذين كانوا يحبون سماع الموعظة دون ان يعملوا بها، وإن ابكتهم احيانا..

فهي اذن لا تعبر تماماً، عن مذهب شاعرنا ولا عن انطباعاته الخاصة، أكثر مما تعبر عن براعاته الفنية، في هذه الصناعة بعد طول تخصص وتفرغ.. (٤٠ عاما على الأقل).. واذا ما ظهر منه، اثناء عملية السبك، ما ينم عن عقيدته، ويكشف عن قناعته،

وينسجم مع موافقه، فذلك، حتماً، عن غير قصد، ولا انفعال
ولا معاشة.. . إلا في ما كان منه اثناء مخاطبته الملوك
والخلفاء والأمراء، وامام الموت.. .

اخلاق الناس:

حين يقرر ابو العتاهية ان الناس مطبوعون على
الكذب، ابيضه وأسوده، وعلى التناقض في الأقوال
والأفعال، فانما يقرر بديهية من البديهيات السائدة في
كل زمان ومكان، ولا يعتمد الى فلسفة هذا الطبع او
هذا الخلق، ان كان مطبوعاً أو مصنوعاً.. . إلا
ليبقى شاعراً لا فيلسوفاً.. . وشاعر التلقائية والتقريرية
وحدها، لا شاعر التأمل واستشراق الحقائق البعيدة
وراء حجب الواقع الملموس.. . يقول:

ما من صديق وان تمت مودته
يوماً بابلغ في الحاجات من طبق
اذا تعمم بالمنديل منطلقا
لم يخش سوءة بواب، ولا غلق
لا تكذبين فان الناس مذ خلقوا

عن رغبة يعظمون الناس، او فرقي

اما الفعال ففوق النجم مطلعه
والقول يوجد مطروحا على الطرق
وتعجبني هذه الصورة، في البيت الرابع، للفعل
الذي لا يتحقق، كأنه كوكب أبعد من النجم
مطلعه، في حين ان القول، غير المقرون بالفعل،
مطروح على الطرقات .. تماما كالمعاني عند
الجاحظ .. وما محتوى الأبيات الثلاثة الأولى سوى
موعظة مبتذلة لحقائق بديهة، يصوغها، بلا توفيق،
واعظ صبية مراهقين، لا شاعر ..
وانظر معي هذين البيتين في شرور الناس هل ترى
فيهما شعراً؟

في الناس من تسهل المطالب
احيانا عليه، وربما صعبت
وشبرة في الناس ربما جمحت
وشهوة في النفس، ربما غلبت ..

اما انا فلا ارى فيهما شعرا ولا نظماً .. بل نثراً
متهافتاً حول « ربما » المكرورة، لا اكثر ولا اقل ..
يستطيع اي فقيه في مسجد القرية، ان يلوكه،
ويعظه به ..

ولست ارى صواباً قول نيكلسون (١) بأن
أبا العتاهية قد تفرد بالروح الشعبية حين قال: «انه ارانا
لأول مرة . . وربما للمرة الأخيرة أيضاً في تاريخ
الادب الكلاسيكي العربي انه في استطاعة الشاعر ان
يستخدم اللغة البسيطة العادية في دقة ومهارة
واضحتين، وبشكل مطرد. .».

يبدو انني اختلف ونيكلسون جذرياً، مع
احترامي لاستاذيته في هذا المجال . . فهو يعتبر
الذي « يستخدم اللغة البسيطة العادية » شاعراً؛ وانا
اخرجه نهائياً من دائرة الشعر، مع قائله . وقد لا
اسميه «ناظماً» اذا اسف اسلوبه وابتذل . .

فالشعر، في نظري، القديم منه والحديث هو
عملية خلق وابداع، وهي عملية شاقة الى حد كبير،
كما يقول فاليري . فليس شاعراً كل من «رزق» موهبة
رص الكلام او رصفه، وليس شاعراً كل من ارضى
العامة بقوله الموزون او غير الموزون، . . ثم ان

(١) تاريخ العرب الادبي ص ٢٨٨ نيكلسون

الشعر ليس خطاباً ولا تبشيراً. انه تعبير حار عن احساس الشاعر وانفعالاته، عبر تجربة حلوة او مرّة، وبلغة شعرية خاصة، لا يعرفها العامة ولا يتداولونها، وان كانت تبهرهم وتهزهم .. هذا الشعر هو الذي يسمى شعراً، ويحتفظ بقيمته الفنية الكاملة، كما رأينا عند الكثيرين من شعراء «التجارب» جاهليين كانوا ام مسلمين. اما حين يصبح «الشعر» تعبيراً «عقلياً» مجرداً يستند الى الجدل والحوار، وايراد الادلة والحجج، وباللغة الشعبية شبه الدارجة .. فلا يمكن ان نعه شعراً مهما تسامحنا .. وعندما بررنا تلقائية ابي العتاهية ووجدنا موهبته قادرة على الارتفاع بهذه التلقائية الى رحاب التجربة الشعورية بعيداً عن السطحية والابتذال، حمدناهما فيه، ولم نسمه شاعراً إلا بحذر شديد ..

اما انه شاعر شعبي، من ناحية التعبير عن روح العصر، وما كان يسوده من شعور ديني عارم لدى الطبقات الشعبية المحرومة ضد الطبقة الحاكمة من جهة، وضد موجة الاستهتار والفسوق من جهة ثانية .. فهذه حقيقة واضحة تدل على ان ابا العتاهية كان ذا «روح شعبية» لم تفسدها حياة القصور، ولا

خففت من غلوائها، بل لعلها زادتها ضراما . فها هو
 بعد ان تزهد قد ظل ينتقد ويعارض،
 وينادي ويعط، مستنكرا كثيرا من مظالم الحكام،
 وتحكم الناس بعضهم ببعض، حتى الغلاء، رفع
 صوته بمكافحته. غلاء اسعار السلع الاستهلاكية
 الشعبية، لا تلك المقدسة في عنابر القصور كالخمرة،
 والخز، والديباج، والأرز الفاخر، والأواني الذهبية
 وغيرها..

اسمعه يصف دوائر الزمان وتقلب الاحوال،
 وغلاء الأسعار، ويدعو الخليفة للتنبه وتلافي عواقب
 الامور؛ قال بعد ان وقف امام الموت وقفته الداهلة
 المعهودة. ينصح الاحياء الاموات بالتزود بالتقوى
 والعمل الصالح:

مَنْ مَبْلَغَ عَنِّي الْإِمَامِ
 مَ نَصَائِحاً مُتَوَالِيَةً (١)
 اِنِي اَرَى الْأَسْعَارَ
 أَسْعَارَ الرِّعْيَةِ غَالِيَةً

(١) يقصد بالطبع، الخليفة الذي هو إمام المسلمين أيضا لوضح
 اسلامه..

والغلاء الى جانب البطالة وقلة الرزق يصبح أمرا لا
يطاق:

وأرى المكاسب نزرّة

وأرى الضرورة غاشية

وأرى غموم الدهر را

ثحة، ثمر، وغادية

وهذه منازل الشعب المسكين خاوية على عروشها،

ليس فيها الا الارامل واليتامى. بعد ان فقدوا

الازواج والآباء في ثورات.. ومغاز.. لم يكن لهم

دخل فيها سوى انهم وقودها، وادواتها..

وأرى اليتامى والأرا

ملّ في البيوت الخالية..

من بين راج لم يزل

يسمو اليك، وراجية..

يظنون ان الشكوى تدفع البلوى، يا

لسداجتهم!! يشكون الجوع القاتل الذي اضعفهم

واوهن اصواتهم فهم لا يرفعونها اليك الا بجهد

جهيد، وهزال أكيد: «تأمل صورة الصوت الضعيف

- العالي! يشكون مجهدة باصوات ضعاف عالية..

انهم يرون فيك، ايها الخليفة، املهم الأخير،
وملجأهم الوحيد، بل مبكى عيونهم الذي يذرفون عنده
دموعهم:

مَنْ يرتجى للناس

غيرك ، للعيون الباكية ١٩

ومضي في تصوير الفاجعة اليومية التي يقع الشعب
ضحيته، تصويرا لا يمكن ان يصدر عن شاعر
ارستقراطي كالشريف الرضي، مثلا، او ابن المعتز،
او حتى ابي تمام.. تصويرا يعكس ظلال نفس ابي
العتاهية التي اكتوت - يوما - بمرارة الفقر، وذل
الحياة.. وها هي في تزهدها تصور حياة الشعب من
خلال اصداء النفس:

مِنْ مصبيات^(١) جُوع

تمسي وتصبح طاوية

مَنْ يرتجى لدفاع كبر

بِ مِلْمَةٍ هي ماهيه..

ويترك لخيال الخليفة ان يتصور مدى حجم

(١) مصبيات جمع مصيبة وهي الحسنة

الكارثة حين لم يحدد ابعادها: «هي ماهية!» وفي هذا
ابداع في التصوير، واثارة للحس والخيال معا.. ها
هو يعطي بعض الصور- النماذج للمأساة لا حدود لها:

من للبطون الجائعات، وللجسوم العارية
من لارتياح المسلمين اذا سمعنا الواعية
ويا ابن خير الناس يا خير خلف لخير سلف..
لا فقدت: ان الموت يحصد الناس، والعافية تزول
عن كرامهم، لا عدمت العافية! تذكر اصلك
الطيب.. وكن على غراره.. فرعا طيبا اصيلا..
وكان الشاعر يلمز بهذا الفرع ويغمز من قناته
حين يذكره بأصله، ويستنجده..

وها انا القي بين يديك امثلة حية عما يكابده
الشعب، وكفى بها غيضا من فيض، وصورة
مصغرة عن المأساة:

القيمت اخبارا اليك م
من الرعية شافية

القيتها بين يدي عقلك ووجدانك للعمل
والذكرى، لعل الذكرى تنفع المؤمنين... لقد حملت
هذه المقطوعة كثيرا من نوازع الشاعر

واحاسيسه والكثير من ابداع الموهبة وتجليها، خاصة
عندما تجول هذه الموهبة في ساحات الشعب،
واجوائه، مستلهمة، مصورة، مبدعة. . بدل ان تبقى
هناك. . في القصر تحرق البخور على اقدام الخلفاء -
الاوثان، وتبادهم، في مدائحها المزورة، كذبا بكذب!
ورياه برياء! هناك. . حيث يموت الشعر، وتهدر
الكرامة. . ما عدا حفنة قليلة من الشعراء الكبار
الذين استطاعوا ان يرتفعوا بالخليفة - الشخص، الى
الخليفة - الانسان، او الخليفة - البطل، وانتقلوا
بمدائحهم، من الخاص الى العام، عبر التصوير المبدع
والتصور البعيد، وحلقوا في اجواء الوهم
والاسطورة. . كما فعل ابو تمام في قصيدة فتح
عمورية، وابو الطيب في «الحدث الحمراء»
والبحثري، الى حد ما، في تصوير معارك المتوكل
البحرية^(١)

ومهما يكن فقد كان ابو العتاهية يشعر شعورا
قويا بتلك الروح الشعبية التي فيه، وتلك الموهبة الشعرية التي

(١) انظر كاتينا: البحثري بين البركة والايمان. والمتنبي: امة في
رجل الصادرين عن دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨١ - ١٩٨٢

اسعفته للتعبير عن هذه الروح في كثير من زهدياته
وحكمه، ونراه يبرر اسلوبه الشعبي البسيط التركيب
الخالي من الصناعة والفن بدعوى حماية هذه الروح
من تعقيد يغطيها بستار كثيف من الصناعة اللفظية
فلا يعود الشعب يتأثر بها او يفهمها.

قال سلم الخاسر (الشاعر الفارسي الهوى) (١):
أنشدني ابو العتاهية هذه الأبيات:

نغص الموت كل لذة عيش
يا لقومي للموت ما اوحاه

عجبا! انه اذا مات ميت
صد عنه حبيبته وجفاه

حيثما وجه امرؤ لیسفوث
الموت، فالموت واقف بحذاه

(١) هو سلم بن عمرو بن حماد كان شاعرا معاصرا لابي العتاهية.
ولقب بالخاسر لانه باع مصحفاً واشترى به طنبوراً.. وكان يخفي
شعوبية فارسية، ويجهز بالزندقة.. ولا غرو فهو من تلامذة بشار..
يقلده في كل شيء..

اثما الشيب لابن آدم ناع
قام في عارضيه، ثم نعا
من تمخى المني فاغرق فيها
مات من قبل ان ينال مناه
ثم قال لي: كيف رأيتها؟ فقلت له: لقد
جودتها، لو لم تكن الفاظها سوقية.. فقال: والله ما
يرغبني فيها الا الذي زهدك فيها...

فهو، كما ترى، يصر على استعمال الالفاظ
السوقية (كما يراها سلم) ويتمسك بطريقته الشعرية
مهما كانت شعبية الاسلوب حتى في نظر معاصريه..
على ان سلماً هذا لم يوفق - هنا - حين نعت الفاظ
هذه الأبيات بانها سوقية.. فابن السوقية فيها واين
الابتذال؟ اني لا ارى شيئا منها.. لعله يقصد ليونة
القافية وسلامة التعبير من التعقيد، وهذا لا يُعد
ابتذالا او سوقية على اي حال. ناهيك ببعض
التشخيص المستحب الذي وفق اليه شاعرنا في البيت
الثالث والرابع: تشخيص الموت برجل صامت يقف بازاء
الانسان كالشبح الرهيب غير المرئي. ريتصوير الشيب
نذيرا ينعي على الانسان حياته. واقفا كالقدر، على

عوارضنا ليخطب فينا: أن هيا الى الرحيل فقد ازفت
الساعة ودنت لحظة الوداع . .

واذا كان من فضيلة اخرى لتلك الروح الشعبية
والاسلوبية السهلة فهي كامنة في انها جاءت استمرارا
لتيار التجديد، في الشكل والروح والمضمون، الذي
بدأه بشار، في الشعر، وابن المقفع في النثر، وحمل لواءه
ابونواس، ودعا اليه، وغالى فيه ابو العتاهية .

فشاعرنا اذن، ليس بدعا في ذلك، بل هو استمرار
لظاهرة التجديد الحضاري من جهة وتحد للرجعية
العربية، في الفكر والشعر واللغة من جهة اخرى .
اما فريدة ابي العتاهية، في هذا المجال، فهي في أكتاره
الشديد لهذا النوع من الشعر والتمادي فيه، من حيث
البساطة في التعبير واستعمال الألفاظ الشعبية، والبعد
عن التعقيد، الى حد التعريض به ومهاجمته . . ثم
انصرافه، في الزهد، الى ذلك اللون الشرقي من شعر
الاعتبار وايراد الحكمة الزاجرة الزاخرة بمعاني الترهيب
والنصح والتحذير ، انصرافا كلياً، لا يجيد عن رغبة
الشاعر في ان يكون حكيم العرب والمسلمين، على
غرار السلف الصالح ، وان يذكره الناس بهذا
اللون دون سواه . .

ولا ننسى انه، بهذا، قد عاد بالشعر العربي، الى
ينابيعه المشرقية الاولى، الى ذلك الشعر الاعتباري
الزاهر بحكمة الشرق وخشوع الحكيم الشرقي امام
الله والقدر والموت، واستخلاص العبرة من ذلك
الموقف الخاشع، ثم تحويل كل ذلك الى صلوات
وترنيمات وابتهالات شاعرية الروح شاعرية
الاسلوب.. امتلأت بها ملاحمه ودواوينه واساطيره،
وكتبه السماوية، والارضية، وترنمت به حناجر النساك
والصوفية في خلواتهم وحلقاتهم وصوامعهم..^(١)

كما عصمه زهده، وشعره الزهدي، عن اذى
التردي في حماة الهجاء والقذف والسباب، ومن البقاء
في مستنقع القصور حيث المديح الاجوف، المليء
بالكذب والرياء والبعيد عن روح الشاعر وموهبته
واحاديثه الخاصة، ومن محدودية رثاء الاشخاص
الى رثاء الانسانية كلها، فابو العتاهية حين رثى
اشخاصا بعيثهم، رثى من خلاهم الكون والحياة
والانسان جميعا، ومهد بذلك الى قيام المدرسة

(١) انظر في هذا الكتاب: الزهد الشرقي القديم فصل خاص ص ٧٠

العلائية، وبرهن ، اخيراً، على ان الشعر العربي قادر على ان يكون وعاء للفلسفة والحكمة، والتأمل، فلا يظل متقصرأ على الموضوعات الشخصية العابرة، او البراعات اللفظية في تصوير النزوات، والتجريح الاخلاقي في الهجاء، وقذف المحصنات وصناعة الاحاجي والطلاسم . .

سخريته الرقيقة: او رفته الساخرة

اتهم ابو العتاهية بأنه كان في بادىء امره غثثا، يحمل زاملة المخشثين مثل ابي نواس ووالبة وسائر الخلعاء . كما اتهم بالزندقة، وطعن في اصله ودينه ومذهبه الى ما هنالك من تمهم ومغامز لو صبت على شاعر آخر كالاخطل او جرير مثلاً، لشنها حرباً شعواء على متهميه لا تبقي من اعراضهم وشرفهم شيئاً . . لكن ايا العتاهية قابل كل ذلك بابتسامة ساخرة، وبصمت الواصل من نفسه وبأنه، بالسعي والعمل، لا بالكلام الفارغ، قادر على رد كل هذه التهم خاصة وان اثرها كان صحيحاً . . وتلقين المتهمين دروساً في الترفع والكبرياء . . وان الانسان بعمله وموهبته لا بأصله وفصله . .

عابوا عليه ان اباه كان حجماً ويائع جرار، فظل يساعد اباه واخاه في بيع الجرار والحجامة غير آبه بالتافهين الفارغين، حتى بعد شهرته وحين عقد النية على الزهد عاد الى صناعته الاولى، والجلوس في شوارع بغداد للنصح والارشاد، والحجامة.. اتهموه في حبه لعنة وان هذا الحب من طرف واحد وطلباً للشهرة والوصول الى بلاط المهدي.. لكنه وصل الى المهدي نفسه بالرغم من فشله في حب جارية المهدي وكانت موهبته كشاعر هي التي اوصلته وثقته بنفسه، ليس غير..

ومن المؤسف ان يتمادي بعض المعاصرين من الباحثين السلفيين فيقول: «ان قصة غرام ابي العتاهية بمعشوقته عتبة ليست الا مظهراً من مظاهر تخلطه واضطرابه، وهي تدل على غرامه بالعبث، وعلى قدرته وبراعته في تمثيل دور المحب العاشق.. الخ»^(١)

هذا التماذي في الاستنتاج ليس موضوعياً، ولا

(١) ابو العتاهية: حياته وشعره ص ١١١ د. محمد محمود الدش
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٦٨

قرينة عليه الا اقوال بعض المؤرخين القدامى وهي موضع شك.

ولنستمع الى ابي العتاهية نفسه يحدثنا عن قصة غرامه بعتبة لنجد اي روح مريحة كانت بين جنبيه واي سخرية ناعمة ييئها في كلامه رغم جدية الموضوع..

قال: قدمنا من الكوفة ثلاثة فتيان شبابا وادباء، وليس لنا ببغداد من نقصده، فنزلنا بالقرب من الجسر. فكنا نبكر فنجلس في المسجد الذي يباب الجسر، في كل غداة. فمرت بنا يوما امرأة راكبة ومعها خدم سودان. فقلنا: من هذه؟ قالوا: خالصة. فقال احدها: قد عشقت خالصة^(١) وعمل فيها شعرا،

(١) لعله ابو نواس فقد عرف من اخباره انه كان يتغزل بجارية اسمها خالصة. وله معها حكاية. قيل: وكانت تكره فيه تحنثه وفسقه.

كتب مرة بيتا من الشعر على باب سيدها:
لقد ضاع شعري على بابكم
كما ضاع عقد على خالصة
وداهم سيدها وهو يكتب البيت فسارع الى عمو طرف العين في صدر البيت وعجزه فاصبح هكذا:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصة

فأعناه عليه . ثم لم تلبث ان مرت اخرى راكبة ،
ومعها خدم بيضان . فقلنا : من هذه ؟ فقالوا عتبة .
فقلت : قد عشقت عتبة . فلم نزل كذلك في كل
يوم ، الى ان التأمت لنا اشعار كثيرة ، فدفع صاحبي
بشعره الى خالصة ، ودفعت انا بشعري الى عتبة .
والحنا الحاحا شديدا . فمرة تقبل اشعارنا ، ومرة
نطرد ، الى ان أجدوا في طردنا .

فجلست عتبة يوما في اصحاب الجوهر ، ومضيت
فلبست ثياب راهب . . ودفعت ثيابي الى انسان معي ،
وسألت عن رجل كبير من اهل السوق ، فدللت على
شيخ صائغ ، فجئت اليه . فقلت : اني قد رغبت في
الاسلام على يدي هذه المرأة فقام معي وجمع
جماعة من اهل السوق . وجاءها فقال : ان الله
قد ساق اليك أجرا ، هذا راهب قد رغب في الاسلام
على يدك . فقالت : هاتوه فدنوت منها . فقلت :
اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً عبده ورسوله ،
وقطعت الزنار ، ودنوت فقبلت يدها ، فلما فعلت ذلك
رفعت البرنس فعرفتني . فقالت : نحوه . لعنه الله .
فقالوا : لا تلعنيه ، فقد اسلم ! فقالت : انما فعل ذلك

لقدرة، فعرضوا علي كسوة. فقلت: ليست لي حاجة
الى هذه. وانما اردت ان أشرف بولائها. فالحمد الله
الذي منّ علي بحضوركم. وجلست. فجعلوا
يعلمونني الحمد، وصليت معهم العصر. وانا في ذلك
بين يديها انظر اليها، لا تقدر لي على حيلة، فلما
انصرفت لقيت خالصة، فشكت اليها، فقالت: ليس
يخلو هذان من ان يكونا عاشقين أو مستأكلين. فصح
عزمها على امتحاننا بمالٍ علي ان ندع التعرض لهما،
فان قبلنا آمال فنحن مستأكلان. وان لم نقبله فنحن
عاشقان. فلما كان الغد مرت خالصة، فعرض لها
صاحبها، فقال له الخدم. اتبعنا. فاتبعهم. ثم لم
نلبث ان مرت عتبة، فقال لي الخدم: اتبعنا،
فاتبعهم. فمضت بنا الى منزل خليط لها بزاز. فلما
جلست دعت بي، فقالت لي: يا هذا. انك شاب،
وارى لك ادبا، وانا حرمة خليفة. وقد تأنتك. فان
كففت، وإلا انهيت امرك الى امير المؤمنين ثم لم آمن
عليك، قلت: فافعلي، بأبي انت وامى. فانك ان
سفكت دمي ارحتني. فأسألك بالله إلا فعلت ذلك،
اذ لم يكن لي. فيك نصيب. فأما الحبس والحياة ولا

اراك، فانت في حرج من ذاك، فقالت: لا تكمل يا هذا، وأبق على نفسك، وخذ هذه الخمسمائة دينار، واخرج عن هذه البلدة. فلما سمعت ذكر المال، وليت هاربا، فقالت: ردوه، فلم تزل تردني فقلت: جعلت فداك. ما اصنع بعرض من الدنيا وانا لا اراك. وانك لتبطين يوما واحدا عن الركوب فتضيق بي الارض بما رحبت، وهي تأبى إلا ذكر المال، حتى جعلت الي ألف دينار، فأبيت، وجاذبتها مجاذبة شديدة، وقلت: لو اعطيني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة، وانا لا اراك، بعد ان اجبد السبيل الى رؤيتك.. وخرجت فجئت الغرفة التي كنا ننزلها، فاذا صاحبي مؤرم الاذنين، وقد امتحن بمثل محنتي، فلما مد يده صفعوه، وحلفت خالصة لئن رأيته بعد ذلك لتودعنه السجن. فاستشارني في المقام فقلت له: اخرج واياك ان تقدر عليك. ثم التقتا فاخبرت كل واحدة صاحبتها بالخبر، واحمدتني عتبة، وصح عندها اني محب محق.. فلما كان بعد ايام دعنتي عتبة، فقالت: بحياتي عليك، ان كنت تعزني، إلا اخذت ما يعطيك الخادم، فاصلحت به من شأنك، فقد غمني سوء حالك. فامتنعت فقالت: ليس هذا ما

تظن، ولكني لا احب ان اراك في هذا الزي .
فقلت: لو امكنتني ان تريني في زي المهدي لفعلت
ذلك . . فاقسمت عليّ، فاخذت الصرة، فاذا فيها ثلاثمائة
دينار . . فاكتمت كسوه حسنة، واشترت حماراً . (١) .

ونحن لم نورد هذه القصة لنشير الى صدق ابي
العتاهية في حبه لعبه، او كذبه، ولا لإظهار سوء
حاله، واستهتاره حين قدم بغداد، وانما لنؤكد روحه
المرحة التي كانت تسيل عبر شعره، قبل تزهده، كما
سالت عبر هذه القصة، وذلك الاسلوب الدمث
الرقراق الذي تنسج خيوطه الشفافة شاعرية متألقة
تتخلل الشعر، كما تتخلل التثر، فهو شاعر في نثره
كما هو ناثر في شعره، بصرف النظر عن مستوى هذا
الشعر وقيّمته، فقد افضنا، في ذلك، من قبل ولولا
الموقف الجدي الذي كان يتطلبه الزهد منه، ل بقي ابو
العتاهية مرحاً، ساخراً، حتى بعد تزهده، ولعلنا لا
نعُدو الصواب اذا قلنا ان سخريته الضاحكة، قبل
الزهد، قد انقلبت، هي نفسها، سخرية مرة عابسة،
لأن الروح التي أرتّه الدنيا ضاحكة مقبلة، ايام

(١) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٤

الشباب، هي الروح ذاتها التي ارته هذه الدنيا عابسة
غدارة خؤونة.. بعد المعاشة والخبرة، والتأمل.
الملهاة، اذن، انقلبت مأساة عنده، وتعبير ادق: لقد
استخرج ابو العتاهية في شعره، الزهدي، المأساة من
صميم الملهاة، فبكى وابكى.. واتعظ ووعظ، ولم يكن
تزده عبثاً كله.. ولا حكمته الزاهدة نتاج فكر. واقتباس
كلها.. بل نتاج وجدان محترق وكيان منسحق، في كثير من
الأحيان..

ونختتم هذه الدراسة الوجيزة حول هذه
الشخصية الفريدة المميزة بشكلها وسمتها وسلوكها،
وشاعريتها، وطريقة نظمها، وحبها وكرهها، ونقدها،
ورفضها، بحيث برهنا، قدر الجهد، انها شخصية
مغايرة فذة، أقامت مفهوما خاصا للشعر، ونظاما
خاصا للتعامل مع الناس، وموقفا مميزا من الحياة
والأحياء، والله، والقدر، والموت، تألق في نشيج
ابتهالي خاشع، ونشيد وجداني منيب، عاد بالشعر
العربي الى روحانيته الشرقية القديمة، ونأى به عن
مستنقع العبث والعفن.. والانحراف..

كما دفعنا عن الشاعر فيها، كثيرا من التهم التي

كالها له، جزافا، دارسون قدامى ومحدثون، حين
نظروا اليه، والى نتاجه، من زاوية ضيقة واحدة..
فغابت عنهم مزاياه الذاتية والفنية، وما أكثرها، عند
التحليل المتصف المجرد.

فكان بعيدا عنهم، بقدر بعدهم عنه..
وكان قريبا منا، موصولا بنا، روحا واصالة، بقدر
ما يتصل الفن بالفن، وماء السماء بالينوع..

نماذج مختارة:

أ - في الغزل:

قال يتغزل بعتبة:

واني لمعذورٌ على فرط حبها
لأن لها وجهاً يَدُلُّ على عُذري
إذا ما بدت والبدر ليلة تمه
رأيت لها فضلا مبينا على البدر
وتهتز من تحت الثياب كأنها
قضييب من الريحان في ورق خضر

وتبسم عن ثغر نقى كأنه
من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر

يخبرني عنه السواك بطيبه
ولست به، لولا السواك، بذي خبر

أبى الله إلا ان أموت صبايةً
بساحرة العينين طيبة النشر

الا انه غزل عادي، ليس فيه من مميزات
عتبة شيء. نستطيع ان ننسب هذا الغزل الى أي
شاعر عذري آخر. خاصة لجميل بن معمر فإن فيه
نفسه وروحه واسلوبه..

وفي ما يلي غزلية في عتبة اقرب الى روح أبي
العتاهية واسلوبه:

يا لهف نفسي على التي اجتنبت
بأي جرم ترونها عتبت

تبارك الله، بش ما جنت
بي في هواها، وبش ما ارتكبت

أَتَيْتَهَا زَائِراً فَمَا انْحَرَفَتْ
عَلَيَّ إِذْ جِئْتُهَا، وَمَا احْتَسَبْتُ
كَمْ مِنْ دَيُونٍ وَاللَّهِ يَعْلَمُهَا
لَنَا عَلَيْهَا، وَلَمْ تَقْضِ إِذْ وَجِبْتُ
مَا وَهَبْتُ لِي مِنْ فَضْلِهَا عِدَّةً
إِلَّا اسْتَرَدْتُ جَمِيعَ مَا وَهَبْتُ
فَأَيُّ خَيْرٍ وَآيٍ مَنْفَعَةٍ
لِذَاتِ ذَٰلِكَ تَرْيَقُ مَا حَلَبْتُ
اللَّهُ بَيْنِي، وَبَيْنَ ظَالِمِي
طَلَبْتُ مِنْهَا وَصَالِحَهَا، فَأَبَتْ
مَاذَا عَلَيْهَا لَوْ أَنهَا بَعَثَتْ
مِنْهَا رَسُولًا إِلَيَّ، أَوْ كَتَبَتْ
وَيَرْتَفِعُ فِي غَزَلِهِ، أَحْيَانًا، إِلَى ضَغْطِ الْمَعَانَةِ فِي
جَوَامِعِ كَلَمٍ وَحِكْمَةٍ وَتَحْلِيلِ نَفْسِي:
يَاعْتَبِرْ هَجْرَكَ مَوْرَثَ الْأَدْوَاءِ
وَالْهَجْرَ لَيْسَ لَوْدُنَا بِجَزَاءِ
يَا صَاحِبِي لَقَدْ لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى
جَهْدًا، وَكُلُّ مَذَلَّةٍ وَعَنَاءِ
عَلَى الْفُؤَادِ بِحَبِّهَا مِنْ شَقْوَتِي
وَالْحُبِّ دَاعِيَةً لِكُلِّ بَلَاءِ

اني لارجوها واحذرهما، فقد
أصبحت بين مخافة ورجاء
بخلت علي بודהا وصفائها
ومنحتها ودي ومحض صفائي
فتخالف الأهواء فيما بيننا
والموت عند تخالف الأهواء.
ويعطينا صورة للمتيم الوهان، ولا اصدق،
مأخوذة من حاله هو ومعاناته :

يقول أناس: لو نعت لنا الهوى
ووالله ما ادري لهم كيف انعتُ
سقام على جسمي كثير موسع
ونوم على عيني، قليل مَفَوْتُ
إذا اشتد ما بي كان أفضل حيلتي
له، وضعُ كفي فوق خدي، واسكت...

ولا ننسى الرقة والليونة اللتين تسريان في عروق
الصورة وظلالها، كما سرتا في عروق الشاعر المتيم
وروحه. مما جعل غزله يشيع ويسير، خاصة في
اوساط النساء. قال ابن قتيبة: وغزله ضعيف (أي
رقيق) مشاكل لطباع النساء، وما يستخفنه من

الشعر، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة في الغزل (١)
ويوافقه في هذا الرأي ابن المعتز حيث يقول: «وغزله
لين جدا مشاكل لكلام النساء موافق لطباعهن..
وله في قلوبهن موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته»

وفي الاغاني: «ان جوارى المهدي كن يشتهين
ان يسمعن شعر ربيعة الرقي. قال: وكان فيه لين،
وكذلك كان ابو العتاهية» (٢). وقد رأينا كم كان
الخلفاء معجبين بغزل ابي العتاهية العف الرقيق، لا
سيما الرشيد الذي كان يستدعي شاعرنا لسماع غزله،
حتى انه كان يأمر مؤدبي اولاده الا يسمعوهم سوى
غزل ابي العتاهية. ومن هنا ثار الرشيد ثورته على
الشاعر حين قرر الامتناع عن قول الغزل ونوى
الترهد.

ويذكر ابن الأثير قصة أبيات ابي العتاهية في
مديح المهدي التي اولها:

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٧

(٢) اغاني ساسي ٣٧ / ١٥

الا ما لسيدتي ما لها
تدل، فاحمل ادلائها
والتي يقول فيها:

انتته الخلافة منقادة
اليه تخرجرج اذبالها
فلم تك تصلح الا له
ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها احدٌ غيره
لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب
لما قبل الله اعمالها
وقول بشار حين سماعها: «انظروا الى
امير المؤمنين هل طار عن أعواده؟». ويعلق ابن
الأثير على هذا فيقول: «ولعمري ان الأمر كما قال
بشار، وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن
حالته.. الخ»^(١)

(١) المثل السائر ط الحلبي ١ / ١٧٦

ونحن نقول: ان اللهجة الخطابية الموفقة، التي
تتناهى اليها أصدائها حين نتخيل ابا العتاهية يلقي
قصيدته واسلوبه، السهل الممتنع الذي صب فيه
معانيه، والأروع من كل هذا تلك الصورة الحية
المتحركة التي صور بها الخلافة فجعلها حسناء ذلولاً
تمشي نحو ساحرها (الخليفة) مأخوذة بعظمته منقادة
الى جلاله، تخرج اذيالها ودلالها نحوه، لا تملك من
امرها، حiale، شيئاً .

ثم تلك المقدرة في تصوير اتحاد الأشياء، وتطابق
الصور والمعاني، عبر سياق في مضغوط، وكأن
الكلمات في حقل ممغنط، تفر منها اليها.. تتعالى، ثم
تهبط، ولا مناص..

ب- في الخمرة:

من ذكريات لهوه ولذته، قال يصف مجالس
الشراب في الكوفة متلهفا متحسرا، مبدعا في
الوصف، في معرض مدحه المهدي:

لهفي على الزمن القصير
بين الخورنق والسدير

اذ نحن في غرف الجنا
 ن، نعم في بحر السور
 في فتية ملكوا عبا
 ن، الدهر، امثال الصقور
 ما منهم الا الجسو
 رُ على الهوى غير الحصور
 يتعاورون مدامة
 صهباء من حَلَبِ العصير
 عذراء رباها شعاً
 عُ الشمس في حر الهجير
 لم تُذَنِّ مِن نارٍ ولم
 يَعلَق بها وَضُر القدور
 ومقرطق يمشي اما
 مَ القوم كالرثا الغرير
 بزجاجة تستخرج ال
 سر الدفين من الضمير
 زهراء مثل الكوكب الد
 ري في كف المدير
 وغصُراتٍ زرننا
 بعد الهدو من الخدور

رينا روادفهن يـل
 بسن الخواتم في الخصور
 غر الوجوه محجبا
 ت قاصرات الطرف حور
 متنعمات في النعي
 م، مضمخات بالعبير
 يرفلن في حلل المحا
 سن، والمجاسد، والحرير^(١)
 ما إن يَرْتَنَ الشمس
 إلا الفرط، من خلل الشعور
 نهج نواسي، لا شك فيه. ولكن ابا نواس يفوقه
 دقة وشمولا في وصف مفاعيل الخمرة، والحوار مع
 الساقبي والساقية والنديم، ويمزج وصف الخمرة
 بوصف الطبيعة. فالكل عند النواسي مخموراو مشارك
 مأمور، والكل مأخوذ بالجو. حتى الجو.

(١) مجاسد ج مجسد وهو القميص الذي يلي البدن. وهو قميص
 النوم عندنا.

ج - في الزهد:

امام الموت:

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا
ولا صغيرا ولا شيخا، ولا أحدا
للموت فينا سهام غير مخطئة
من فاته اليوم سهم، لم يفته غدا
ما ضر من عرف الدنيا وغرَّتْها
ألا ينافس فيها أهلها ابدا
حبذا، هنا، لو استرسل في التأمل، عبر الموت،
ولم يتفلسف، مستتجا: أن على الانسان الذي خبر
الحياة: الا ينافس فيها أهلها ابدا.. واذا كان يعني
بالمنافسة: التكالب والاستئثار فلا بأس.. ولكن
المنافسة غير التكالب..

وفيا يلي ابيات يصف فيها زوال العمر، وقد
وفق في تصوير الموت وتصوير نفسه توفيقا فنيا
ملحوظا. قال:

أُضِيعَ من العمر ما في يدي
واطلب ما ليس لي بيد

أرى الأمس قد فاتني رده
ولستُ على ثقة من غدٍ
واني لأجري الى غاية
قد استقبل الموتُ لي مولدي
وما زلت في طبقات الردى
اصعدُ في مصعدٍ مَصْعَدٍ
فاوشك عما قليل أكون
من الموت في البرزخ الأبعد
تحليل رائع لنفسية الانسان، عبر انسانيته، يضع
ما بيده، ويطلب من غيره، المستحيل والانسان حائر
بين عجزه عن رد ما فات، وبين عجزه عن معرفة ما
هو آتٍ.. والموت قابض على البدايات والنهايات،
وما بينها من غايات..

اما ما بعد الموت.. فيا ويلى مما بعد الموت!!
طبقات من الظلمات فوقها طبقات!! انا فيها « في
البرزخ الأبعد ».. حقا لقد بلغ ابو العتاهية منتهى
الروعة في تعبيره هذا، لقد عبر «البرزخ
الأقرب»، في السهولة، الى البرزخ الأبعد، في
الجودة وتآلق التعبير.. وكان شاعرا..

وله قصيدة مثيرة في وصف زوال الدنيا واهوال
الموت خرج فيها عن الرتابة في الوعظ الى الخطابة

والاثارة، فاكثر من أدواة الاستفهام والتعجب،
وضرب الأمثلة الحية من تاريخ الشرق، بقصد الاقناع
والتأثير والاستقطاب، في سياق متسام من جزالة
اللفظ وفخامة التعبير، ولهجة الوعيد والتهديد،
والتكرار بقصد الاقناع والتأكيد:

المنايا نجوس كل البلاد
والمنايا تبید كل العباد
لتنالن من قرون اراها
مثلها نلن من ثمود وعاد
هن افنين من مضى من نزار
هن افنين من مضى من اياد
هل تذكرت من خلا من بني الاصفر
اهل القباب والأطواد
هل تذكرت من خلا من بني سا
سان ارباب فارس والسواد
اين داود، اين، اين سليما
ن المنيع الأعراض والاجناد
راكب الريح، قاهر الجن والإنس
بسلطانه، مذل الاعادي

اين غرود وابنه، اين قارو
 ن وهامان، اين ذو الاوتاد
 ان في ذكرهم لنا لاعتبارا
 ودليلا على سبيل الرشاد
 وردوا كلهم حياض المنايا
 ثم لم يصدروا عن الإيراد
 ايها المزمع الرحيل عن الدنيا
 تزود لذاك من خير زاد
 لتنالئك الليالي وشيكا
 بالمنايا. فكن على استعداد
 اتناسيت. ام نسيت المنايا
 انسيت الفراق للاولاد
 انسيت القبور إذ انت فيها
 بين ذل، ووحشة، وانفراد
 أي يوم يومُ السباق وإذ أنت
 تُنادي، فما تجيب المنادي
 أي يوم يوم الفراق وإذ انت
 من النزع فني اشد الجهاد
 اي يوم يوم الفراق وإذ
 نفسك ترقى عن الحشا والفؤاد

أي يوم يوم الصراخ واذا
 يلطمن حر الوجوه والآساد
 باكيات عليك يندبن شجوا
 خافقات القلوب والأكباد
 يتجاوبن بالرنين ويذرفن
 دموعاً تفيض فيض المزد
 أي يوم، نسيت يوم التلاقي
 أي يوم نسيت يوم المعاد
 اي يوم يوم الوقوف إلى الله
 ويوم الحساب والاشهاد
 أي يوم يوم الممر على النا
 ر واهوالها العنظام الشداد
 أي يوم يوم الخلاص من النا
 ر، وهول العذاب والأصفا
 كم وكم في القبور من اهل مُلْك
 كم وكم في القبور من قواد
 كم وكم في القبور من اهل دنيا
 كم وكم في القبور من زهاد
 لو بذلت النصح الصحيح لنفسي
 همت اخرى الزمان في كل واد

بؤس لي بؤس ميتاً يوم ابكي
 بين اهلي وحاضر العُودِ
 كيف أهو، وكيف أسلو وأنسى
 م، الموت، والموت رائح ثم غادِ
 ايها الواصل سترفض وصلي
 عنك لو قد أذقتَ طعمَ افتقادي
 يا طويل الرقاد، لو كنت تدري
 كنتَ مَيّتَ الرقادِ حَيّ السهادِ..
 لِمَ كل هذا الوقوف امام الموت والميتين؟ ماذا في
 نفس الشاعر من نوازع؟ وهل انصرافه وتفرغه للزهد
 كان، وحده، ما جعله يحيا ويحيي هاجس الموت في
 نفسه وفي الآخرين؟ اذ ماذا امام الزاهد او الناسك
 ليعظ به ويزجر، سوى الموت؟ ام ان هناك اسبابا
 أخرى؟

لقد ماتت نفس الشاعر وخبا وجدانه حين انطلقاً
 فيه نافعان من اقوى دوافع حب الحياة ونوازع حب
 البقاء. هما: الحبيبة الهاجرة، والشباب المولي. وكم
 كانت ردة الفعل لدى العاشق المهزوم قوية، وقوية
 جداً.. فلقد كان عشقه مركبا وكثيفا، بل مثلث
 الزوايا والاضلاع: الحياة/ وعتبة/ والأنا/ وحين أفرغ

وجدانه ووجوده من الحياة وعتبة. وبالأصح: حين
خبا قلبه وكبا، استفاق عقله وثما على حساب قلبه.
فاذا بالحياة لا تساوي عنده قلامة ظفر، والأحياء،
شروى فقير.. رغم ما كان يبدو عليه، بين الحين
والآخر من مظاهر الحرص وحب المال ومعاشرة
الناس.. حتى بعد تزدهه واثناء هرمه.. لعلها فقط
استمرارية العادة المتأصلة، لا أكثر...

اما وقد تحرر العقل من تأثيرات القلب فقد
انطلق به الشاعر نحو الحياة والأحياء مطالاً عليهم من
فوق، ساخراً من تكالبهم على الحياة وما فيها، ناسين
ما ينتظرهم بعدها من فواجع وآلام ورهبات.. لكن
سخريته هذه غير صريحة.. بل مرموزة، مبطنة بثوب
الحكمة، ورداء الموعظة، تماماً كأبي حكيم شرقي
قديم، يعظ الناس كل يوم، دون ان يحيا معهم، او
مثلهم..

هؤلاء السادرون في غيهم، بم يجعلهم
يستيقظون؟ بأي سوط يلهب ظهورهم الرابضة على
الفريسة كالبهيمة؟

لا شك انه، هنا، عند شاعرنا، سوط الشعر،

وصوت التجربة، يعلن بهما ان هذه الحياة التي تهيمون
حباها ليست سوى متعة عابرة، ودار غرور، ومتاع
الى حين.. ويأتي الموت، والتخويف به، الموضوع
الطبيعي الوحيد المقابل للحياة. فما دامت الحياة تافهة
الى هذا الحد، فان الموت لا شك ليس تافها، بل هو
قضية، وموقف وفلسفة.. اي هو شيء هام وذو
قيمة..

يقول شوبنهاور: «ليس من المؤكد ان الوجود خير
من اللاوجود، بل لعل العكس هو الصحيح، كما
يبدو لنا، لو امعنا النظر بعض الإمعان. ولو استطعت
ان تسعى الى قبور الموتى، وتقرع ابوابها سائلا اياهم،
هل يريدون العودة الى الحياة، اذن، لرأيتم ينفضون
اليك رؤوسهم رافضين، وإلا، فعلام التعلق بهذه
البرهة القصيرة التي يقضيها المرء في الوجود والتي لا
تبدو شيئا، وسط تيار الزمان اللانهائي؟! انما هذا
التعلق بالحياة حركة عمياء غير عاقلة.. الخ. ولعل
ابا العتاهية قد ذهب الى قبور الموتى وسألهم وحاورهم
مرارا. وما هو في وقفته الطويلة امام الموت ينقل الينا
هذا الحوار، الصامت ألساطق، شعرا اعتباريا ولا

اصفى ، ولا اصدق . . يخبرنا فيه ، نحن الموق الذين
لا نزال على قيد الحياة ، باننا راحلون عما قريب ،
طال مكوثنا ام قصر ، تعامينا عن الموت « الراحل
الغادي » بيننا ، ام لم . . ناعيا علينا مثل هذا الوجود
القسري وتلك الحياة المليئة بالشر والقبح والتفاهة .
ناعيا نفسه قبلنا ، في صور تأملية حارة ، مريرة ،
وفي نشيج شعري مليء بالدم والدموع . . ختمه
بهذا النداء الموجه :

يا طويل الرقاد لو كنت تدري
كنت ميت الرقاد حي السهاد . .
موحيا لأبي العلاء نفس الموقف ونفس النشيج ، في
قصيدته الرثائية الشهيرة : غير مجد في ملتي
واعتقادي . . ولكن في وقفة علائية تأملية أعمق وارقي . .
ولا شك ان ابا العلاء قد اعجبه كثيرا بيت ابي
العتاهية الأخير : يا طويل الرقاد لو كنت تدري . .
فصاغه صياغة حكمية جديدة حين قال :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ
جسمُ فيها ، والعيشُ مثل السهاد
وظل ، لا عجابه ، محتفظا بنفس البحر والروي

والقافية في قصيدته كلها . وظل الفارق بين الشاعرين
قائما: المعري غواص ، تأملي ، فيلسوف ، وابوالعتاهية يمضي
على رسله . . لا يلوي على شيء . . .

حيرة حائرة:

في الزمان والمكان وما بعدهما:

ليت شعري ، فاني لست أدري
أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد تقبض روعي
وبأي البلاد يحفر قبري .

صورة رهيبة:

نحن في الحياة ، اشباح هائمة تتجسد ، في ملاقات
الموت ، قطعانا ، تتوالى بعد قطعان :

كم ترانا يا اخي نبقي على
جولان الموت في هذا الأفق
نحن أرسل الى دار البلى
تتوالى عنقاً بعد عنق

صورة الصديق اللاحق:

حكمة ساخرة اوسخرية حكيمة بالألوان:

احذر الاحق واحذر وده
انما الاحق كالشوب الخلق
كلما رقعته من جانب
زعزعته الريح يوما فانخرق
او كصدع في زجاج فاحش
هل ترى صدع زجاج يلتصق
فاذا عاتبته، كي يرعوي
زاد شرا، وتمادى في الحمق
قلما رأينا لأبي العتاهية هجاء فنيا ضاحكا كهذا:

رأيت الفضل متكئا
يثاجي البحرَ والسمكا
فارسل عينه لما
رآني مقبلا ويكى
فلما ان حلفت له
بأني صائم ضحكا..

موعظة كونفوشيوس:

انما انت بحسبك
ومن * الناس، بأنسك

لا يفوتنك بيومك
 ما فات منك بأمسك
 ارحم الناس جميعا
 فهم ابناء جنسك
 ابغ للناس من الخير
 كما تبغي لنفسك

حدث القاسم بن عيس العجلي قال: حججت فرأيت ابا
 العتاهية واقفا على اعرابي في ظل ميل^(١) وعليه شملة. فقال له:
 كيف اخترت هذا البلد القفر على البلد ان المخصبة. فقال له: يا
 هذا، لولا ان الله قنع بعض العباد بشرب البلاد، ما وسع خير البلاد
 جميع العباد. فقال له: فمن اين معاشكم؟ فقال: منكم
 معشر الحاج، ثمرون بنا فتنال من فضولكم، وتنصرفون فيكون
 ذلك. فقال: اننا نمر ونصرف في وقت من السنة. فمن اين
 معاشكم. فاطرق الاعرابي. ثم قال: لا والله، لا ادري ما اقول
 الا اننا نرزق من حيث لا نحسب أكثر مما نرزق من حيث
 نحسب فولى ابو العتاهية، وهو يقول:

(١) صفة للضباب. يقال: ضباب ميلٌ مع الريح يتكفأ. (لسان
 العرب مادة مِيلَ)

هب الدنيا تواتيك
أليس الموت أتيك
الا يا طالب الدنيا
دع الدنيا لشانك
وما تصنع بالدنيا
وظل الميل يكفيك
واخبر المسعودي ان ابا العتاهية قال هذه الايات
للرشيد، وكان حج معه في بعض السنين، فنزل الرشيد عن
راحلته، ومشى ساعة، ثم أعيا، فقال: هل لك يا أبا العتاهية ان
تستريح الى ظل هذه الميل؟ فلما قعد الرشيد اقبل على أبي
العتاهية. وقال: حركنا. فقال ابو العتاهية هذه الايات...

تجارب واعترافات:

بكائية الى الدنيا:

ما انت يا دنيا بدار إقامة
ما زلت يا دنيا كفيء ظلال
وخفقت يا دنيا بكل بكية
ومزجت يا دنيا بكل وبال
قد كنت يا دنيا ملكت قيادي
فقرنتني بوساوس وخبال

حولت يا دنيا جمال شيبتي
قبحاً، فمات لذاك نور جمالي
غرس التخلص منك بين جوانحي
شجر القناعة، والقناعة مالي
الآن ابصرت الضلالة والهدى
والآن فيك قبلت من عذالي
وطويت عنك ذبول برد صُبُوتِي
وقطعت حبلك من وصال حبالي
وفهمت من نوب الزمان عظاتها
وفطنت للأيام والاحوال
وملكت قود عنان نفسي بالهدى
وطويت عن تبع الهوى اذيالي
وتناولت فكري عجائب جمّة
بتصرف في الحال بعد الحال
الخ..

والموت هاجسه على الدوام :

تمسكت بآمالٍ
طوالٍ، بعد آمالٍ

واقبلت على الدنيا
بعزم، أي إقبال
وما تنفك ان تكدح
اشغالاً بأشغال
فيا هذا تجهز
لفراق الأهل والمال
ولا بد من الموت
على حال من الحال
صورة كثيفة لنتائج سعينا، ولكن: هذه هي
الحقيقة:

أبقيت مالك ميراثاً لوارثه
فليت شعري، ما ابقى لك المالُ
القوم بعدك في حال تسرهم
فكيف بعدهم، دارت بك الحالُ
ملوا البكاء، فما يبكيك من احد
واستحكم القيل في الميراث والقالُ
عبادان : مصدر الزهد و... النفط !

وصف ابو العتاهية عبادان وهي مدينة على
مصب دجلة في الخليج العربي، وهي عن البصرة

مرحلة^(١) ونصف. وكان فيها نساك منقطعون للعبادة
ولأجل هذا ذكرها واصفا:

سقى الله عبّادان غيثاً مُجَلِّلاً
فان لها فضلا جديداً واولا
وثبت من فيها مقبها مرابطا
فما إن ارى عنها له متحولا
اذا جثتها لم تلق إلا مكبرا
تخلّى عن الدنيا، وإلا مهلا
فاكرم بمن فيها على الله نازلا
واكرم بعبّادان داراً ومنزلا
حكّم اجترارية مكرورة تنظم رجزا ما تعرفه
الخاصة والعامة ولا غناء فيها، ولا شعر.. كهذه:

من سالم الناس سلم
من شاتم الناس شُتم
مَن ظلم الناس اسا
من رحم الناس رحم
مَن طلب الفضل الى
غير ذوي الفضل حُرم

(١) الرّحلة: جمعها مراحل وهي المسافة. التي يقطعها المسافر في
نحو يوم. (محيط المحيط مادة رحل)

مَنْ حفظ العهد وفي
 من احسن السمع فهم
 مَنْ صدق الله علا
 من طلب العلم علم
 مَنْ خالف الرشيد غوى
 من تبع الغي ندم
 مَنْ لزم الصمت نجا
 من قال بالخير غنم
 مَنْ عف واكتف زكا
 من جحد الحق أثم
 مَنْ مسبه الضر شكا
 من عضه الدهر ألم
 لم يعد حيا رزقه
 يرزق امرئ حيث قسم

وشتان بين «مَنْ» هذه، و«مَنْ» زهير في
 معلقته..

وعلى عادته، نجد ابا العتاهية حيناً في القمة،
 واحيانا في السفح.. في هذه الأبيات الأربعة التالية نراه
 وقد سما اسلوبا وشاعرية:

الليل شَيْبَ والنهارُ كلاهما
رأسي بكثرة ما تدورُ رحاهما
يتناهيان لحومنا ودماءنا
ونفوسنا جهراً ونحن نراهما
الشيب احدى الميتين تقدمت
احداهما وتأخّرت احداهما
فكأن من نزلت به اولاهما
يوماً، وقد نزلت به اخراهما

وكذلك في هذه القصيدة العصماء التي اخذ عنها
المتنبي نفسه بعض معانيها، وبعض اشطارها:
الدهر ذو دولٍ والموت ذو عللٍ
والمرء ذو أملٍ، والناسُ اشباهُ
ولم تزل عبر فيهن معتبرٌ
يجري بها قدر، والله أجراه
يبكي ويضحك ذو نفس مصروفةٍ
والله اضحكه، والله ابكاه
والمبتلى فهو المهجور. جانبه
والناس حيث يكون المال والجاه

يا بائع الدين بالدنيا وباطلها
ترضى بدينك شيئا ليس يسواه
حتى متى انت في لهُو وفي لعب
والموت نحوك يهوي فاغرا فاه
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
رب امرئ حثفه فيما تمناه
ان المني لغرور ضلة وهوى
لعل حثف امرئ في الشيء يهواه
كأن حيا وقد طالت سلامته
قد صار في سكرات الموت تغشاه
والناس في رقدة عما يراد بهم
وللحوادث تحريك وانباء
أنصف، هديت، اذا ما كنت منتصفاً
لا ترض للناس شيئا لست ترضاه
يا رب يوم اتت بشراه مقبله
ثم استحالت بصوت النعي بشراه
لا تحقرن من المعروف اصغره
أحسن، فعاقبة الاحسان حسناه
تلهو، وللموت ممسانا ومصبحنا
من لم يصبحه وجه الموت مساه

ما اقرب الموت في الدنيا وابعده
 وما أمرٌ جنى الدنيا واحلاه
 كم نافس المرء في شيء، وكابر فيه النا
 سَ ثم مضى عنه وخلاه
 بينا الشقيق على إلف يُسرُّ به
 اذ صار اغمضه يوماً وسجّاه
 يبكي عليه قليلاً، ثم يُخرجه
 فيمكن الأرض منه، ثم ينساه

أمثال سائرة:

لو رأى الناس نبياً
 سائلاً ما وصلوه
 انت ما استغنيت عن صا
 حبك، الدهر، اخوه
 فاذا احتجت اليه
 ساعة بحك فوه
 -نام الخلي، لانه خلّو
 عمن يورق عينه الشجر
 ما إن يطيب لذي الرعاية
 للأيام، لا لعب ولا هو

اذ كان يسرف في مسرته
فيموت من اعضائه جزؤ
واذا المشيب رمى بوهنته
وهت القوى وتقارب الخطؤ
واذا استحال باهله زمن
كثُر القذى، وتكدر الصفؤ

قال اسحاق الموصلي: انشدني اسحاق بن مخلد
الرازي لابي العتاهية هذه الابيات، فقلت: ما
احسنها! فقال: اهكذا تقول! حقا انها روحانية بين
السماء والارض...

اما «ذات الامثال» الشهيرة فهي ارجوزة كبرى
يقول المؤرخون انها مؤلفة من اربعة آلاف مثل، وكلها
في الاعتبار والوعظ. الا ان الأيام لم تبق منها سوى
نيف وخمسين مثلاً او بيتاً. واليك بعض هذه
الخمسين.

حسبك مما تبغيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا
من اتقى الله رجا وخافا

ان كان لا يغنيك ما يكفيك
 فكل ما في الارض لا يغنيك
 ان القليل بالقليل يكثر
 ان الصفاء بالقذى، ليكدر
 ما انتفع المرء بمثل عقله
 وخير ذخرك المرء حسن فعله
 ان الفساد ضيره الصلاح
 ورب جد جرّه المزاح
 يغنيك عن كل قبيح تركه
 يرتين الرأي الاصيل، شكه
 يا رب من اسخطنا بجهوه
 قد سرنا الله بغير حمده
 من لم يصل فارض اذا جفاكا
 لا تقطعن للهوى أخاكا
 لكل ما يؤذي وان قلّ ألم
 ما اطول الليل على من لم ينم
 ان اختفى ما في الزمان الآتي
 فقس على الماضي من الاوقات
 ما تطلع الشمس ولا تغيب
 إلا لأمر شأنه عجيب

لكل شيء معدن وجوهر
 واوسط واصغر واكبر
 وكل شيء لاحق بجوهره
 اصغره متصل باكبـره
 من لك بالمحض وكل ممتزج
 وساوس في الصدر منك تختلج
 ما زالت الدنيا لنا دار اذى
 بمزوجة الصفو بألوان القذى
 الخير الشر بها أزواج
 لذا نتاج ولذا نتاج
 لكل انسان طبيعتان
 خير وشر وهما ضدان
 والخير والشر اذا ما عدا
 بينهما شأو بعيد جدا
 انك لو تستنشق الشحـحا
 وجدته انتن شيء ريحا..
 التـرك للدنيا النـجاة منها
 لم تر انـهى لك منها عنها
 من جعل التمام عينا هلكا
 مـيلفك الشر كـباغيه لكـا

من لم يكن في بيته طعام
 فماله في بيته مقام
 صلح قرين السوء للقرين
 كمثّل صلح اللحم والسكين !
 ولل كلام باطن وظاهر
 في ساحة العدل يموت الجائر
 ان الشباب والفراغ والجدة
 مفسدة للعقل اي مفسدة
 ان الشباب حجة التصابي
 روائح الجنة في الشباب
 اصحب ذوي الفضل واهل الدين
 فالمرء منسوب الى القرين
 لا تذهبن في الامور غرطا
 لا تسألنّ إن سألت شططا
 وكن من الناس جميعا وَسَطًا
 ذكر سليمان بن ابي الشيخ قال: قلت لأبي
 العتاهية اي شعر قلته اجود واعجب اليك قال:
 قولي: ان الشباب والفراغ والجدة
 مفسدة للعقل اي مفسدة

وقولي: ان الشباب حجة التصابي
روائع الجنة في الشباب..

قال عمرو بن بحر الجاحظ: وفي قول ابي العتاهية
« روائح الجنة في الشباب معنى لمعنى الطرب الذي لا
يقدر على معرفته الا القلوب، وتعجز عن ترجمته
الألسنة الا بعد التطويل، وادامة الفكر الجليل،
والتفكير الجزيل. وخير المعاني ما كان الى القلب
اسرع من اللسان.

اما انا فأقول: ان هذا البيت يساوي، وحده،
كل ما قاله ابو العتاهية من الشعر... وواضح ما
بين القمة والسفح في شعر شاعرنا من التفاوت
الكبير مما فصلناه سابقا، وصح فيه قول
الاصمعي: « شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يقع
فيها الجواهر والذهب، والتراب، والخزف،
والنوى »..

ونختتم، اخيرا، هذه النماذج بابتهالية من
ابتهالياته الخاشعة المستسلمة المنيبة، يرتلها ابو
العتاهية، صلاة حرة بين يدي ربه:

إلهي لا تعذبني فلإني
 مقرر بالذي قد كان مني
 وما لي حيلة إلا رجائي
 وعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظني
 فكم من زلةٍ لي في الخطايا
 وانت عليّ ذو فضلٍ ومنّ
 إذا فكرت في ندمي عليها
 عضضت أناملي وقرعتُ سني
 يظن الناس بي خيراً واني
 لشر الناس، ان لم تعف عني
 أجن بزهرة الدنيا جنونا
 وافني العمرَ فيها بالتمني
 وبين يدي مُخْتَبَسٌ ثَقِيلُ
 كأنني قد دعيت له كأني
 ولو اني صدقت الله فيها
 قلبت لأهلها ظهرَ المِجَن
 بل هي اعترافات انسان يتضور ندما، ويضج
 اسى ولوعة.. يصعد كل ذلك في دعاء لاهت

حزين.. احسست كأنني ارفع يدي معه نحو السماء
طالباً العفو والغفران، لي وله ولجميع المؤمنين..

آمين..

الفهرست

الموضوع	الصفحة
استهلال	٣
ابو العتاهية: مَنْ هو؟	٧
أصله النبطي	١٠
تأثير الصفات والسمات	١٤
عصره	١٦
العصابة إياها	٢٠
وفاء الأصدقاء	٢٤
انقلاب خطير	٢٨
الشاعر - العالم	٣٤
مذهب الشاعر	٣٥
تقلبه	٤٢
حرصه على المال	٤٦
ثروته	٥٠
تاريخ الزهد في الشرق القديم	٥٣
الزهد العربي	٦٣

الموضوع	الصفحة
الزهد الاسلامي	٦٨
ردة فعل	٧٤
الزهد العتاهي - دوافعه	٨٣
كثرة شعره الزهدي	٨٩
غزارة المادة	١٠٧
كثرة الحكمة في شعره	١٠٨
بين حكمة وحكمة	١٠٩
القيمة الفنية	١١٢
نماذج من حكم ابي العتاهية	١١٦
حكيمته في الزهد	١٣٦
أمام الموت دائماً	١٤١
اعجاب المتنبي بمعاني الشلحصر	١٤٦
اعجاب ملك الروم بحكمة الشاعر	١٤٩
واعظ الخلفاء ومُبكيهم!	١٥٠
حكمه الاجتماعية	١٥٦
العدمية والشاعر	١٦٠
سحريته	١٧٩
دفاع عن الشاعر	١٨٦

الموضوع	الصفحة
نماذج مختارة من شعره	١٨٦
شوينهور واللاوجود	٢٠٢
حيرة حاشرة	٢٠٤
تجارب واعترافات	٢٠٧
بكائية الى الدنيا	٢٠٧
امثال سائرة	٢١٤
الارجوزة الكبرى - الصغرى .. او ذات الأمثال	٢١٥
ابتهاال أخير	٢٢٠

الموسوعة الأدبية الميسرة

٨

حسان بن ثابت رضي الله عنه

من المحرّكة إلى الإلتزام

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

دار مكتبة الهلال

بيروت - لبنان

جَمِيعُ حَقُوقِ النِّقْلِ وَالِاقْتِبَاسِ
وَإِعَادَةُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ
لِمَكْتَبَةِ الْهَلَالِ
طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْفَحَةٌ
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز لى بناية برج الضامية
ملكه دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
من. ب. ١٥/٥٠٠٢ برقياً ملكه لال

استهلال

من الوثنية إلى التوحيد ، من التجسيد إلى التجريد : وثبة هائلة من الزمان الرتيب ، والمكان الجديد ، إلى حيث الزمان حدوده الأبد ، والمكان تخومه الأرض بما وسعت ، والسماء بما رحبت ..

وثبة حققها العربي - البدوي ، على يد النبي ﷺ ، فاجتاز معه وبه ، من المتناهي ، إلى اللامتناهي ، إلى ... الله ... فكانت الرسالة المحمدية إحدى ، بل لعلها آخر المحطات الكبرى لذلك الإنسان البدوي في إنطلاقته نحو تكوين « الأنا » المفتحة الخلاقة ، وتحقيق الذات المجتمعية ، البديلة ..

وما نزعة الزهد ، من ثم ، وحالة التصوف في الإسلام ، إلا تجسيداً رائعاً لكيثونة هذه الذات المتشوفة ، وقدرتها الفائقة ، على الاختراق والتجاوز

إلى ما وراء المادة ، نزوعاً إلى الكمال . . وتوقفاً إلى
المثال .

إلا أن المعادلة بين ما هو جسدي - مادي ، وما
هو إلهي ، ظلت هي السائدة والرائدة في تعاليم
الإسلام ، وسيرة كبار المسلمين . وحين تجاوزت
الصوفية حدودها كُفّر أصحابها ، وُبدّعوا . . غير أن
الغزالي بقي مؤمناً بالمعرفة الحقيقية تأتيه ، كما
الصوفية ، من ذلك « النور يقذفه الله في القلب » فينداح
في الكيان ، ويتلقفه العقل العاجز . واستمر
المسلمون - في السيرة والتفكير ، غزاليين ، أشاعرة في
غالبيتهم ، إلى أن جاء ابن رشد وقلب المعادلة . .

حتى في العلوم كان اهتمام العرب بالجانب
الإلهي في المادة أكثر من المادة نفسها ، وذلك
لإيمانهم بأن الله يتجلى في المادة أو « يتمظهر »^(١) فيها
كما يقول المستشرق « روم لاندو في كتابه : « الإسلام
والعرب »^(٢) وما كانت أبحاثهم المستفيضة في الفلك
والحيوان إلا لإظهار حقيقة هذا التمظهر من جهة وقدرة

(١) تمظهر الله أو التجلي بالتمبير الديني : Transfiguration de Dieu .

(٢) انظر ترجمة هذا الكتاب الى العربية لمنير البعلبكي - دار العلم
للملايين .

الله على الخلق والإبداع من جهة أخرى .

سقنا هذه العجالة لنبرهن أن العربي الجاهلي حين حطم ، بالإسلام ، وثنياته ، وقضى بقوة الروح ، وعمق الإيمان ، على أصنامهِ ، لم يستطع ، أو لم يرد ، أن يحطم صنمية التقاليد ، وأنماط عيشه القديم ، ولا سيما أنماط تعبيره وأساليب لغته ، وقوالب شعره ، فظل أسير اللغة ، وعبْدَ قوافي قصائده ويحورها الرملية الجافة ..

فشتان بين تلك القفزة الروحية الهائلة التي قفزها على دروب التسامي والتجرد ، والتجريد ، وتعشق المثال والكمال ؛ وبين هذه القوالب اللغوية والتعبيرية الضيقة ، على رحبها ، بين هاتيك الوثنية التجسيدية في العادات والتقاليد ، على أصالتها ، وبين هذه الشطحات الجديدة في عالم الروح والعقيدة ..

فما السبب يا ترى؟ ..

لعل ذلك عائد ، في نظرنا ، إلى أن العربي سَلَفِي في طبعه يتشوق إلى القديم والمحافظة عليه ، أكثر مما يتعشق الجديد والانغماس فيه . خاصة ذلك العربي الجاهلي المعتر بترائه . إعتزازه بإسلامه ، وبلغته وسحر

بيانها . وإيمانه الشديد بكمالها ، وإن ما قاله فيها من شعر ونثر قد بلغ الغاية ، وأن لا جديد يمكن أن يضاف إلى كل ذلك . . وها أن القرآن قد أغناه عن كل نشر وشعر ، إذ رأى في آياته البينات مزيجاً مدهشاً من روائع الكلم المشور ، والصور الشعرية المثيرة . وهكذا « قعد » هذا العربي المسلم يتأمل معجزات التعبير القرآني ، مستغرقاً فيها ، مستوحياً منها ، في شبه ذهول ، دون أن يقلد أو يجدد . . مما أبقاه بعيداً عن دائرة الضوء الجديد ، في هذا المجال .

واستمر الشعر التقليدي ، الذي أكثر منه في الجاهلية ، ماثلاً أمامه كالصنم لا يكف عن التعبد له وحرق البخور على قدميه . . وحين أطلق النبي ﷺ حرية الشعراء في الرد على المشركين ، بعد أن نهاهم عن قول الشعر ، أو ، بالأصح ، عن بعض موضوعاته التي لا تتلاءم وتعاليم الدين الجديد ، كالغزل الإباحي ، والخمرة ، والاقذاع في الهجاء ، وذكر الأصنام والازلام والميسر وما شابه ، حين فعل النبي ﷺ ذلك لم يجد هؤلاء الشعراء ، وأكثرهم مخضرم ، سوى الشعر الجاهلي يعبون منه اغترافاً وبلا قيد ، أو تغيير ، في المباني والمطالع ، والصور .

كان الإسلام إذن إنقطاعاً عن الجاهلية ، على صعيد النظر أو المضمون . واستمراراً للجاهلية على صعيد الشكل أو التعبير^(١) . والسر كما رأينا ، يكمن في أن الإسلام قد تبنى ذلك الشكل الجاهلي على أنه المعبر الأكمل عن شخصية العربي في مجال اللغة والفكر . وقد استحال على الإسلام تفسير تغييره ، بل لقد اتهم النبي ﷺ بأنه يقول شعراً وليس قرآناً . . كما سبق القول . إذن ، ظل الشاعر وارثاً لهذا الشكل الثابت لا يغير فيه شيئاً ، فهو ناسخ له ومكرر . أما المضمون فقد سلب منه أيضاً ، وليس عليه إلا أن يغير في الأسماء ، عند المدح ، وأن يضع كلمة حرب أو غزو أو واقعة بدل يوم أو أيام وأحياناً لا يغير شيئاً . وهكذا انتقل الشاعر الإسلامي من مبدع للمضمون إلى ناسخ له ومن صاحب حَدْسٍ شخصي إلى متحدث عن حدسٍ إلهي . .

لم يعد الشاعر في الإسلام ذاتاً مستقلة ، بل أصبح جزءاً من جماعة أو أمة .

من هنا كان إنحسار الشعر ، كماً وكيفاً ، في

(١) أدونيس: الثابت والمتحول ٣ صدمة الحداثة ص ٢٣٣ دار العودة - بيروت ١٩٧٩ .

الإسلام حين أصبح الشاعر في الدرجة الثانية باعتباره وسيلة وليس غاية ، بعد أن كان غاية وطاقة خلاقة في الجاهلية .

نشأة حسان :

في هذا الجو الجديد نشأ حسان أو بالأحرى بدأ حياته في قسمها الثاني ، إذا صح التعبير ، (كان عمره حين أسلم قرابة الستين وقد عُمر ١٢٠ عاماً . . كما يرجح الرواة) ما عدا بروكلمن^(١) .

نشأ ، إذن ، مشدوداً إلى وترين : وتر الإسلام وجاذبية روحانيته ، وتر الجاهلية وذكرياته الحميمة فيها ، وتر التجديد روحاً وموضوعاً ، وتر التقليد منهجاً وطرائق وحسية تصوير . ثم أنه هو نفسه شاعر مخضرم ، فلا يعقل أن ينقلب بين عشية وضحاها إلى شاعر مجدد مهما كانت دوافع التجديد قوية آسرة .

ويمضي العهد الإسلامي الأول كله على هذه الوتيرة ، فلا تجديد ، عند حسان وغير حسان من الشعراء . وكذلك مضى النقد على الوتيرة نفسها . إلى

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ج ١ ص ١٥٢ .

أن كان العهد الأموي حيث التمتعت في الأفق بعض
ومضات التجديد .

ومما أبقى حسان أسير ماضيه الجاهلي . أنه عاش
كشاعر وكإنسان ، زمناً طويلاً في رحاب الغساسنة
والمناذرة على أطراف الجزيرة العربية ، يتعيش بشعره
ويحقق به مقاماً رفيعاً ومجداً قلما داناه فيه شاعر سوى
الناطقة . . وظل هاجساً طوال إسلامه ، يحن إليه وإلى
رموزه حيناً جارفاً أفصح عنه في كثير من المناسبات ،
كما سنرى .

هويته :

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حَرام بن زيد
مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار^(١) . . . بن
ثعلبة ، وهو العنقاء بن عمرو ، سمي بذلك لطول
عنقه . . . انتهاء بيعرب بن قحطان .

(١) وبنو النجار هم تيم الله بن ثعلبة أحوال رسول الله ﷺ فلشاعرنا اذن
صلة بالرسول وقراة . اغاني ج ٤ ص ١٣٤ ويسمون بني مغالة ، وهي
امراة من القين ، واليهما كانوا ينسبون . رواية مصعب الزبيري عن
الحسن بن علي .

كنيته : _____

يكنى حسان بأبي الوليد ، وأبي عبد الرحمن ،
وأبي حسام .

أمه : _____

أما أمه فهي الفريغة ابنة خالد بن قيس بن لوزان
عبد ود . : ابن الخزرج . أدركت الإسلام وأسلمت .

نسبه : _____

إذن هو من بني النجار من قبيلة الخزرج ، يمني
قحطاني ، يرقى من جهة الأم إلى آل جفنة الغساسنة
العرب المسيحيين اليعقوبيين ملوك الشام^(١) وكذلك إلى
المناذرة اللخمين العرب المسيحيين النسطوريين ملوك
العراق في الحيرة^(٢) .

(١) وكانوا على خلاف عقلي مع المناذرة النسطوريين حول طبيعة السيد
المسيح . يضربون بخيامهم في جلق ، وليس في دمشق . فكانوا
أقرب إلى حياة البادية منهم إلى حياة الحاضرة على عكس أقربائهم
المناذرة (في الحيرة) الذين كانوا يتشبهون بحياة أسباطهم الأكاسرة
وطرائق عيشهم وسكناتهم .

(٢) الحيرة أو حرثا في السريانية ، ومعناها الخيمة . مما يدل على أن
المناذرة سكنا الخيام في أوائل حكمهم . ثم لما تأثروا بالأكاسرة بنوا
مثلهم القصور وتحضروا . حتى تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٢٢ .

فهو بهذا طيب الأرومة عالي النجار صافي
العروية . . وقد أحس هو بذلك إحساساً عميقاً ، ظهر
في مدائحہ لأقربائه آل جفنة الغساسنة ، وآل المنذر ،
كما ظهر في مفاخره ، واعتزازه ، في شعره ، بإتتمائه
إلى أرفع بيوتات العرب القحطانيين .

طول عمره : ---

يجمع المؤرخون على أن حساناً أَسَنُ حتى بلغ
المائة والعشرين . نصفها أو يزيد في الجاهلية ،
والنصف الآخر في الإسلام . ومعنى هذا أن حياة
الشباب ، والهوى ، والمجون ، والتجوال ، والعيش في
القصور مع الملوك ، قد أنتجا لنا شاعراً مشبوب
العاطفة عميق التجربة ، ذا نتاج قيم ، أو هكذا يجب
أن يكون ؛ بإمكانه أن يصل بعضه ، على الأقل ،
إلينا ، في كثير من هواجسنا وعواطفنا ، ورؤانا .

أما حياة الشيخوخة والعيش في رحاب الجو النبوي
المهيب ، والإلتزام الإسلامي الرهيب ، فقد أفرزا لنا
شاعراً فائراً متواتر المعاني ، لا قيمة فنية تذكر لشعره ؛
واشدد على فنية ، كما سنرى - إذ أن باقي مدائحہ
النبوية ، ومدافعاته عن العقيدة الإسلامية تنضح بالصدق

وطول باعه في معرفة أنساب المشركين وأيامهم ومخازيهم ، كما تنم عن عفوية الإلتزام وصرامته في آن .

مثل هذا الشعر إن دل على شيء ، فإنما يدل ، في المقياس النقدي الصحيح ، على حقيقتين لاثالثة لهما . أولاهما : أنه جاء وثيقة تاريخية في قالب شعري ، لأهم مرحلة من مراحل الإسلام في أولى إنشقاقاته ، وبواكير ظهوره ، تسجل بأمانة ما كان يعانيه النبي ﷺ من إيذاء مشركي مكة له ، كما تسجل أهم انتصاراته وغزواته ، وتتغنى بمآثره وصفاته ، والقيم الجديدة التي بشرَ بها وعمل لها ، وجاهد في سبيل تجسيدها في أرواح وكيانات الرعييل الأول من المسلمين .

وهذه الحقيقة لا تمنح الشعر امتيازاً في نظرنا . . فتسجيل الوقائع والأحداث من شأن النشر وموضوعاته . إذن ، هو نظمٌ وليس شعراً ، وبالتالي فهو لا يتصل بنا إلا كما تتصل البديهيات - المسلمات في العقول والأذهان . .

وثانيتها : أن نتاج الشيخوخة لا يمكن ، إلا في حالات نادرة ، أن يأتي إبداعياً أو مثيراً ، أو قادراً على

الإستمرار ، لأن الموهبة تكون ، في الستين وما فوق ،
قد خبت أو كادت ، وضائق دائرة إشعاعها ؛ فيصبح
الشاعر معها وقد اجتر نفسه وكرر معانيه ، ولم يأت
بجديد ، كما هي الحال مع أكثر شعرائنا القدامى ومنهم
حسان .

قبيلة الشاعر - الأنصار :

تقدم معنا أن حسان كان من الخزرج لجهة أمه
ومن الأوس لجهة أبيه . وحين نصرروا النبي ﷺ يوم
جاءهم مهاجراً إلى المدينة سمووا بالأنصار . يقول ابن
خلدون في تاريخه^(١) : « ونزل رسول الله ﷺ على أبي
أيوب الأنصاري حتى ابنتى مساكنه ومسجده . ثم انتقل
إلى بيته ، وتلاحق به المهاجرون ، واستوعب الإسلام
سائر الأوس والخزرج ، وسموا بالأنصار يومئذ بما
نصروا من دينه » . وكانت لهؤلاء الأنصار حرمة وإشارة
عند النبي ﷺ لما بذلوه في سبيل الإسلام من دملاء
وأموال وحماية ، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يشهد لهم
بذلك .

(١) تاريخ ابن خلدون : ج ٢ ص ٢٠٨ طبعة دار الكتاب اللبناني -
بيروت .

وحين بلغهم من بعض المنافقين أن النبي ﷺ يقسم الغنائم « فيمن كان يستألفه على الإسلام من قريش وسواهم ، وجدوا^(١) في أنفسهم وقالوا : سيوفنا تقطر من دمائهم (دماء المهاجرين) وغنائمنا تقسم فيهم إلخ » وبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار : ما الذي بلغكم عني . فصدقوه الحديث^(٢) فقال : ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، ومتفرقين فجمعكم الله ؟ فقالوا : الله ورسوله آمن . فقال : « والله اني لأعطي (الغنائم) رجالاً استألفهم على الدين ، وغيرهم (أي أنتم) أحب إليّ . . . أما والذي نفسي بيده ، لولا الهجرة ، لكنتُ امرءاً من الأنصار . الناس دثار ، وأنتم شعاب ، ولو سلك الناس شِعْباً ، وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكتُ شعبَ الأنصار ! ففرحوا بذلك . إلخ . . » .

وهكذا أصبح كل إنسان يسكن المدينة^(٣)

(١) وجدوا : من الوجد أو الاضطغان .

(٢) إشارة الى الحديث الذي نقله بعض المنافقين الى النبي .

(٣) وكان اسمها أول الأمر : يثرب . سميت باسم بانيتها يثرب بن فانية ابن مهلهل بن إرم بن عيل ابن عوض وعيل اخو عاد . والأصح ، على رأي ابن خلدون : انه يشرب ابن قائد بن عبيد بن . . . عمليق بن لاوذ بن ارم . ومنه العمالقة . اما الأوس والخزرج فمن بطون جفنة =

أنصارياً ، وأصبحت المدينة منورةً بحلول النبي ﷺ فيها^(١) . وكل قبيلة فيها أنصارية ، وحسان بن ثابت أصبح أنصارياً . لكنه ذهب وحده بهذه الصفة ولازمته واشتهر بها ، فقليل : حاسن بن ثابت الأنصاري . وغلبت الشهرة النسب / ولعل هذا التفرد بالأنصارية ناتج عن كونه شاعر النبي ﷺ المميز عن سائر شعراء الدعوة من المهاجرين ، ورمزاً ساطعاً من رموز الأنصار ، والناطق الأوحى باسمهم ، المتغني بمآثرهم وأمجادهم ، وحسن بلائهم في الإسلام ونصرة نبيه .

هؤلاء الأنصار تساموا بالخطوة لبدي النبي ﷺ ، وكادوا يتفوقون على المهاجرين في حبه والاستشهاد بين

الفساني وحين هاجز إليها الرسول سماها طيبة بدلاً من يشرب (من التريب وهو اللوم والتعير) فكانه كره ذلك .

(١) خطب الرسول في القرآن بأسماء وألقاب ونعوت كثيرة أهمها : النبي والرسول . يرجح الدكتور جواد علي ان كلمة نبي عبرانية Nabi وقد وردت اللفظة في اكثر من ٣٠٠ موضع في العهد القديم . تقابلها في السريانية كلمة : نبيا Nabia ونبو Nabio وتعني : الرأي أي الناظر والمنذر بوحي من الله قبل كونها في هذه اللفا . وكل رسول نبي . غير ان من الأنبياء من ليسوا رسلاً . والرسول عند المسلمين أقل عدداً من الأنبياء بكثير . للتفصيل انظر : تاريخ العرب في الاسلام د. جواد علي ط ١ دار الحداثة بيروت ١٩٨٣ .

ييديه ، مما ولد عندهم شعوراً بالعزة ، من جهة ، وبالأحقية في خلافته ، من جهة أخرى . حتى إذا توفي النبي ﷺ « اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة »^(١) بن كعب ، ودعت الخزرج إلى بيعة سعد بن عباد . وقالوا للمهاجرين : « منا أمير ومنكم أمير ، ضنا بالأمر أو بعضه فيهم ، كما يقول ابن خلدون »^(٢) لما كان من قيامهم بنصرة رسول الله ﷺ . لكن المهاجرين رفضوا . فذكّرهم الأنصار بوصية النبي ﷺ ، في آخر خطبة له ، حيث قال : « أوصيكم بالأنصار انهم كرشي »^(٣) وعييتي^(٤) وقد قضا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ؛ فأوصيكم بأن تحسنوا إلى محسنهم ، وتتجاوزوا عن مسيئهم . قال المهاجرون : لو كانت الإمارة (الخلافة) لكم ، لكانت ، ولم تكن الوصية . فحجّوهم ، فقام

(١) خبر سقيفة بني ساعدة : ملخصه : قال الطبري : اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليلامعوا سعد بن عباد . فبلغ ذلك أبا بكر فجاءه ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح . فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء الخ انظر خبر سعد أعلاه .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٦١١ طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت .

(٣) كَرَّش الرجل : صار له جيش بعد انفراده .

(٤) العيية : من الرجل : موضع سره .

زعيم الخزرج وبائع لأبي بكر ، واتبعه الناس « الخ^(١) .
 أما سعد بن عبادة الذي رشحته الأوس فقد تخلف عن
 البيعة ، ولحق بالشام ، إلى أن هلك . ويروي عنه ابن
 خلدون خبراً لا يخلو من طرافة وخيال مفاده أن الجن
 هم الذين أهلكوه . كما روى بيتاً لأحد شعرائهم يقول فيه :
 نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
 وضربناه بسهمين فلم نخطيء فؤاده . .

فتش عن اليهود ! :

وكان في المدينة ، عدا الأوس والخزرج فئة قليلة
 من اليهود من بني النضير ، وبني قريظة ، يتعاطى
 أكثرهم الزراعة ، ويرجع المؤرخ حتي في تاريخه
 المطول^(٢) أنهم يتحدثون « من القبائل العربية والآرامية
 التي تهودت » . كما يذكر أنهم هم الذين استبدلوا اسم
 « يثرب » القديم باسم جديد : « مدينا » وهو آرامي .
 ثم أعطاها المسلمون صفة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ
 إليها ، فصارت : المدينة المنورة ، وسارت هكذا في
 التاريخ .

(١) تاريخ العلامة ابن خلدون ج ٢ ص ٦١٢ .

(٢) تاريخ العرب المطول - حتي - ج ٢ ص ١٤٦ .

وحين جاء الرسول ﷺ المدينة مهاجرا ، دعاهم إلى الإسلام ، بعد أن أسلمت الأوس والخزرج ، فأبوا ذلك ، وراخوا يكيلون للنبي ﷺ ، ويؤازرون أحزاب المشركين يوم الخندق . .

وعدهم النبي ﷺ أنهم إذا أسلموا يأمنون على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ، فأبت بنو قريظة ، فَحَكَمَ الرسول ﷺ بقتلهم . كما كان قد أمر بني النضير بالجلء عن المدينة ، بعد أن رفضوا الدخول في الإسلام^(١) .

وقد كانت هاتان القبيلتان اليهوديتان ، بمواقفهما المخزية والمؤذية للإسلام في أوائل عهده ، مادة نخصة لشاعر النبي حسان ، فراح ، في حرية تامة وحماس ديني عارم ، يهجوهما ، مصوراً لؤمهما وعداءهما للإسلام وحقدهما التاريخي لكل دين غير دينهم ، كما سنذكر ذلك في حينه .

(١) وبعد أن فت في عضدهم رحلوا إلى خيبر وهو حصن في اليمن ، وبعضهم رحل إلى أذرعات وأريحا . للتفصيل : انظر كتاب : موكب النور في سيرة الرسول للاستاذ المرحوم محمد زكي يفيون ص ٢١٣ دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٧٠ .

صفاته ، ما ثبت منها وما لم يثبت : =====

سمته : كانت لحسان ناصية (أو غرة) قد سد لها بين عينيه . وعشرون مخضب بالحناء ولحية غير مخضبة . قال له ابنته عبد الرحمان : يا أبت : لِمَ تفعل هذا ؟ .

قال : لأكون كأني أسدٌ والغب في دم ! ومن عاهاته الجسدية أنه كان مقطوع الأكحل^(١) . ولعل هذا من أسباب قعوده عن المدافعة ، بالسيف ، فجعلوا منه مثلاً في الجبن ، وأنعدام الشجاعة . حتى قيل : أجبين من حسان^(٢) ..

===== أخلاقه : =====

أما سائر صفاته ، فكرم العنصر وطيب الأرومة ، ونبل النفس والوفاء ، والجود ، وسرعة الخاطر ، وخصوبة الذهن ، وقريحة في الشعر فياضة .

(١) الأكحل : عرق في وسط الدراع . قال ابن سيدة : يقال له عرق النساء في الفخذ ؛ وفي الظهر يقال له الأبهـر . ويسمى عرق الحياة ونهر البذن .

(٢) ستأقش مسألة جبن حان في حينه .

وله مع النجاشي قصة تدل على نبهه وسماحه
وجرائته :

هجا النجاشي الحارثي^(١) يوماً حسناً . فهجا
حسان قوم النجاشي بأبيات منها هذا البيت العائر :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم
جسم البغال وأحلام العصافير

ثم قال لقومه : اكتبوها صكوكاً وألقوها إلى صبيان
المكاتب : فما مرَّ بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو
عبد المدان حسان بالنجاشي مكبل اليدين ، وارغوا
ببابه ، فقال لابنته : ما هذا الذي أسمع ، قالت : ما
والله أدري . قال : إن أباك كان ذا شرارة في العرب
بلسانه . فانظري من طرفني . فإن كانت ابل تعوي
عواء الكلب توطأ على أذنانها كأنها تزاحف إلى ورائها
فهي ابلٌ مضرية : وإن كانت تبكي ، تشكي العذارى ،
تلوي أصابعها . . فهي ابل الحارث بن كعب ، وقد
أتيت بالعبد (يريد النجاشي) . قالت : يا أبت هي
والله ، كما وصفت . قال : نادي بأبيات « اطم » (أي
حصن) حسان ليأتيك قومك . فحضروا . فلم يبق أحد

(١) النجاشي الحارثي من بني الحارث بن كعب : ابن سلام ص ١٢٥ .

في عالية ولا سافلة ، إلا رمي بهم إلى فارع اطم حسان معهم السلام . فلما اجتمع الناس ، وُضع منبر ، ونزل في يده مخرصة . فقام عبد الله بن عبد المدان . فقال : يا ابن الفريعة ، جثناك بابن أخيك . فاحكم فيه برأيك . . فاتي بالنجاشي فأجلس بين يديه ، واعتذر القوم : فنأى ابته ، فقال : البقية من جائزة معاوية . فاتته بمائة دينار إلا دينارين . فقال (للنجاشي) : دونك هذه يا ابن اخي . . وحمله على بغلة امد الرحمان ، فقال له ابن المدان : يا ابن الفريعة ، كنا نفتخر على الناس بالعِظَم والطول فأفسدته علينا . قال كلا ألت القائل :

وقد كنا نقول إذا رأينا
لذي جسم يُعد ، وذو بيان
كانك أيها المُعْطَى بياناً
وجسماً ، من بني عبد المدان
فعادوا الى الافتخار بذلك^(١) .

وواضح ما في هذه الواقعة من آية النبل والسماح ،

(١) انظر كتاب : شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري . تحقيق البرقوقي - دار الأندلس - بيروت ١٩٨٣ .

حين تمكن من النجاشي الشاعر وشهر بقومه واخزاهم ،
فما كان منه ، بعد ان مَلَّ النجاشي بين يديه مقيداً ،
إلا أن عاد وذكر ابن المدان بقوله : وقد كنا نقول اذا
رأينا (البيتان) .

ليرد بذلك اعتبار قوم النجاشي ، وكرامتهم .

اما ما فيها من الجرأة الادبية فواضح ولا حاجة
لتبيانها . ناهيك « بشرارة لسانه » الأسود السليط ، على
حد تعبيره ، هجاء وتحدياً واستعلاء .
فأين جبن حسان ، إذن ، وما مدى صحته ؟ :

هل اغناه قلمه ولسانه عن زنده وسيفه ، ام سقط
دونهما في ساح البطولة والابداع ؟ ظهر لنا ، حتى
الآن ، ان حسان كان يتمتع بصفيتين واضحتين : شرة
اللسان في الهجاء ، والجرأة الادبية التي برزت في عدة
مواقف ، في الجاهلية والاسلام .

وهذه قصته مع النجاشي بن الحارث ، كما تقدم ،
وموقفه من الحارث بن هشام ، حين عيره بفراره يوم
بدر . قال يؤنب الحارث :

ان كنت كاذبة الذي حدثتني
فنجوت منحى الحارث بن هشام

ترك الأحبة ، لم يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة ولجام
ملأت به الفرجين فامتدت به
ونوى أحبته بشر مقام
وكان الحارث هذا قد فر يوم فتح مكة امام ضغط
المسلمين^(١) .

وقد ظلت جراته الأدبية مرافقة له حتى بعد ان
عمي وشاخ : روى صاحب العقد^(٢) عن جبلة بن
الايم بن ابي شمر الغساني لما اراد ان يُسلم على يد
الخليفة عمر بن الخطاب . . . ثم ارتداده السريع عن
الاسلام ، وتنصره . . . الى آخر الرواية التي جاء في
آخرها : « ثم التفت جبلة الى الجواري اللواتي عن
يمينه ، فقال : بالله اطربيني . فاندفعن يتغنن يخفقن
بعيدانهن ويقلن :

لله در عصابة نادمتهم
يومنا بجلق في الزمان الأول

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٨ وهي رواية مفصلة .

يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ^(١) عَلَيْهِمْ
 بَرْدِي^(٢) يَصْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ
 أَوْلَادَ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
 قَبْرَ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمَفْضَلِ
 يُغَشُّونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابِهِمْ
 لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمَقْبَلِ
 بِيضِ الْوُجُوهِ كَرِيمَةِ أَحْسَابِهِمْ
 شَمِ الْإِنْفِ ، مِنْ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ^(٣)

وهكذا يظهر من سياق الرواية أن حسان ، بالرغم
 من إسلامه ، لا يزال يكن لانسابه الغساسنة ،
 وبالأخص لجبله ، حباً لم ينكره ، حتى في حضرة
 الخليفة ، بل جاهر به ، وتباهى ، كما في الأبيات
 التالية :

إِنْ ابْنُ جَفْنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ
 لَمْ يَفْنُئْهُمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّومِ

(١) البريص : نهر بدمشق (لعله من روافد بردى) .

(٢) وفي مكان آخر : راحاً بدل بردى .

(٣) لا غرو فقد كان أكثر شعر حسان يتغنى به (كما جاء في العقد ج ٢

ص ٦) .

لم ينسني بالشام اذ هو ربها
 ملكاً ، ولا متنصراً بالروم
 يعطي الجزيل ، ولا يراه عنده
 إلا كبعض عطية المذموم
 فقال له رجل كان في مجلس عمر : اتذكر ملوكاً
 كفّرة ابادهم الله واغناهم ؟ قال : من الرجل ؟ قال :
 مُزني . قال : اما والله ، لولا سوابق قومك مع رسول
 الله لطوقتك طوق الحمامة .

ليس هذا دليلاً كافياً على جرأته الأدبية الصارخة ،
 رغم شيخوخته وعماه ، الى جانب وفائه واعترافه بجميل
 تلك «العصابة» التي نادى بها ، يوماً بخلق ، في بواكير
 الشباب ؟ . . .

وهذا هو يتحدث الخليفة عمر نفسه ، لكن بأدب .
 جاء في الاغانى^(١) : مر عمر بحسان وهو ينشد في
 مسجد رسول الله ﷺ . فانتهره عمر . فقال حسان : قد
 انشدت فيه من هو خير منك فانطلق عمر^(٢) . كما
 وردت الرواية بشكل آخر على لسان مسلم بن يسار .

(١) ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه .

قال : مر عمر بحسان ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ . فأخذ بأذنه ، وقال : ارغاء كرغاء البعير؟! فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لتعلم أنني كنت أنشدُ في هذا المسجد مَنْ هو خير منك ، فلا يُغَيِّر علي ! فصدقه عمر .

وواضح ان كل معاني البطولة الأدبية ورموزها في حسان - الانسان ، قد نطقت وتجسدت ، في مثل هذه المواقف ، فعوضت عن تلك البطولات المادية التي لم يكن من سبيل اليها عند حسان - الشخص لاسباب صحية وفيزيولوجية واضحة ، تجاهلها خصومه ، وحيانا كثيرة ، مجتمعه الذي كان لا يزال مجتمعا بدويا - فروسيا في عاداته وتقاليده . فلا يعقل ان يكون فيه رجل ، اي رجل ، لا يصاول ولا يطاول ولا يحارب مع المحاربين ، مهما كانت معاذيره وتعلاته . مجتمع يزهو بوجود علي وعمر وابي بكر وخالد واسامة وعلى رأسهم النبي ﷺ ، ومن قبلهم ، في الجاهلية ، امثال عمرو بن ود ، وعترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، وابن معدي كرب (صديق حسان) وعلى رأسهم ابو سفيان . . مجتمع ، كهذا ، كل قيمه ، وكل مفاخره وامجاده مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوتين المادية والمعنوية ،

الجسدية والعقلية ، فاذا افتقر الرجل الى القوة المادية او الجسدية خسر شيئاً كثيراً ووجد صعوبة كبرى في تحقيق اي نوع من انواع السيادة او الرياسة بالقوة المعنوية وحدها .

هكذا مجتمع حاول الاسلام جاهدا التخفيف من غلواء مثل تلك القيم حين دعا وناصر الى الوسطية في كل شيء . ولولا تدخل النبي ﷺ في مسألة قعود حسان عن الحرب لقضي عليه قضاء مبرما . .

لقد كان النبي بأمثال هذه المواقف الانسانية يرهص لمفاهيم جديدة في مجتمع جديد يكون فيه الدفاع عن القيم والعقائد بطولة سقراطية اهم بكثير من البطولات الجسدية او الحربية وحدها . ويكون فيه الموقف الجريء ، والكلمة الشجاعة امام الطغاة ينطق بها مجهورة رجل هزيل مضعوف الجسد ، اعمق تأثيرا من بطولات عنترية لا تدوم طويلا . والبطولة الحققة قد تكون احيانا بالصمت عندما لا يفيد النطق ، كما عند الرواقين ، وليس بتضريب أعناق الملوك ، وان تُرى لك الهبوات السود والعسكر المجر . . لا غير . .

اذن : لقد ذهب حسان ضحية مجتمعه ، ولم ينقذه

سوى لسانه ، في الهجاء ، وحسن دفاعه عن الاسلام
بالشعر ، واحتضان النبي له .

عقاب وثواب :

جاء في الاغاني^(١) : كان حسان بن ثابت يجلس
الى اطمه فارح ، وهو حصن متين ويجلس معه
اصحاب له ، ويضع لهم بساط يجلسون عليه . فقال
يوما ، وهو يرى كثرة من يأتي الى النبي من العرب
فيسلمون :

ارى الجلابيب^(١) قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة^(٢) أمسى بيضةً البلد^(٣)

(١) كان المشركون يسمون المهاجرين الذين اسلموا : الجلابيب ، او
يسمونهم : الخلايس : وهم الأخلاط من كل وجه ، والسفلة من
الناس . انظر : لسان العرب وتاج العروس في شرح القاموس ج ٥
ص ١٢ .

(٢) ابن الفريعة : حسان بن ثابت . وكان ينادى به .

(٣) العرب تقول للرجل : هو بيضة البلد ، يمدحونه بذلك ، وتقول
للاخر : هو بيضة البلد ، يلعنونه بذلك . والممدوح يراد به البيضة
التي يحتضنها الظليم ويقيها ، لأن فيها فرخة . والممدوم يراد به البيضة
المنبوذة بالعراء ، المردة ، التي لا حافظ لها ، ولا يدري لها أب ،
وهي تريكة الظليم . قال الرماني : إذا كانت النسبة الى مثل المدينة
ومكة والبصرة فيبيضة البلد مدح ، وإذا نسب إلى البلاد التي أهلها أهل
ضعة فيبيضة البلد ذم .

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ . فقال : من لي باصحاب البساط بفارع ؟ فقال صفوان بن المعطل : انا لك يا رسولَ الله منهم ، فخرج اليهم ، فاخترط سيفه ، فلما رآوه عرفوا الشر في وجهه ، ففروا ، وتبددوا ، وادرك حسانَ داخلا بيته فضربه فغلت إليته . قال : وبلغنا ان النبي عوضه ، بعد ان اسلم واعتذر ، حائطا^(١) فباعه من معاوية ، بعد ذلك ، بمالٍ كثير . فبناه معاوية قصرا ، وهو الذي يقال له : قصر الدارين . وقد قيل : إن صفوان بن المعطل انما ضرب حسانَ لما قاله فيه من الافك الخ^(٢) .

(١) الحائط : البستان . وفي كتاب التنبية للبكري : فاعطاه النبي عوضا ببرحاء ، وهي قصر بين حُدَيْلَة بالمدينة . كانت مالا لأبي طلحة بن سهل ، تصدق بها رسول الله ، فأعطاه حسان في ضربته .

(٢) حديث الإفك : هو الحديث الذي تخرصه قوم (من المهاجرين) على عائشة زوج النبي . وكان ذلك عقب غزوة غزاها النبي كان يصطحب فيها عائشة . فحدث انه أَمَرَ بالرحيل . وكانت عائشة منطلقة لبعض شأنها ، فأمر بهودجها فحمل على بعيره . وظن القوم أنها فيه . ولم تكن هناك . فلما رجعت عائشة إلى الهودج ألقت النبي وأصحابه قد ارتحلوا . فمكثت مكانها حتى عثر بها صفوان بن المعطل فاسترجع وأنساخ ناقته مرجعها الى المدينة . فارجف بها اناس ، ورموها بالافك ، وكان منهم حسان بن ثابت ، حتى نزلت الآية الكريمة ببرائة زوج النبي . اغاني ج ٤ حاشية الصفحة ١٥٦ .

وقد سمي هذا الحديث بحديث الافك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ ۝

كما عوض النبي حسان عن ضربة صفوان بن المعطل له بأن وهبه سيرين ، وهي أمة قبطية ، واخت مارية القبطية إحدى زوجات النبي وام ابراهيم ابن رسول الله ، فأولدها حسان ابنه عبد الرحمان . فتمت له قرابة نبوية ولا ارقى .. ألم تكن ، الشاعرية والحظوة والجرأة الأدبية كافيةً ، لتكون بديلا عن كل بطولة جسدية اكتفى بها اصحابها ..

ثم ذلك الرضا والمباركة يأتيانه من لدن النبي الكريم ، في كل مناسبة يُطْعَن فيها حسان ويتهَم في رجولته ، أليسا كافين لوضعه في صفوف ابطال المسلمين الذين دافعوا عن الدعوة وصاحب الدعوة ، دفاعا نضاليا فدائيا ، سواء بسيوفهم ام بالستهم ، ولعل وقع الألسنة في القلوب ، اشد واعمق من وقع الأُسنة . وحسان كما علمنا صاحب ذلك اللسان الذي وصفه صاحبه بأنه « يفلق الصخر » وانه شواظ من نار . مشحونا بكهربائية الايمان ، و« معلوماتية » ابي بكر وخبرته بأنساب المشركين ومثالبهم .

جاء في العقد^(١) : قال النبي لحسان : شَنْ

== جازوا بالافك عصبة منكم ﴿ سورة النور الآية ١٠ .

(١) العقد ج ٥ ص ٢٧٧ .

الخطارييف على بني عبد مناف . فوالله لشعرك اشد
عليهم من وقع السهام في غلس الظلام . وَتَحْفَظُ بَيْتِي
فيهم . قال حسان : والذي بعثك بالحق نبياً ، لأَسْلَنَّكَ
منهم مسلَّ الشعرة مِنَ الْعَجِين . ثم اخرج لسانه فضرب
به ارنبة أنفه ، وقال : والله يا رسول الله انه ليخيل لي
لو وضعت على حجر لفلقه ، او على شَعْرٍ لحلقه . فقال
النبي : ايد الله حسان ، في هجوه ، بروح القدس^(١) .
لست ادري كيف لا تستقيم لمثل هذا الانسان رجولة
اذا جمع كل ، صفات الرجولة ما عدا البطولة
الجسدية . هل قضى على الفكر العربي الا يفكر او
يزن الرجال الا بميزان القوة الجسدية وحدها ؟ هل
علينا ، اليوم ، ان نبقي قائلين مع السلفيين ، بجبن
حسان دون تبرير او تمحيص ، هل نسي باحثونا
المعاصرون مقاييس علم النفس الحديث ، ومعايير
الشخصية البطلة ، فراحوا يكررون ما قاله القدامى عن
حسان وجبن حسان . . حتى ضربوا به المثل ، فقالوا :
اجبن من حسان؟! ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث
الموضوعي ، والسبر العميق لمثل شخصية حسان ،

(١) أكد الصحابي أبو هريرة هذا القول في ما روى عن النبي ﷺ . انظر
اغاني ج ٤ ص ١٣٧ .

وحقيقة وضعه الصحي على الأقل^(١) .

مضى القدامى في سرد روايات جبن حسان ، لا يلوون على شيء ، ومضيئا ، نحن ، في اثرهم لا نلوي على شيء ، كأن فينا ، مثلهم ، نهماً للتشهير ، وطمس حقائق الأعلام ، والتعتيم على كفاءاتهم الأخرى التي كثيرا ما عوضت عما خسروه ، قسراً ، في ميادين البطولات المادية ، والعتريات . . إن ما روه عن جبنه ، وقعوده عن الحرب ، كان شيئا كثيرا حقا . ننقل منه ، هنا ، بعضه ، لا لتأكيد ، أو التشفي من صاحبه ، فليس بيننا ، وبين حسان ، والحمد لله ، سوى صلات واهية من انسانية وقومية . . بل لتبيان هزاله وعدم صحته ، ورفع الظلم عن شاعر كل ذنبه انه كان مقطوع الاكل لا يقوى على حمل السيف والقتال .

ولسنا هنا للدفاع عن بطولة حسان غير الموجودة ، او لاثبات عكس ما اتهم به . فنحن لا يهمنا ذلك اطلاقا ، بل كل ما يهمنا اظهار زيف تلك الروايات التي لفقت عن جبن حسان ، وتهافت حججها ، وانقطاع

(١) كان حسان مقطوع الاكل كما علمنا وهو عرق في وسط اللراج . كما تؤكد ذلك روايات الثقة . فكيف يحمل سيفاً ؟ وإذا حمله أن له أن يحارب ويثبت في المعارك . .

اسانيدها ، ومدى ما لحق بالتراث واعلامه من تزوير وتحريف .

من هذه الروايات :

جاء في الكامل لابن الاثير^(١) عن جبن حسان ، في واقعة الخندق (الاحزاب) : « وكانت صفية ، عمة النبي ، في فارع^(٢) وكان حسان فيه مع النساء ، لأنه كان جباناً . . (ولم يقل : مريضاً أو عاجزاً عن القتال كما هو الواقع) قالت : فأتانا آتٍ من اليهود . فقلت لحسان : هذا اليهودي يطوف بنا ، ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا . فانزل اليه فاقتله . فقال : والله ما انا بصاحب هذا ، قالت : فاخذت عمودا ، ونزلت اليه فقتلته (. . .) ثم رجعت فقلت لحسان : انزل اليه فخذ سَلْبَهُ . فانه يمنعني منه انه رجل . فقال : والله ما لي بِسَلْبِهِ مِنْ حاجة . الخ . .

على اننا لا ننكر تولد حالة تشبه حالة الجبن لدى اصحاب العاهات الجسدية ، يسميها علماء النفس : الاسترخاء ، او الخوف او القعود عن تقحم الصعاب .

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) فارع : اسم حصن لحسان .

حسان يجبن حتى عن انتزاع اسللاب اليهودي بعد قتله .. هذا ، ان صحت الرواية ، ليس جنباً على كل حال ، بل استرخاء او خوف وقعود قسري عن التقحم .. وهي حالة يبررها اليوم علماء النفس التجريبيون ، ويقولون انها تخلق لدى صاحبها شعوراً بالدونية *Sentiment de moindre valeur* يسعى معه أمثال حسان جاهدين ، الى اجترار امور غير عادية ، او التطلع دائماً الى العلاء *Sublimation* لتغذية ذلك الشعور او التعويض عنه . وهذا ما فعله شاعرنا حين راح يحقق ، منذ اصاب ، امجاده الشعرية ويؤكد ذاتيته ، كشاعر اوحدها لئلا ينصار ولسائر اهل اليمن ، ثم برز ، بعد اسمه ، كشاعر للنبي يكاد يكون اوحدها ايضا ، مؤيداً « بروح القدس » على حد تعبير النبي نفسه ، مما زاده امتلاء بنفسه واستعلاء الى درجة انه تحدى حتى الخليفة عمر ، وكبار الصحابة ، وابطال المسلمين^(١) ، متسلحاً بحماية النبي له ، وكونه شاعر

(١) يقول ادلر : اشهر علماء النفس الألمان : ان شعور الانسان بالدونية اي بأنه دون غيره ، من اعظم الدوافع الى العمل وبذل الجهد ، وان الغريزة المتسلطة هي غريزة السيطرة والتطلع الى العلو . وعندما يعجز الشخص عن إثبات ذاته واكتساب النفوذ الاجتماعي الذي يصبو اليه ، تنظر لهيئته الجسمانية خاصة ، كقصر القامة ، او قبح الهيئة ، او

الانصار ، وسائر اهل المَدَر ، على حد تعبير ابي عبيدة ، حيث يقول^(١) : اتفقت العرب على ان اشعر اهل المَدَر اهل يشرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وعلى ان اشعر اهل يشرب حسان بن ثابت ، وانه شاعر اهل اليمن في الاسلام .

وهكذا تولد عند شاعرنا « المعاق » « فهم » تام « لحالته » فواجه سوء فهم الكثيرين لهذه الحالة ، بالصراحة التامة ، كما جرى له مع صفية عمة النبي ، وبالقعود في اطمه فارح ، مع النبساء يوم الخندق . فقد تقمصت ، في لاوعيه ، تلك الحالة بحيث استطاع ان يتمثلها^(٢) ويهضمها ، فتجري معه في دمه وكيانه وشعوره ، ولا يرى فيها بأساً . .

الاحديداب ، او شلل في الاطراف (كما عند حسان) او ضعف في النظر ، او عي في اللسان الخ فانه يلجأ الى سبل مختلفة من التعويض ، قد تؤدي به احياناً الى التفوق والقيام باعمال جليلة ، وحياناً اخرى الى اصطناع سلوك شاذ كالقسوة (كما في هجاء حسان) والاستبداد في ضعاف البنية الخ . والادعاء الكاذب والصلف (شيمه حسان تماماً عندما راح في أكثر مفاخره يتغنى بالقوة والبطولة في معارك لم يخضها .

(١) اغاني ج ٤ ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) من التمثل في التعبير السيكولوجي Assimilation .

وهذا ما يؤكد علماء النفس بقول بعضهم : « انه كلما نجح المرء في ان يُخرج الى ضوء العقل ، كل ما هو مختبئ في هاشم الشعور ، وان يركزه في بؤرة الشعور ، اصبح قادراً على ان يملك زمام نفسه ، وان يحقق في شخصيته المثل الأعلى الذي نادى به سقراط : اعرف نفسك »^(١) وحسان عرف نفسه حين اخرج الى ضوء العقل « كل ما هو مختبئ في هاشم مشاعره ، من احساس بالخوف والنقص في كمال جسده ، فتعامل مع نفسه ، ومع الآخرين ، على انه انسان سوي ، وصريح ، وجريء ، ومميز ، وانه يشغل ، بعيداً عن بطولاتهم المادية ، حيزاً اجتماعياً واسلامياً وفنياً مرموقاً هو البطولة الحقة عينها . وحسبه بطولة ، انه جاهد في سبيل ذلك جهاداً مريراً . . وفاز . .

قلت : انني حين انفي تهمة الجبن عن حسان ، لا اود ان اضعه بين الشجعان ، فهذا امر لا يهمننا ، نحن ، ولا يهمه هو ، كما لا يهم المعجبين بشعره ، او غير المعجبين .

(١) انظر كتاب مبادئ علم النفس العام ، د. يوسف مراد دار المعارف بمصر ط ٧ ص ١٨٢ .

فنحن قد نكره في ابن الرومي ، مثلاً ، ترده ،
وخوفه ، ووسواسه ، لكننا لا نملك إلا أن نهتف من
اعماقنا لروائع وصفياته ، ودقة تصويره لخلجاته ،
ومرثياته ، وابداعه في السخرية وتجسيد عيوب
المشوهين ، والتافهين . .

ونحن قد نكره ، كذلك ، في حسان ، اشياء
كثيرة ، الا اننا لا نملك الا نعجب به كشاعر (جاهلي
خاصة) في تصويره لمزايا ملوك الغساسنة وتلك الحياة
الرخية التي عاشها في اكنافهم . وهذا الهتاف الحار
لذكرياتها : لله در عصابة نادمتهم . . .

وجبن حسان كان ، كما سنرى ، فرية ، لا أساس
لها من الصحة . . ومن الظلم ان يستمر هذا الجبن
صفة لازمة من لوازم حسان ، يأخذها المتأخر عن
المتقدم على انها حقيقة . لا مرء فيها ، ولا
اصطناع . . فانبرينا ، في هذه الدراسة ، لنرفع هذا
الحيف عن شاعر ، كل عيبه ، انه كان مريضاً ، مقطوع
الأكل ، وفي ذراعه بالذات . . وليس جباناً على
الاطلاق . وعزاء هذا الانسان ، انه ليس اول ولا آخر
من افترى عليه الرواة الملققون الذين اسأوا ، من
حيث يشعرون أو لا يشعرون ، الى التراث واعلامه ،

فشوهوا تاريخ الادب ، والفلسفة والدين بما اختلفوا ،
ولفقوا .. غير انه لا يسعنا ، هنا ، ان نفيض في
ذلك ، كما فعل أحد المحققين المعاصرين^(١)
حيث عقد فصلاً كاملاً ، ملأ من كتابه نيفاً وستين
صفحة ؛ اظهر فيه زيف الكثير من الروايات ، وتلفيق
الرواة سواء في تاريخ الادب العربي ، وسيرة اعلامه ،
او في الحديث النبوي ، وما دس عليه من نحل ،
وتشويه ، واختلاق : متتهياً الى تهمة الجبن التي
الصبقت بحسان ظلماً وبهتاناً ، مرجحاً بطلانها ، بعد
مقارنات وتحقيقات قام بها خَلَّلَ النصوص الواردة في
المراجع المختلفة ، معتمداً منهجية علمية افتقر اليها
القدامى ، وخانت اكثر المعاصرين ..

اليك ، بايجاز ، اهم اسباب الشك في صحة
التهمة :

أولاً : ان قعود حسان عن المشاركة في حروب
المسلمين ، وغزوات النبي لا يمكن ان يكون بسبب
الجبن . فالاسلام لا يعترف بالجبن في الرجال ، ولا

(١) انظر: نظرات جديدة في تاريخ الادب للدكتور أحمد لؤسانى الجامعة
الليمانية ١٩٧١ - بيروت .

يجيز للجبناء مثل هذا القعود ، لكي يسمح لحسان وغير حسان الا يشاركوا في قتال المشركين ؟ فلا استثناء في هذا المجال الا للعميان ، والعرج ، والمرضى ، كما تنص الآية الكريمة في سورة الفتح^(١) . حتى الشيخوخة ، مع سلامة البنية ليست مانعاً في المفهوم الاسلامي الجهادي . وحسان كان فعلاً مريضاً اي مقطوع الاكل في الذراع الضاربة . وهو سبب وجيه مقروناً بتقدم حسان في السن^(٢) .

ثانياً : كان لحسان خصوم في الجاهلية والاسلام ، وشعراء ألداء يهيجونه ويهجومهم بأقذع الصفات . ومع هذا لم نجد أحداً منهم تناوله في جنبه وخوفه وتقاعسه . مع ان هذا الجبن لو كان صحيحاً لوفر لخصومه مادة دسمة للطعن والتجريح . كما فعل جرير ، مثلاً ، مع الفرزدق ، حين هجاه في وَهْن ساعده ، وضرباته الطائشة . وهذا ديوان حسان بين ايدينا ، وكثير من المراجع الأدبية كالاغاني ، والكامل ،

(١) الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ، وَمَنْ يَطْعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . وَمَنْ يَتَوَلَّ يَلْبَسْ عَذَاباً أَلِيماً ۝ ﴾ .

(٢) كان حسان قد تجاوز الستين من عمره أيام الرسول .

ومروج الذهب ، والشعر والشعراء وغيرها ، فاننا لا نجد فيها شاعراً ممن هجوا حسان ، يوجه إليه تهمة الجبن . تناولوه في كل شيء ما عدا تهمة الجبن ، وهم من هم ضراوة في مصاولة حسان^(١) ومقارعتة الحجة بالحجة والتهمة بأقسى منها . وهذا الأخطل ينعت « بالجحش » حيث يقول :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته
كالجحش بين حمارة وحمار

ولعمري ان حسان كان يفضل ، الف مرة ، ان ينعت بالجبن على ان ينعت بأنه جحش بين حمارة وحمار .. او ان يطعن في نسبه ودينه . واخلاصه لهذا الدين ، على ان تنزع عنه صفة الانسان ..

سؤالاً : قصة صفية عمة النبي ، وقتلها ذلك اليهودي المتسلل (الى فارغ) بعمود على رأسه ، او بين كتفيه .. وامتناع حسان ، لجبنه ، عن البروز له وسلبه ، قصة مضعوفة مقطوعة الاسناد ، مشكوك في صحتها من اساسها الى رأسها . قال محقق قديم هو

(١) امثال : قيس بن الحطيم ، وعبد الله بن الزبير ، وضرار بن الخطاب ، والنجاشي بن الحارث وعمرو بن العاص ، والاخطل .

السهيلي في كتابه : الروض الأنف ، عن القصة ايها :
 « ومجمل هذا الحديث عن الناس ان حسان كان
 جباناً ، شديد الجبن ، وقد رَفَعَ هذا بعض العلماء
 وانكره ، وذلك انه حديث منقطع الاسناد ، ولو صح
 هذا لهجي به حسان الخ » .

رابعاً : اما قول بعضهم ، وهو ابن السراج بأن
 « سكوت الشعراء عن تعبيره بذلك (اي الجبن) هو من
 اعلام ^(١) النبوة ، لأنه شاعره ﷺ » فهو قول متهافت
 وساذج « لأن كثيرين ممن خاصموا حسان وكانوا أهلاً
 لتعبيره ، لم يكونوا يؤمنون بنبوة رسول الله ، وكانوا
 يدمون حتى النبي نفسه » ^(٢) وقد رأينا ان من المسلمين
 من لم يكن يحترم في حسان حظوته من النبي ، او
 على احسن تقدير يتناساها ، كما فعل الخليفة عمر حين
 أخذ بأذن الشاعر عندما سمعه ينشد شعراً في مسجد
 رسول الله صائحاً به « ارغاء كرغاء البعير » ١٩ ولولا جرأة
 حسان في جوابه المشهور : « اني والله كنت أنشد فيه
 من هو خير منك ، لهزىء بهذا حسان ، وأخزي .

(١) اعلام اوعلامات : معجزات .

(٢) نظرات جديدة في تاريخ الادب ط ١ ص ٩٣ ، الجامعة اللبنانية - بيروت

وضربة صفوان له بالسيف حتى فُلّقَ إليته ، ثأراً منه على ما تأوله عليه الشاعر في حديث الإفك . كل هذه المواقف من الشاعر ، لا تشير الى ادنى احترام له ، او تقدير لحفظوته من النبي ، وبالتالي ، فلا معجزة ، او شبه معجزة لجمت هؤلاء الخصوم عن ايداء الشاعر ، وسحرتهم او اذهلتهم عن التعرض له ، ووصمه بأية آفة او نقيصلة : كما ذهب ابن السراج في قوله الى « ان سكوت الشعراء عن تعيينه بالجبن هو من اعلام النبوة »^١.

يذكر المحقق شوقي ضيف : « ان النبي كان من فرط وثوقه بحسان واشاره له يرفع ازواجه الى اطمه (اطم حسان) ، حين يخرج لحرب اعدائه »^(١) . فما معنى هذا بالنسبة الى جبن حسان ؟ معناه ان النبي ، وهو ادرى الناس بحسان ، لو كان يعرف انه جبان لما إئتمنه على نسائه في غيابه . . إذ ليس ضرورياً أن يكون الجبان في الحروب جباناً مع النساء ! والعاهة النفسية تجر عاهات ، وتخلق في الانسان آفات أفلها الكذب والخيانة . فالجبن يُعرف عند علماء النفس

(١) . انظر كتاب : العصر الاسلامي د. شوقي ضيف ص ٧٨ دار المعارف بمصر ط ١ ، ١٩٦٣ .

بأنه : « هروب من المواجهة القاسية » . وعامة الكذب والخيانة التي يخلفها الجبن هي أيضاً : هروب من المواجهة وتزوير الحق والحقيقة . . والنبي الكريم من اكبر علماء النفس في عصره : فِرَاسَة ، وسبراً ، وحذراً . . ثم إن الأمين يأتمن الأمين ، لا الجبان . . ويثق بالشجاع لا الرعديد . .

خامساً : صحيح أن حسان كان يتضور التيعاً وألماً ، حين يخاطب نفسه ، عَبَّرَ صاحِبته « شعْثاء » في مثل قوله :

لعمري ابيك الخير يا « شعْثُ » مانبا
على لساني في الحروب ، ولا يدي
لكن هذا دفاع انسان نبيل تجنى عليه اللؤماء ، ونعتوه ، بما هو أقسى من الجبن ، وربما اتهموه بالنسوية ، اذا صح التعبير ، وبالتخنث ، والجلوس مع النساء في اطمه ، متجاهلين اسباب ذلك من مرض او نقص في الذراع ، وافتقار الى وسائل البطش والقتال . فعقدوه ، حتى خالجه شعور دائم بالنقص والضعف والهوان ، فتصدى له بالنفي والتعالي حيناً ، والمكابرة والادعاء حيناً آخر ، خاصة امام حبيته « شعْث » أو

« شعناء » .. وامام نفسه الأحب . وطالما تصاعدت من
سويدائه ، وعلى أسلات لسانه السليط ، زفرات حرى ،
في شكل هجاء هجومي مرير : ما أبالي ، أنب بالحزن
تيس أم لحاني . ، بظهر غيب ، لثيم .. أو في شكل
انكفاء على الذات ، واستسلام حزين ، هو السعادة كل
السعادة ، في نظره ، حيث يتطهر بالبراءة ، والبعد عن
الاذى :

وإن امرءاً يمسي ويصبح سالماً
من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد^(١)

حينته الى عشراء الصبا (في الجاهلية) =

روى صاحب العقد^(٢) عن جبلة بن الأيهم بن أبي
شمر الغساني ، لما أراد أن يسلم على يد الخليفة
عمر بن الخطاب ثم ما كان من أمر طوافه في الكعبة ،
واصطدامه بأحد الاعلاج الذي وطئ ثوبه ... ثم
ارتداده عن الاسلام وتنصره .. الى آخر الرواية التي
جاء في آخرها : « ثم التفت جبلة ، (في قصره
بالقسطنطينية) الى الجواري اللواتي عن يمينه فقال :

(١) نظرات جديدة ص ٩٦ .

(٢) العقد ج ٢ ص ٥٨٥ .

بالله اطربنني ، فاندفعن يتغنين ويقلن :

لله در عصابة ناداتهم
يوماً بخلق في الزمان الأول

ويمضين في ترتيل قصيدة حسان :

يسقون درياق الرحيق ولم تكن
تدعي ولائهم لنقض الحنظل
فلبثت ازماناً طوالاً فيهم
ثم ادركت ، كأنني لم أفعل
ولقد شربت الخمر في حانوتها
صهباء ، صافية ، كطعم الفلفل
يسعى علي بكسأها متنظف
فيعلني منها ، ولو لم انهل
ان التي ناولتني فرددتها
قُتِلْتُ ، قُتِلْتُ ، فهاتها لم تُقْتَلِ . .

وتتم لِجَبَلَة نشوتان : نشوة السكر ونشوة الشعر .
وحين صحا منهما أراد ان يُسلم ولكن . . وها هو ،
حسان ، بالرغم من اسلامه . لا يزال يكن لعشراء الصبا
ولذات العمر الأول حباً لم تمحه الأيام ، وحيناً ما فتىء
يخالجه وينعشه . يروى انه كان ماراً ليلاً بازاء قبر

صديقه القديم الحميم ربيعة بن مكرم^(١) ، فاذا بناقته
تنفر من حجارة القبر ، فتثير فيه هذه الحركة ذكريات
هو دفين لذلك النديم الأغر والفارس المُعلّم الراقِد
تحت الثرى ؛ ينتهر ناقتَه وكأنه يوبخها على نفورها من
تلك الحجارة الحرة الكريمة . قائلًا :

نفرتُ قلوْصي من حجارِ حُرّة
نصبت على طَلْق الـيدين وهوبِ
لا تنفري يا ناق منه فإنه
شَرِيب خمر ، مُسْعِرُ لحروبِ
لولا السفار وطولُ قفر مَهْمِهِ
لتركها تحبو على عرقوبِ

حقاً إن الحنين إذا تغلغل في كيان الشاعر،
انهمر ، عند اول إشارة ، وأدنى إشارة ، وقوة التمثل
والمشاركة تبرز في هذا الحوار الحميم يعقده الشاعر
بين نفسه وناقته وقبر صديقه وما تنطوي عليه « حجارتَه
الحرة » من ذات كريمة لبطل كريم أقل شمائله انه :

(١) هو ربيعة بن مكرم من بني فراس ... بن كنانة ، وكان يقر على قبره
في الجاهلية ، ولم يقر على قبر أحد غيره .العقد ج ١ ص ١١٦ .

شريب خمر مسعرٌ لحروب^(١) . فهي حجارة تندى
بالخمرة ، وتلظى بنار الشرف والكرامة . . وتجمع
النقيضين وتتأبى على العدمين . . وينهض البطل الميت
حياً رغم البلى . . ليعانق حنين الأوفياء . .

ويترث حسان ليتلو على الضريح - الصديق صلاة
غفران واعتذار ، ويسكب دمع وفاء وثناء . بهذه الأبيات
الآيات التي ، ان دلت على شيء فوق هذا ، فانما تدل
على ان العقيدة الجديدة ، مهما سمت وترسخت في
كيان الشاعر - الانسان ، لا يمكنها ان تمحو فيه كياناً
آخر أصيلاً ، وقيماً أخرى جلية ، وذكرى شباب عاشه
بكل أحاسيسه الأولى ، وبواكير صبواته ، في ذلك
الزمان الاول الذي نادم فيه الأقيال والأبطال ، وارتشف
معهم رحيق الصبا ، ورضاب الجمال . .

ولعل اسلام امثال حسان من الأوفياء ، هو عندي
أروع وأثبت من اسلام غيره من الذين خلت قلوبهم من
ثمالات الهوى والحب والحنين والوفاء . .

قد يداني حسانَ فارسٌ محب ، وبطل عاشق ،

(١) شَرِيبُ خمر مُسْعِرٌ لحروب : يختصر الشاعر بهاتين الصفتين أقوى
وأغلى صفات البطولة والسيادة في الجاهلية .

لكن يتدنى عنه ، حتماً ، فارس بلا حب ، وبطل بلا
عشق ، ومؤمن بلا قلب . . وشاعر بلا ذكريات . .

حسان الجاهلي :

مع آل جفنة ، أقاربه ، الفساسبنة^(١) .

وكانت إمارتهم في الشام حاجزاً بين أسيادها
الرومان ، وخلفائهم البيزنطيين ، وبين بدو الصحراء ،
ترد غاراتهم ، وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ،
ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة في الحيرة
بالعراق . وهكذا نشأت إمارتان عربيتان متصارعتان ،
يؤمّن ملوكهما وامراؤهما مصالح القياصرة من جهة ،
والأكاسرة من جهة أخرى . كما نشأت في شمالي نجد
إمارة ثالثة ، هي إمارة كندة دانت بالولاء لملوك اليمن
الحميريين .

(١) جاء في تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨١ ما يلي : قال المسمودي :
« سار عمرو مزيباء حتى اذا كان بالشرأة بمكة ، اقام هنالك بنو
نصر بن الازد ، وعمران الكاهن ، وعلي بن حارثة بن عمرو بالازد ،
حتى نزلوا بلاد الأشعرين ، وعك ، على ماء يقال له غسان بين
واديين يقال لهما زبيد وزُمع ، فشربوا من ذلك الماء فسموا غسان .
وكانت بينهم وبين مَعَدَّ حروب ، الى ان ظفرت بهم مَعَدُّ ، فاخرجوهم
الى الشرأة ، وهو جبل الازد وهم على تخوم الشام ، ما بينه وبين
الجبال يلي أعمال دمشق والاردن » .

وآل حفنة أو الغساسنة ، هم أيضاً من أصل يمني ،
 نزحوا مع مَنْ نزح من عرب الجنوب إلى الشمال ،
 كقبائل جذام ، وعاملة ، وكلب ، وقضاة . اما جفنة ،
 ومنه الملوك ، فهو ابن عمرو بن عامر مزيقياء ، واخواه
 الحارث ، وثعلبة وهو العنقا (لطول عنقه) احد أجداد
 الشاعر حسان ، فليس مستغرباً ، إذن ، أن يمدحهم
 ويتغنى بمآثرهم ، وسطولاتهم . ولا سيما صديقه
 جبلة بن الأيهم الذي خصه شاعرنا بمدائح معروفة .
 وظل الاثنان على حب واعجاب متبادلين حتى بعد
 اسلام حسان وتنصر جبلة^(١) .

وملوك غسان على التوالي هم : الحارث بن عمرو
 مزيقياء ، ثم الحارث بن ثعلبة بن جفنة ، وهو ابن مارية
 ذات القرطين ، وقد ذكرها حسان في شعره ، ثم
 النعمان بن الحارث بن جفنة ، وأبو شمر بن الحارث ،
 واخواه المنذران الحارث ، وجبلة ، ويعدهما عوف بن
 ابي شمر ، وفي عهده كانت بعثة الرسول . وقد كتب
 النبي الى الأحياء من هؤلاء الملوك يدعوهم الى
 الاسلام ، فلم يسلموا ما عدا جبلة بن الأيهم الذي

(١) انظر قصة جبلة مع الخليفة عمر بن الخطاب في مقطع سابق من هذا
 الكتاب .

اسلم ثم ارتد وتنصر ، وهو آخر ملوك غسان^(١) وجفنة هو الذي بنى جلفى او جلولاء قرب دمشق ، وهي ليست دمشق كما توهم الكثيرون .

وتعد أيام الحارث بن جبلة « ازهى أيام »مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم في « بطرا » الى الرصافة ، شمالي تدمر^(٢) . اما ابنا الحارث الأصغر : النعمان وعمرو فقد كانت لهما جيوش جرارة تجوب نجداً والصحراء الشمالية ، وتدين لهما القبائل العربية الأخرى بالطاعة . وعمرو هذا هو الذي كثيراً ما خصه شاعرنا بمدائح . ومنها المدحية الشهيرة التي ذكرنا بعض أبياتها ، ومطلعها :

اسألت اسمَ الدار، ام لم تسألِ
بين الجوابي^(٣) فالبضيع فحوملِ
إلى أن يقول :

(١) مجموع ملوك غسان أحد عشر ، على رواية المسعودي . واثنتان وثلاثون على رواية ابن سعيد في تواريخ الأمم . وقد تحدر منهم « الشركس » بعد نزوحهم إلى القسطنطينية .

(٢) وهي غير رصافة بغداد بالطبع .

(٣) جمع لجابية الجولان ، ما بين دمشق الى الاردن .

لله در عصابة نامتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

ويبدو ، من اخبارهم ، ان الغساسنة لم يكونوا
اجلافاً ، على بداوتهم ، وسكناهم الوبر ، بل كانوا
ذوي نعمة ويسر . وصف شاعرنا مجلساً من مجالس
جَبَلَةَ بن الأيهم . فقال : « لقد رأيت عَشَرَ قِيان : خمس
روميات يغنين الرومية بالبرابط . وخمس يغنين غناء اهل
الحيرة . وكان يفد اليه مَنْ يُغْنِيهِ مِنَ العرب من مكة
وغيرها . وكان اذا جلس للشرب فرش تحته الآس
والياسمين ، واصناف الرياحين ، وضرب له العنبر
والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتي بالمسك
الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندي إن
كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بُطْنَ بالثلج . واتي هو
 واصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو واصحابه بها في
الصيف ، وفي الشتاء الغراء الفَنَك ، وما اشبهه ، ولا
والله ما جلست معه قط إلا خَلَعَ عليَّ ثيابه التي عليه
في ذلك اليوم^(١) .

شاب في مقتبل العمر ، وإبان الطموح الى الشهرة

(١) اغاني (سامي) ١٤/١٦ .

والمجد الأدبي ، لا بد الا ان ينتجع مثل هذه
المنتجعات ، تخفيفاً من جفاف صحرائه ، وفراغ
شبابه . فكيف اذا كان المنتجع غسانياً وعند انسابه آل
جفنة بالذات ؟ .

إذن كان سهلاً عليه الاتصال بهؤلاء الانسباء
والعيش معهم ، كما كان صادقاً الصديق كله في
مدحهم ، وتصوير حياتهم في خشونتها ، وفي لينها ،
وحروبهم في كرها وفرها ، وكان اكثرها كراً موفقاً
تَوَجَّوه أخيراً في يوم حليلة ، الذي انتصروا فيه على
المناذرة انتصاراً كاسحاً . حتى ذهب مثلاً ، فقيب : وما
يَوْم حليلة بسر^(١) . تذكر سيرته انه كان يمكث في
المدينة سنة ، وسنة عند ملوك غسان يصف ايامهم
ويتغنى بمآثرهم وينال عطاياهم . ولا غرو ان يوفق في
ذلك لأنه كان جزءاً لا يتجزأ من ذلك الجو الملكي
العابق بالطيب من كل نوع ، وبالاربيحات من كل
لون . .

(١) وحليمة : هي بنت الحارث بن أبي شمر الغساني . وجه أبوها جيشاً
الى المنذر بن ماء السماء . فأخرجت حليلة لهم مركناً فطبيتهم . ويوم
حليلة أحد ايام العرب المشهورة ، وهو يوم التقى المنذر الأكبر
والحارث الأكبر الغساني . شرح الديوان ص ٢٠١ (البرقوقي) .

مداعبات :

وكثيراً ما كان الحارث الغساني يداعبه ليرى مدى صدقه في صحبته لهم . قال له مرة : يا ابن الفريعة ؛ لقد نبئت انك تفضل النعمان (بن المنذر اللخمي) عليّ . فقال : وكيف افضله عليك . فوالله لقفاك احسن من وجهه ، ولأملك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه . ولحرمائك انفع من ندهاء ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثمادك اشرع من غديره . ولكرسيك ارفع من سريره ، ولجدولك اغور من بحرته ، وليومك اطول من شهره ، ولشهرك أمداً من حوله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك اورى من زنده ، ولجندك اعز من جنده ، وانك من غسان ، وانه من لخم . فكيف افضله عليك واعدله بك ؟ . فقال : يا ابن الفريعة ، هذا لا يُسمع الا في الشعر فانشد :

نبئت أن أبا منذر

يساميك للحارث الأصغر

قفاك احسن من وجهه

وامك خير من المنذر

ويسرى يديك على عسرها

كيمنى يديه على المعسر

وشتان بينكما في الندى
وفي البأس والخير والمنظر^(١)
وتراه حين يفتخر بنسبه يمدح الغساسنة أيضاً .
ذلك لأنه منهم وفيهم :

ألم تَرْنَا أولَادَ عمرو بنِ عامرٍ
لنا شرف يعلو على كل مرتقي^(٢)
رسا في قرار الأرض، ثم سمت له
فروعٌ تسامي كلُّ نجمٍ محلق
ملوك وإبناء الملوك كأنما
سواري نجوم طالعَاتٍ بمشرق

ولا ينفك حسان مربوط الكيان بمن كانوا هم
الكيان ، مهما بعدت الأيام ، وشط المزار ، فكأنه لا
يجد نفسه ، ولا يتحسس ذاته إلا بهم ، رغم بعده
عنهم . وهذه « شعناء » تذكره بهم فيتضاعف حينه ،
فينشد :

يا لقيوم ، هل يقتل المرء مثلي
واهنُ البطش والعظامِ سُؤوم^(٣)

(١) الخير : الكرم وقيل الشرف .

(٢) عمرو بن عامر هو : مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة .

(٣) يقصد صاحبه شعناء .

همها العطر ، والفراش ويعلو
 ها لجين ، ولؤلؤ منظوم
 لو يدب الحولي من وَلَدِ الدَّ
 ر ، عليها ، لأندبتها الكلام
 لم تفقها شمسُ النهار بشيء
 غير ان الشبابَ ليس يدومُ
 إن خالي خطيبُ جابيةِ الجو
 لأن ، عند النعمان ، حيث يقوم^(١)
 وأبي في «سميحة»^(٢) القائل الفا
 صل ، يومَ التفت عليه الخصوم
 وأنا الصقر ، عند باب أبي سلمى
 يومَ نعمانُ في الكبولِ مقيم^(٣)
 ويذهب في هذه الانشودة كلُّ مذهب في الفخر

(١) اراد بالنعمان بني جفنة أو الفساسة . خاله : سلمة بن مخلد .
 الجابية : الحوض الكبير . الجولان : من أعمال دمشق على طريق
 مصر .

(٢) سميحة : بئر بالمدينة ، كانت للأوس والخزرج ، تحاكموا عندها الى
 جده المنذر بن حزام .

(٣) ابن سلمى : النعمان بن المنذر اللخمي . نعمان : هو ابن مالك بن
 نوفل بن عوف ، وكان حبسه النعمان بن المنذر ، فتوسط له حسان ،
 واطلقه .

والانتساب والمباهلة ، والتعريض بابن الزبيري^(١) ،
وتسليط الأضواء على ذاته ومكانته ، وعظم شأن قومه
من بني عبد الدار بن قصي ؛ رغم انه الصقر (السيد)
عند باب النعمان بن المنذر . لكنه عند باب شعثاء عبد
أسير لحاظها وعطرها . يقتله غنجه ويذيه جمالها ،
وتغمره أضواء فتنتها ، ويصبيه ريعان شبابها . . لكن ،
مهلاً ، يا شعثاء ، أيتها الجميلة المدلة : تأكدي أنك
بصدودك وهجرك تسيئين الى هذا الجمال ، حين
تستفيقين ذات مساء فإذا بهذا الجمال وقند ذوى بين
يدي الزمن :

(١) هجا حسان ابن الزبيري ، قبل ان يسلم هذا الأخير ، طبعاً ، وهو عبد
الله بن الزبيري بن فيس بن عدي بن سعد القرشي . كان من أشد
شعراء قريش على النبي وأصحابه . وكان من أشعر الناس على رأي
ابن سلام . اسلم عام الفتح بعد ان هرب الى نجران فرماه حسان
بيت واحد كان كافياً ليمود من نجران ويسلم على يد النبي ويعتذر إليه
فيقبل النبي عذره . هذا البيت هو :
لا تَعُدْ مَنْ رَجُلًا أَحْلَكَ بَغْضَهُ

نجران في عيش أجد لثيم
وابن الزبيري هو القاتل في جاهليته ،
حياة ثم موت ثم نشرٌ حديث خرافة يا أم عمرو
وهو القاتل يمدح سيد قريش عمرو العلي (هاشم) ..
عمرو العلاء هشم الشريد لقومه ورجال مكة مستون عجاف

لم تفتها شمس النهار بشيء
غير أن الشباب ليس يدوم . .
وإذا بي أبدل جمالك بجمال آخر^(١) وستندمين ،
يومها ، اشد الندم . .

هكذا يجري حسان ، في الجاهلية ، على حرية
مطلقة ، وبلهنية عيش وشباب ، تارة عند انسبائه
الغساسنة وتارة عند المناذرة ، لكن النابغة كان يستأثر
باعجاب هؤلاء وعطاياهم . فلم ينل عندهم شاعرنا ما
تمناه ، وتارة ثالثة نراه يتنقل في الأسواق منشداً شعره ،
وحين استمع اليه النابغة في عكاظ ، بعد ان استمع الى
الخنساء ، قال له : انك لشاعر ، وانها لبكاءة . . وهو
ميزان نقدي ، مزاجي ، كما ترى ، يصدر عن حكيم
عكاظ وحكيمها دون تبصر او موازنة دقيقة . ميزان

(١) يروى ان حسان احب فتاة اخرى وتزوجها تدعى عُمرة . وهي غير
عمرة بنت علقمة الحارثية التي خرجت مع زوجها من بني عبد الدار
(في معركة أحد) فلما قتل اصحاب اللواء ترك وبقي خارجاً لا يقربه
أحد فأخلته عمرة هله ورفعته فاجتمعوا اليها ثم ارتدوا على المسلمين
الذين انشغلوا بالسلب، وانقلب النصر هزيمة . اما عمرة صاحبة حسان
فهي : عمرة بنت الصامت بن خالد بن عطية تزوجها حسان ثم طلقها
ثم اتبعها نفسه . وهناك عمرة ثالثة شبيب بها قيس بن الحطيم . وهي
عمرة بنت رواحة اخت عبد الله بن رواحة أحد شعراء النبي .

بدائي ، يعتمد البيت الواحد ، او الشهرة الغالبة ، او الميل الشخصي .

حوار غير متكافئ : =====

إذا صحت الرواية التي تقول إن الخنساء انبرت
لحسان بالنقد حين سمعته ينشد النابغة فخريته التي جاء
فيها :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما .

فقلت له على التو : لقد قلت : يلمعن بالضحى ،
وكان حقه الدجى . وقلت : الغر ، وكان حقه البيض ،
ويقطرن . وكان الاجمل : يسلن او يفضن . وإذا صح
أن النابغة دافع عنه وأنصفه ، وغلبه عليها .. تكون
الخنساء - المرأة قد وقعت بين شاعرين (رجلين) لا
يعترفان بقدرة المرأة يومذاك على التفوق في الشعر .
مع ان النابغة قال لحسان ناقدًا : « أنت شاعر ، ولكنك
أقللت أجفانك ، وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم
تفخر بمن وَلَدَكَ » . قال الصولي في أوراقه : فانظر
الى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام
النابغة ، وذياجة شعره ، لأنه قال : واسيافنا ، واسياف

جمع لأدنى العدد ؛ والكثير السيوف . والجففات ،
كذلك ، لأدنى العدد ، والكثير جفان . وترك الفخر
بآبائه ، وفخر بمن ولد نساؤه .

وينضم الصولي الى ميزان النابغة ، وتبقى الخنساء
وحيدة بلا منصف . . إلا من ذوقها المرهف ورقة
شعرها وتدفق عاطفتها فيه . النابغة اوسي يحكك
شعره ؛ والخنساء تفيض كما ينبوع ، ثم تنهمر كما
الشلال . . كما تبرز ، أماننا ، مثلاً ساطعاً لهاتيك
الحرية المطلقة ، والجرأة الأدبية التي بلغت المرأة
الجاهلية قبيل الاسلام ، شاعرةً وناقدة .

حسان والمناذرة :

إذا كان سهلاً عليه الاتصال بأولئك الغساسنة
الانساب ، وإذا كان صادقاً الصدق كله ، في مدحهم ،
وتصوير حياتهم في خشونتها ولينها ، وحروبهم في كرها
وفرها ، فهل كان سهلاً عليه وينفس اليسر ، الاتصال
بالمناذرة وهم أعداء الغساسنة ؟ .

لن يكون ذلك سهلاً على الاطلاق ، ومنتجع
الحيرة غير منتجع جلق او الجابية او بصرى ؛ وملوك
المناذرة الكسرويون عقلية وعيشاً وطريقة حكم وسرعة

غضب ، هم غير ملوك الغساسنة الانعم والألطف والأحب والأثبت . . غير أن همة حسان ، وشاعريته ، وطموحه ، أبت إلا أن يظل شاعر البلاطات ، على تخوم الجزيرة : غساسنة كانوا أم مناذرة . لكن النابغة ، هناك ، بالمرصاد . وما هي ، في حسابنه ، الا خطوة أولى ويتم اللقاء ، وتحقق الشهرة ، ويرتوي العطشانان : عطش النعمان الى الاستقطاب ، والشاعر الى زحزحة النابغة . . ولكن هيهات !

خطوة أولى يتيمة : جاء في العقد^(١) « وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر^(٢) قال : فلقيت رجلاً ببعض الطريق . فقال لي : أين تريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فإنك إذا جتته متروك شهراً ، ثم شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك . فإن أنت خلوت به

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) هو النعمان الثالث الملقب بأبي قابوس ، وهو ابن المنذر الرابع . جاء في الأساطير : أن النعمان احتكر زراعة ذاك النوع من الزهر البري الأحمر ، فلا يزور الا في حديقته الملكية حتى عرف بها وعرفت به فقيل : شقائق النعمان . ولكن هناك اسطورة اقدم عهداً من النعمان يجعل الإله ادونيس (تموز) يتقلب زهرة من شقائق النعمان حين خرج للصيد وهاجمه خنزير بري ، فأنفذ نابه في جسمه وقتله . ولا يزال الإله ادونيس يعرف بهذا اللقب الى يومنا الحاضر انظر . تاريخ العرب المطول د. حتي . جبور . ج ٤ - ١٩٥٨ دار الكشف - بيروت .

واعجبته ، فأنت مصيب من خيراً ، وإن رأيت أبا أمامة .
النابعة ، فاطعن ، فإنه لا شيء لك ، قال : فقدمت
عليه ، ففعل بي ما قال . ثم خلوتُ به ، واصبتُ مالا
كثيراً ، ونادمته . فبينما أنا معه ، إذا رجل يرتجز ،
حول القبة ، ويقول :

أنام ؟ أم يسمع رب القبة
يا أوهب الناس لعنس صلبة
ضاربة بالمشفر الأذية
ذات نجاء ، في يديها جذبة

فقال النعمان : أبو أمامة ! ائذنوا له . فدخل ،
فحياه ، وشربَ معه ، ووردت النعمُ السودُ ، ولم يكن
لأحد من العرب بعيرٌ أسودٌ غيره ، ولا يفتحل أحدٌ فحلاً
أسود . فاستأذنه النابعة في الانشاد . فأذن له . فأنشده
قصيدته الشهيرة التي يقول فيها :

فانك شمس والنجوم كواكب
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ
فأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعاتها . . فقال
حسان : « ما حسدتُ أحداً ، قط ، حسدي له في
شعره ، وجزيل عطائه » .

الخطوة الثانية :

لكن حسان ما زال بهم حتى قدموه ، واستمعوا إليه ، خاصة بعد أن غضب النعمان أبو قابوس على النابغة ؛ حسب القصة الشهيرة التي تروي حكاية علاقة النابغة بالمتجردة امرأة النعمان ووصفه لها بما لا يليق . . لكن ، ظهر ، ان المنخل يشكري ، أحد شعراء البلاط ، هو الذي أراد أن يزيح النابغة عن عرش الشعر ، في ذلك البلاط ، فلفق تلك الرواية متهماً النابغة ظلماً وافتراء . وكان ان غضب النعمان على النابغة ، قبل التحقق ؛ ذلك الغضب الذي جعل النابغة يلجئ إلى الغساسنة ، فيمدحهم معرضاً بالمناذرة . غير أن التهمة والغضب أقضا على النابغة مضاجعه ، فراح يطلق أروع قصائده في تصوير خوفه من الملك النعمان ، معتذراً عن هربه ولجؤه إلى خصومهم ، بقصائد مشهورة سميت بالاعتذاريات . وفيها تظهر براعته ، وصدقه في وصف تلك التجربة الرهيبة التي مر بها . . الى ان رضي النعمان بعد ان اكتشف صدق الشاعر وخيانة المنخل مع المتجردة ، فيقتلها معاً ويستقدم النابغة ويرضى عنه .

أثناء ذلك اطلق حسان في المناذرة بعض مدائح

التي تفوح منها رائحة المصلحة الشخصية . وهي ليست من الجودة والصدق بمنزلة غسانياته طبعاً . وكثيراً ما كان يفخر ، فيها ، بنسبه مادحاً الغساسنة والمناذرة معاً ، الذين كانت بينهم قرابة في النسب . لكن هذه القرابة لم تمنعهم من الاقتتال ، والتنافس في حكم عرب الجزيرة . قال يحدد أبطال القبيلتين :

كجفنة ، والقمقام عمرو بن عامر
وأولاد ماء المزن، وابني محرق^(١)

لم يطل المقام بحسان عند المناذرة وعاد إلى الغساسنة بعد أن تركهم النابغة . حتى أدركه الإسلام وهو في المدينة ، بعد هجرة الرسول إليها . فأسلم مع الأوس والخزرج . وما لبث أن أصبح شاعر النبي الأقرب ، والأكثر حظوة .

لماذا ؟ والشعراء أيام النبي كثيرون ؟ جاء في

(١) جفنة : هو ابن عمرو اول ملوك الغساسنة وقد تقدم تعريفه . القمقام : السيد الكثير الخير ، الواسع الفضل . أولاد ماء المزن : أولاد ماء السماء ، وهو لقب عمرو بن مزريقاء لأنه كان كماء السماء يمون قومه في الجذب وابن ماء السماء هو المنذر الثالث . وماء السماء لقب امه مارية او ماوية . وهو والد عمرو بن هند . وهند هذه : اميرة غسانية نصرانية . وهي التي بنت الدير المعروف باسمها في الحيرة . انظر : تاريخ العرب المطول لحتي .

العقد^(١) : شعراء النبي البارزون هم : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن الزبير (بعد أن أسلم) وعبد الله بن رواحة ، ومن كبار الصحابة شعراء مميزون كأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب : كان راوية للشعر أكثر منه شاعراً . . وعلي بن أبي طالب ، وكان أشعر الثلاثة ، وعمر بن العاص ، وأبو حمزة وأنس بن مالك خادم النبي وغيرهم كثير . لكن كبار الصحابة هؤلاء صرفهم عن قول الشعر دورهم الخطير في نشر الإسلام ، والذب عن حياضه ، وقتال المشركين ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت للانصراف الى قول الشعر : فمن قتال ، الى بعثات ، الى اقامة صلاة وحدود ، الى خطابة ، الى الاهتمام ، مع النبي وبعده ، بتأسيس دولة الاسلام ، وترسيخ بنيانها الحديث ، الى الاستغناء بالقرآن الكريم عن كل ما دونه من النثر والشعر . ثم ان النبي اضطر الى اصطناع الشعراء ، بعد ان اشتدت وطأة شعراء المشركين عليه . وقد اتهم النبي من قبل المشركين بأنه « شاعر مجنون » (اي يستمد وحيه من الجن . .)

(١) ج ٥ ص ٢٨٣ .

فنزلت الآية بنفي التهمة ، وتبعثها آيات^(١) . فلا يعقل ان يقول هؤلاء الشعر او يروجوا له^(٢) . فقد اصبح الاسلام غذاءهم الروحي اليومي ، والقرآن رياضتهم الفكرية والشعورية الدائمة .

ولا يكاد حسان يتفرد بزعامة الشعراء ، بعد ان اطلق النبي لهم العنان في هجاء مشركي قريش ورد

(١) كما في الآية : ﴿ ويقولون اتنا لثاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ سورة الصافات ٣٦ .

والآية : ﴿ بل قالوا اضغاث احلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر ﴾ سورة الأنبياء ٥ .

والآية : ﴿ أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون ﴾ سورة الطور ٣٠ .

والآية : ﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ﴾ سورة الحاقة ٤٠ .

(٢) علماً بأن كبار الصحابة لبثوا شعراء ونقده شعر ، يروونه ويعلقون عليه . وحياناً ينظمونه . وقد نسب الى الامام علي ديوان شعر ، ولكن الشائب ان له مقطوعات وشذرات شعرية ابتهالية وجكّمية كثيرة اثبت منها صاحب كتاب: « اعيان الشيعة » والبلاذري مجموعة لا بأس بها . وذكر الجاحظ في البيان والتبيين وفضائل بني هاشم ان الامام علي كان اشعر الصحابة وأخطبهم . ويذكر المرزباني في « معجم الشعراء » شعراً كثيراً للإمام . في حين ان الزمخشري لا ينسب للإمام سوى بيتين من الشعر هما :

تكلم قريش ثمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فلان هلكت فرهنّ ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفولها أثرُ

افتراءاتهم ، حتى يتفوق عليه كعب بن زهير ، ويتنزع منه هدية النبي الكبرى : بردته الشريفة ، وكذلك كان عبد الله بن رواحة ، شاعراً ومناضلاً .

ولعل تبوأه لتلك المكانة السامية لدى الرسول ﷺ ، كان ناتجاً عن كونه قريب النبي وزوج سيرين شقيقة مارية القبطية زوج النبي وأم ولده إبراهيم ، من جهة ، ومن جهة أخرى كونه كبير الشعراء سناً ، وأقدمهم شاعرية ، ومعرفة بأنساب المشركين خاصة بعد ان امدته ابو بكر بمعلومات قيمة عنها ، استطاع بها ان « يسله » (اي النبي) من بينهم ، كما تسل الشعرة من العجين على حد قوله ، وكونه لا عمل له تقريباً ، ولا مقدرة عنده إلا على الشعر ، بعد أن علمنا مرضه وضعفه الجسدي ، وانه كان مقطوع الاكمل . فكان النبي ألطفَ به من نفسه ، فصرفه عن كل جهد ومجاهدة ، وجعله يتفرغ لهجاء المشركين والدفاع عن الاسلام « مؤيداً بروح القدس » كما قال له يوماً . . لا لأنه جبان ، كما زعموا ؛ وقد أظهرنا زيف تلك التهمة في فصل سابق .

هزال هذا التفوق فنياً : ---

بيد أننا ، رغم شهادة الكثيرين من مؤرخي الأدب ، قديماً وحديثاً ، الذين تبرعوا ، بمجانية مطلقة وبسخاء حاتمي ، فاطلقوا على حسان نعوتاً وألقاباً كثيرة ، أقلها أنه أشعر أهل المدر ، وأشعر أهل اليمن ، وشاعر النبي الأول والخ . . لا نرى لحسان أحقية مطلقة بهذا التفوق ، ولا استحقاقاً . . لا من حيث الصياغة ، او العمق ؛ ولا من حيث الجودة والابداع . . كل مدائحه النبوية ، وهجائياته في المشركين ، كانت تدور ضمن إطار روتيني كلاسيكي من المباني والمعاني المكرورة ، لا جودة فيها ، ولا إثارة ، ولا تنوع ، ولا خيال رفيع . ولعل ذلك عائد ، في نظري ، إلى نضوب شاعريته ، بعد أن شاخ ، وإلى ان الاسلام ، فيه من الغنى والوضوح والقوة والجدة ، بحيث لا يحتاج معها الشاعر الى المبالغة التي تزوق الواقع وتجمله ، وتصبغ الحقيقة الساطعة بصور الخيال ، وتهاويل الجمال . . وتفاجيء القارئ بما لم يكن بالحسبان . . كان الاسلام هو المفاجأة الكبرى ، التي أخرست الشعراء ، وأقعدتهم عن أن يزيدوا شيئاً عليه والقرآن آيته العظمى . . فكأنه جاء يسلب الشعراء أدواتهم ،

وسننهم بما حمل من عناصر الدهشة ، والفكر والصورة
والاعجاز .. فبماذا يمدح حسان ، وغير حسان ، هذا
الدين ، وهو فوق مدحهم ، وفوق مجال خيالهم ؟ وماذا
يضيفون على صفات النبي وشماله. وهو الانسان الفوقي
الذي عناه الشاعر بقوله :

واذا استطال الشيء قام بنفسه
وضياء نور الشمس يذهب باطلاً
لذلك جاءت معاني مدائح حسان وسواه ، معادة لا
جديد فيها، ولا تشويق ولا إثارة، من الناحية الفنية.

كان حسان في الجاهلية يقدر زناد فكره ، ويشير
عجاج خياله حين يتغزل أو يمدح أو يهجو أو يصف
فيأتي شعره عن تجربة معاشة ، ومعاناة في جو من
الحرية المطلقة ، متاحة للخيال كما هي متاحة
للإنسان . أما مع الإسلام فأمر الشعراء يختلف :
أنهم ، من جهة ، أمام عقيدة متكاملة ، وصاحب
عقيدة كامل ، وعبقري سوي .. ومن جهة ، أمام حد
فاصل أو (خط أحمر كما يقال اليوم) لا يتعدونه ،
وامام التزام وشبه جبرية ، وبتعبير آخر : امام حرية
محدودة لا مجال معها للتلاعب أو الكذب أو التزوير

وحتى التزويق ، او الخوض في موضوعات محرمة او متعارضة مع الذوق والقيم الجديدة .

ثم ان الجو الاسلامي العام ، خاصة في بدء الدعوة ، ليس جواً شعرياً ، يسترخي معه الممدوح على عرشه واريكته وطنافسه وهات يا شاعر ويا مطرب وابدأ بإحراق مباخرك وكرامتك على قدمي سيدك .. بل هو جو مهيب ، وجدي ، مشحون بروح الثورة والجهاد .. جو قرآني ، لا مجال معه للتغيش والادعاء ، ونبش الاعراض ، والقذف .. كل المجال للوسطية في كل شيء ... والشعر ، كما نفهم ، ونعلم ، تجربة حرة مبدعة ، لا مجال معها للوسط أو الانحدار عن الوسط ، لا سيما في مواجهة الحقائق المرفوضة والقيم الفاسدة .. يموت الشعر حين يواجه الحقيقة بتهيب والتزام وحذر وحياء ، فلا يخترق ، ولا يُغير ..

وهكذا مات الشعر ، كظاهرة فنية تطويرية ايام الاسلام الاول ، وَجَمَدَ عند حدود سنته الاولى . بل لقد تأخر الشعر وانحدر الشعراء ، ايام النبي ، فلم يبدعوا ولم يجددوا ، وراحوا يدورون حول الحقيقة الجديدة ، ولا يدخلون رحابها أو يتفاعلون معها .

ولو كان الشعراء بدرجة من الوعي والحرية والثقافة
لنظروا الى الدين الجديد ، كظاهرة اجتماعية ابداعية ،
جاءت لتتشل الانسان ، كل إنسان من وثنيته ،
وهوانه ، وعبوديته ، وراحوا من هذه الزاوية يطرونها
ويتباهون او يتماهون بها ، كمصدر جديد من مصادر
استلهاهم ووحيمهم .. لو فعلوا ذلك لكان لنا ، منهم ،
شعراء دعوة حضاريون مبدعون .. لكنهم كانوا أدنى
من هذا المستوى بكثير ؛ وكانت الدعوة ابعد واعمق من
مجال فكرهم وخيالهم .. وعذرهم الوحيد ان اشعتها
النورانية المنبثقة في منارة القرآن وشخصية النبي ،
وفدائية حواريه ، كانت أقوى من أبصارهم ، فسقطوا
كالفراشات حولها ، وظلوا ، بلا أشعة ، على شاطئ
بحرها العباب ، يلتقطون أصدافه بانتظار عودة البحار
ليحروا معه .. ولكن هيهات ! .

لم يستطع ، إذن ، خيال هؤلاء الجاهلي أن يلحق
بابعاد الدين الجديد ، وان ترقق من حواشيه ، فظل
مادياً ، مغرقاً في ماديته ، سادراً في غلوائها لا
يريم .. وظل حسان مع رفاقه ، من شعراء النبي ،
جاهلي الصورة ، والصياغة والخيال ، متمسكين بتلك
النمطية الجاهلية في الوقوف على الاطلال ، ووصف

الناقة ، أو الفرس ، وغناء السفر للوصول الى مكة او المدينة . . ولم يتغير عندهم سوى الموضوع . . فاستبدلوا الملك او الأمير او السيد بالنبي ، وراحوا يصفونه بنفس الصفات التي كانوا يسبقونها على الملك او الأمير او السيد . . وقلما استمدوا من شخصية النبي معاني جديدة : كالانسانية والابوة ، والرحمة والعفو والسماح ، وسمو الروح والفكر والتجرد والانقاذ ، والدعوة الى السلم ، والمساواة بين البشر . . وغير ذلك من السمائل الجديدة التي دعا اليها الاسلام ونبي الاسلام وكرسها في حياة المسلمين وسيرتهم . . بل ظلوا يلوبون حول شخصية النبي كزعيم او سيد قبلي . . فهو : بطل ، كريم ، مشرق الوجه وضاح الجبين ، رفيع العماد ، طويل النجاد ، كثير الرماد . . إذا ماشتا . . تماماً كصخر الخنساء ، أو من شابه صخراً في نخوته ، وكرمه وبطولته . . وأمثالها من الصفات المعروفة التي لم تكن شيئاً مذكوراً امام صفات النبي وسمائله الربانية وخلقه العظيم . . وشيمه الانسانية الفذة . . وبالتالي : لم يصل إلينا النبي من خلال شعرهم ، كما وصل إلينا من خلال الفكر العربي والمفكرين العرب . . ثم من خلال الفكر العالمي . .

ذلك ان العقل العربي استطاع ان « يفهم » النبي ، كما يجب أن يفهم ، في حين ان القلب العربي لم يفعل كفاية والشعر حديث القلب والروح : فإذا لم يمتلئ بما يوحى ، وما يثير ، فبأي حديث ترى ، يحدثان؟! .

كان هجاء الشعراء المسلمين للمشركين بتكليف رسمي من النبي ، ولم يكن تلقائياً أو ذاتياً ، ومدحهم للنبي كان تقليدياً روتينياً . . فجاء أدنى بكثير من مستوى الشخص الممدوح ، ومن رسالته . .

ولولا تشجيع النبي لشاعره حسان ، وتأييده بروح القدس وتسليحه بخبرة أبي بكر في أنساب قريش ومثالب المشركين ، لما استطاع الاقلاق . . ورغم كل المنشطات والاعراءات واهدائه سيرين ، لظل يهذي باهوائه واشعاره الجاهلية و« يرغي » في انشادها « رغاء البعير » . . على حد قول عمر له . .

إليك نموذجاً هشاً من مدائح حسان ، مع أنه مؤمن ، لا شك في ايمانه ، وقريب الرسول وسيد شعراء اليمن و« اهل المَدَر » كما قالوا عنه ، وطالما طاف على اطراف الجزيرة ، وتأثر بالحضارات القديمة التي كان يمثلها الغساسنة والمناذرة والفرس والروم ،

ويتأثرون بها عيشاً وفكراً وأدباً . . قال يمدح النبي :

أغرّ، عليه للنبوّة خاتم

من الله مشهور، يلوح ويشهد^(١)

وضم الإله اسم النبي الى اسمه

إذا قال في الخمس المؤذن: اشهد

وشق له من اسمه ليحمله

فذو العرش محمودٌ، وهذا محمد

نبي آتانا بعد يأس، وفتره

من الرسل، والأوثان في الأرض تُعبد^(٢)

(١) اغرّ: كريم الافعال . والأغر من الغرة بياض في الوجه . جاء في شرح الديوان (للبرقوقي) : وقوله عليه للنبوّة خاتم من الله ، يجوز ان يكون المراد عليه من اشراقه وتلاؤه ، ومن جميع خصاله طابع النبوة يلوح ويُشاهد . او ان يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته ، وخاتم النبوة قيل : انه شامة خضراء او سوداء محفورة في اللحم . وقيل : كفدة عند غضروف كتفه اليسرى . قيل : ولد عليه السلام به . وقيل : بعد ان وُلد - او هو اشارة الى انه خاتم النبيين . الحاشية ص ١٣٤ .

(٢) اصل الاوثان عند العرب : كل تمثال من خشبة او حجارة او ذهب او فضة او نحاس ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . وقد سمي الاعشى الصليب يعظم النصراني وثنا وقال :

تطوف العفاة بابوابه كطوف النصراني ببيت الوثن: اراد الصليب وقال عدي بن حاتم (وكان نصرانياً) : قدمت على النبي ﷺ وفي عقي صليب من ذهب . فقال لي : اتق هذا الوثن عنك . وبعضهم جعل الصنم والوثن واحداً ، وآخرون فرقوا بينهما ، قال ابن الأثير :-

فامسي سراجاً مستنيراً، وهادياً
يلوح كما لاح الصقيل المهند
وانذونا ناراً، وبشر جنة
وعلمنا الاسلام، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي
بذلك ما عمرت في الناس، أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلهاً، أنت أعلى وأمجّد
لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدي، وإياك نعبد
النبي محمد خاتم الأنبياء، واسمه مشتق من اسماء
الله الحسنى؛ يصلي عليه ربه وملائكته خمس مرات
في اليوم، إذ يقول المؤذن: إن الله وملائكته يصلون
على النبي. كما يذكره اسمه بجانب اسم الله خمس
مرات كذلك. كلما قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا

= الفرق بين الوثن والصنم ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر
الأرض . او من الخشب والحجارة كصورة الأدي تَعمل ، وتُنصب ،
تُعبد . والصنم : الصورة بلا جثة . ويقول شفيق المعلوف في كتابه :
عبر نقلاً عن الجاحظ : « في بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في
الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة » . ولم يقل الأصنام . وهذا يعني
ان الجاحظ كابن لأثير ، يفرق بين الوثن والصنم .

الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقد جاءنا ، يقول
حسان ، بعد انتظار ، سراجاً منيراً تلمع حناياه لمعان
السيف الصقيل ، جاءنا هادياً ونذيراً .. وكلها ، كما
ترى ، معان وصور وعبارات مأخوذة من القرآن
الكريم .. ثم ما أسرع ما يختصر الشاعر المديح ليعود
إلى رب العالمين ليمدحه ويشكره ويتعبد له ، في
ابتهالية بسيطة لا حرارة فيها ولا توتر ..

إن أي شاعر إسلامي مثل حسان لن نجد عنده
سوى إثبات هذه الصور والمعاني تتكرر بألفاظها
وحروفها تقريباً عند شعراء النبي كعبد الله بن رواحة ،
وكعب بن زهير والنابغة الجعدي ، وسواهم .. ويظل
النبي امامهم ، هواياه ، كما نعرفه من سيرته ، ومن
القرآن . فلا هو استحال رمزاً كبيراً ، ولا مصلحاً
اجتماعياً خطيراً ، ولا ثائراً من ثوار الانسانية في مطولة
تضج بالمعاني الملحمية والصور البثيرة ، حتى تقارب
الخارقة .. كل ما نجده انه انسان مهيب ، قوي ، يلمع
كالسيف ، وانه بشير ونذير ، وسراج منير .. الى ما
شابه هذه الصناعات المأخوذة ، ببرودة ، من قاموس
المدح في الجاهلية .. ويا ليتهم استرسلوا في ذلك
وتعدوا الأبيات القليلة التي لا تفي بجانب واحد من

جوانب عظمة النبي وغنى شخصيته ، ولست أدري ، كيف أن حرباً قبلية ضئيلة كحرب البسوس أو داحس والغبراء تنظم فيهما ، قبيل حسان ، المعلقات الطوال ، ولا تنظم في حروب النبي وانتصاراته ، ودعوته الانقلابية الخطيرة، قصائد طوال، وملاحم ضخمة تنطلق من الحقيقة الرائعة الى الخيال البعيد؟! لست ادري اذا كان السبب ، كما قلنا ، هو الجو الديني الضاغط على الشعراء ، ام هو نضوب شاعرية حسان ، ورفاقه ، وضيق افقهم ..

== ام معبد أشعر ! ==

ولعمري ان امرأة بدوية لا تعرف النبي محمد قد وصفته وصفاً يفوق في دقته وصدقته كل ما وصفه به هؤلاء الشعراء جميعاً . انها ام معبد الخزامية^(١) التي مرَّ بها النبي مهاجراً من مكة إلى المدينة مع صاحبه أبي بكر ومولاه عامر بن فهيرة ، والدليل الليثي عبد الله بن الأريقط . وما كان من معجزة النبي مع شاة أم معبد .

(١) هي عاتكة بنت خالد ابن منقلذ بن ربيعة ... بن حبشية ، خزاعية كعبية صحابية . وكانت نازلة بخباء في طريق المدينة . وقصتها مع رسول الله ﷺ مشهورة مروية بتواتر وأسناد . وحيش بن خالد هو أخوها .

وكانت عجفاء لا يدرب لبنها ، فمسح النبي ضرعها ودعا ربه ، فإذا بلبنها يتدفق ليرتوي منه الجميع . . . وحين عاد زوجها من الرعي ، ورأى اللبن ، عجب ، وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاء عازب ، جبال ، ولا حلوب في البيت ؟ قالت : لا والله . إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا . قال : صفه لي يا أم معبد . قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضوء^(١) ابلج الوجه^(٢) حسن الخلق ، لم تعب ثجلة^(٣) ، ولم تُزِر به صعلة^(٤) وسيما قسيما^(٥) في عينيه دَعَج^(٦) وفي أشفاره وَطَف^(٧) وفي عنقه سَطَعَ^(٨) وفي صوته صَحَل^(٩)

(١) الوضوء : حسن الوجه ونظافته . ومنه اشتقاق الوضوء .

(٢) ابلج الوجه : مشرق الوجه . يقال تبلج الصبح اذا اشرق وانار .

(٣) لم تعب ثجلة : لم تعب بالترهل . الثجلة : استرخاء البطن .

(٤) الصعلة : صغر الرأس . وفي رواية : صقلة . وهي الخاصرة ، تريد أنه ضامر الخاصرة .

(٥) القسيم بمعنى الوسيم . تقصد أن كل موضع منه أخذ قسماً من الجمال .

(٦) الدعج : شدة سواد العين . او سواد السواد . والخَوَر : بياض البياض .

(٧) الوطف : طول شعر اشفار العين .

(٨) السطع : الطول ، عنق سطعاء : طويلة .

(٩) الصحل : كالبيحة . تريد انه ليس بحاد الصوت .

وفي لحيته كئاشة^(١) أَرْجُ أقرن^(٢) إن صمت فعليه
الوقار ، وإن تكل سَمَاهُ وأَعْلَاهُ البهاء . فهو أجمل التأسلي
وابهاسهم من بعيد ، واحسنهم واجملهم من قريب . .
حلوا المنطق فصل ، لا نَزَر ، ولا هَذَر^(٣) كأن منطقهم
خرزات نَظْمٍ يتحدرن ، رَبْعَةٌ : لا يأس من طول ، ولا
تفتحه عين من قِصَر . . غص بين غضين ، فهو انضُر
الثلاثة منظراً ، واحسنهم قدراً ، له رفقاء يَحْفُونَ به ،
أن قال افضوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفور
محشور ، لا عابس ، ولا مُفْنَد^(٤) . .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذي ذكر
لنا من أمره ما ذكر بمكة . ولقد هممت بأن اصحبه ،
ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . فأصبح صوته
بمكة عالياً ، يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه .
وهو يقول :

جزى الله رب الناس خيرَ جزائه
رفيقين قالاً خيمتي أم معبد^(٥)

(١) الكئاشة : كثرة أصول اللحية . لا دقيقة ولا طويلة .

(٢) أرج أقرن : الرجح : دقة شعر الحاجبين والقرن ان يتصل ما بينهما .

(٣) معتدل الكلام فلا هو عسي ولا هو مهذار .

(٤) المفند : الذي لا فائلة من كلامه لكبر أصابه .

(٥) قالاً : من القيلولة : الاستراحة نصف النهار .

هما نزلاها بالهدى واهتدت به
فقد فاز من أمسى رفيق محمد . .
إلى آخر الأبيات .

فلما سمع بذلك حسان ، قال يجابو الهاتف :
لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم
وقُدس من يسري إليهم ويفتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم
وحل على قوم بنور مجدد
إلى آخر الأبيات .

وهكذا أخذت تتدفق في وصف سماته وصفاته ،
بما يدهش ، فعلاً ، ببلاغته ، ودقته ، وشموله^(١) مما
قصر عن مداه حسان وأمثال حسان . .

أما المقطوعات التي لا تتعدى البيتين أو الثلاثة ،
فربما ، أجاد حسان فيها كقوله يمدح الرسول :

وأحسن منك لم تر قط عيني
وأجمل منك لم تلد النساء

(١) للوقوف على تفاصيل الرواية انظر : شرح الديوان للبرقوقي صفحة
١٣٨ وما بعدها . الناشر : دار الأندلس - بيروت .

خلقت مبرراً من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

لا سيما البيت الثاني ، في صياغته وإيجازه ومعناه
الجديد ؛ هذا إذا اعتبرنا جودة المعنى مقياساً لامتياز
الشعر .. اما البيت الاول ، فلا يخرج الشاعر عن
اعتبار النبي شخصاً جميلاً . نادر المثال .. وهو معنى
جاهلي مادي مكرور ..

ونرافق حسان في مدائحه النبوية كلها فلا نقف
على « شعر » بالمعنى المقبول نسبياً .. بل نجد سجلاً
مجتزأً لوقائع النبي وغزواته ، وإشادة بمواقفه المشرفة
من المشركين حين انتصر عليهم يوم الفتح^(١) ..
وتاريخاً مضغوطاً لمسيرة الدين الجديد ، وبعض
الخبرات بالمواقع الجغرافية ، « الاستراتيجية » ان صح
التعبير .. يقول ابن الأثير^(٢) : قيل لرسول الله : من
أين تدخل مكة ؟ فقال : من حيث أشار حسان . يريد
قوله في وعيد قريش :

(١) عندما قال للمشركين واتباع أبي سفيان : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

و « من دخل بيت أبي سفيان ، فهو آمن الخ » .

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٦٧ .

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع ، موعدها كدَاء^(١)
وخبرة بأشباه الحضارة وأدواتها كالورق مثلاً .
قال :

عرفت ديار زينب بالكثيب
كخط الوحي في الورق القشيب^(٢)

تقييم هجائياته : هجاء بلا سخرية : ===

أما الهجاء عند حسان المسلم ، فلم يخرج عن
بقائه جاهلياً يعتمد النساب والقذف ، والظعن
بالأنساب . . ولم نجد هذا الهجاء يرتقي ويسمو إلى أن

(١) كدَاء : موضع في أعلى أذاخر مكة ، أو الثنية العليا بمكة مما يلي
المقابر وهو المَعلى . وفي الحديث : ان النبي دخل مكة عام الفتح
من هذا الموضع .

(٢) نستفيد من قول حسان هذا : ان الورق القشيب (الأبيض) كان
موجوداً وكان الوحي يكتب عليه كما نستفيد ان هذا الورق هو غير
الجلد او الاديم . ولعله ورق البردي . فقد روي ان خالد بن الوليد
كتب كتاب الأمان لأهل الشام (٦٣٥) على القرطاس . ويسمى ابن
النديم ورق البردي القرطاس المصري ، والطومار المصري .
والقرطاس وارد في الشعر الجاهلي واخبار الصحابة . يقول طرفة
وتخذ كقرطاس الشامي ومشفّر كسبت اليماني قده لم يُجْرَد

يصبح « سخرية » ضاحكة ناقدة إلا على يد الجاحظ ،
في النثر ، وابن الرومي ، في الشعر ، ثم سخرية
فاجعة ، على يد المتنبي ، وأبي العلاء ، ثم على يد
أبي حيان التوحيدي الذي لقب بالجاحظ الثاني . .
وقبل هؤلاء المبدعين لم نجد الهجاء على شيء من
الفن والتطور ، وسبب ذلك أن الشاعر الجاهلي أو
الاسلامي المخضرم كان متلبساً « بحس الدهر »^(١) لم
يعرف السخرية ، أو قلما عرفها ، مسكوناً بالشعور
بالفاجعة والعذاب المستمرين . . فلم يكن لهذا
الجاهلي أن يفرح ، أو يبتسم ، في خضم المداهمة
والمفاجأة التي هي من طبيعة تلك القوة الخفية التي
تزعجه ، وتقلقه على الدوام ، عنيت : الموت أو
الغياب ، أو قسوة الوجود العدمي الرابض بضراوة على
كتفيه . . وحين أراد الاسلام أن يرتب له فوضى حياته ،
ويخفف من غلواء وجوده المهدد طلع له بفكرة الروح
والمخلود ، والخلاص . أراد أن يرفعه عن صحراء
وواقع ، كان في حرب دائمة معهما ، وخوف ،
وتربص . . لكنه ظل خائفاً وجلأ ، ولم تتغير نظرته إلى
« الآخر » إلا حين كان يصحو على صوت العقل ،

(١) انظر : ديوان الشعر الجاهلي - الكتاب الثاني ص ١ .

وضربات سنابك خيل المسلمين تدك له مواقع عالمه القديم ، وتدفع به إلى معايشة فجر جديد وأمل جديد كان يخشى زوالهما ، وهكذا ظل الهجاء في مطلع العصر الاسلامي الأول تقليدياً ، لا تنساب في تضاعيف جديته نسائم السخرية والعبث إلا قليلاً ، وعلى استحياء خجول نظراً للجو الاسلامي الصارم . ولولا تدخل النبي في التخفيف من وطأة ذلك الجواباشاعته لبعض المَرَح والفكاهة ، لما وجدنا أي نوع من أنواع السخرية يتخلل الهجاء ، وغير الهجاء .

وواضح أن الأسلوب الهجائي أو التعبيرية الهجائية عند الشعراء المخضرمين لم تتطور ، كذلك ، لا في هجائياتهم ولا في نظرتهم إلى العالم والآخر ، تطوراً ملحوظاً ، بل لبثوا أسرى نمطية تعبيرية قديمة تصدر عن عقلية صحراوية لم ترتفع ، بعد ، من حضيض المادة إلى عالم الروح والشفافية والنورانية الميتافيزيكية الجديدة. التطور الوحيد الذي أصابوه كان في اقتباساتهم الكثيرة من القرآن وبلاغته ، وصوره الفنية المعجزة ، ليس غير . . حتى جاءت بعض قصائدهم الابطهالية وكأنها نقل حرفي عن آيات القرآن وسوره^(١) .

(١) سُور جمع سُورة : كثيرون من المستشرقين استبعدوا ان يكون اصل

على أن حسان كان خفيف الوطأة في الهجاء ، بشكل عام وبالمقارنة مع الأخطل مثلاً . تخفف من غلواء هجائه روح مرحلة ، تقارب في مرحها جو السخرية ، لكنها لا تدخله . جاء في العقد^(١) : لما هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر بالشعر الذي يقول فيه :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فانك انت النطاعم الكاسي ..
استعدى عليه عمر بن الخطاب ، وانشده البيت .
فقال : ما أرى به بأساً . قال الزبرقان : والله يا أمير المؤمنين ما هجيتُ بيت ، قط ، اشدُّ عليَّ منه . فبعث إلى حسان بن ثابت . وقال : انظر إن كان هجاء .
فقال : ما هجاء ، ولكن سلَّح عليه .. غير أن هذه الروح المرحية ، قلما ظهرت في شعره الهجائي . فقد فرض عليه الجو الجددي الذي كانت تجري فيه المهاجاة بينه وبين المشركين ألا « يمزح » أو يسخر ويداعب ،

= اللفظة عبرياً من : شورا بمعنى ترتيب ، صف ، مثل لا جارد ونولده ويول . أما « بل » فقد ذهب إلى أن الكلمة مشتقة من السريانية صورنا بمعنى النص .. اذ كثيراً ما كان النبي ﷺ يسمعها من رهبان المسيحية قبل البعثة . انظر : تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٣٨ لبروكلمن .

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٣١٨ .

شيمة ابن الرومي ، فيما بعد ، ذلك ان المهاجاة كانت بين عقيدة وعقيدة ، ومن يمثلانها من جبابرة قريش ، وعتاة المشركين ، من جهة ، وبين النبي واصحابه من جهة اخرى . الهجاء في المعركة ، وليس على جوانبها ، ينطلق من صميمها ، من الموقع الحربي ، والموقف الحاسم : النبي يدفع بشعرائه وعلى رأسهم حسان ، قائلاً لهم : دافعوا وروح القدس معكم ، تماماً كما يدفع بابطاله إلى ساحة المعركة في احد وبدر ومؤتة والاحزاب .. وهو معهم .. فالساحة ساحة معركة بوجهيها العسكري والأدبي . ولا مجال ابداً للضحك أو السخرية أو العبث ..

لكن مثل هذا الهجاء « الحربي » فقد كثيراً من « الفن » وإن لم يفقد الكثير من القيمة الاجتماعية والتأثير والحسم . فاستمر ، كما كان في الجاهلية ، قليلاً ، اجتماعياً ، اخلاقياً يعتمد على الطعن في القيمة الشخصية للخصم ، ومنزلته الاجتماعية ، وان تغير الموضوع . كما ظل ساذجاً ، ودون مستوى التطور الفكري والروحي الذي اصابه العقل العربي عندما تقبل « الصدمة الكبرى » عنيت الدعوة الاسلامية ، وتفاعل معها ، وراح يتحضر بها ويتجذر .. وفي رأبي : أنه لو

أطلق العنان للشاعر المسلم ، ولم يقيد بقيود الهجاء والمدح والفخر وسواها من الموضوعات السلفية القبلية الموروثة ، وبدأ حريته تلك بالتعبير عن ذاته ونزعاته ورؤاه لتحضر مع المتحضرين ، وارتقى الى المستوى الفكري والروحي الذي بدأ العربي المسلم يرتقي إليه ، وبه . . فدخل ، مع الداخلين ، في حُتى المغامرة الجديدة : فكراً بالتقبل الفاعل للدعوة ، وفنياً بالتساؤل ، والرفض للشكل القديم في بناء القصيدة العربية ، على الأقل . . ولن يمضي وقت طويل ، حتى يبدأ الرافضون بالتساؤل واعادة كتابة القصيدة من جديد ، ولكن باستحياء ، كما سيحدث ذلك مع ابن ابي ربيعة ، بعد اقل من نصف قرن ، حيث رفض ، بكل حرية ، الشكل والموضوع في كثير مما غنى وأنشد وتغزل^(١) .

ففي الشكل تخلى عن البحور الطويلة ، وتفعيلاتها الكاملة ، واكتفى بالمجزوءات ، ربما ، ليستجيب الى ضرورات الغناء والتلحين ، والانسجام مع الجو النسوي الرقيق ، ويلبي ذائقته الفنية الخالصة ، في بيئة مكة

(١) قيل لعمر بن أبي ربيعة: لماذا لا تمدح الخلفاء . قال : انا لا امدح إلا النساء . .

والمدينة المتحضرة . تلك كانت نقلة تبعثها نقلات في
أوائل العصر العباسي على يد بشار وأبي نواس ، ثم
أبي تمام ، في تنافر أضداده ورموزه ، والمتنبى ،
والموشحات ، لا مجال ، هنا ، لتفصيل ونقد
ابداعاتها^(١) هؤلاء ، حين تحضروا ، عكسوا ، في
شعرهم ، حضارتهم ، وإذا كانوا لم يعقدوا كما تفيض
عادة أي حضارة متقدمة ، فحسبهم انهم كانوا في
صميم الاحداث بل كانوا الحدث . . ولم يدوروا
جوله . باستثناء ابي تمام الذي مال إلى التعقيد بحكم
الضرورة الحضارية^(٢) ، لا بحكم الاصطناع . .

من هجائيات حسان: قال يهجو الحارث بن عامر
الذي اشترك ، في الجاهلية ، بمؤامرة دبرها أبو لهب
لسرقة غزال وثني ثمين كان مقاماً في الكعبة^(٣) .

(١) يقول البيوت : على الشاعر في ظل حضارة مها ، ان يميل الى
الشمول ، وحتى التعقيد ، لكي يصبح اكثر عمقاً وإيحاء ، وابتعد عن
المباشرة ، والالتزام بلغة المعاني . . الخ . .

(٢) قصة الغزال وسرقته من الكعبة قصة طويلة وسارقه أكثر من أن يُعدوا .
منهم على سبيل المثال : أبو لهب بن عبد المطلب ، والحكم بن أبي
الغاسي ، والحارث بن عامر . اطلبها مفصلة في ديوان حسان .

يا حار^(١) قد كنتَ لولا ما رميتَ به
لله درك ، في عز وفي حسب
جللتَ قومك مخزاةً ومنقصه
ما لم يجلله حي من العرب
يا سالب البيت ذي الاركان حليته
أد الغزال فلن يخفى لمستلب
سائل بني الحارث المزري بمعره
اين الغزال عليه الدر من ذهب
بش البنون وبش الشيخ شيخهم
نبأ لذلك من شيخ ، ومن عقب
هذا ليس هجاء بقدر ما هو لوم وتثريب لانسان كان
محل اعجاب النبي بعد ان أسلم ، ومحل تقدير
الشاعر . وإذا كان لمثل هذا الهجاء من قيمة فلأنه جاء
وثيقة اتهام يسجل فيها واقعة سرقة الغزال من قبيل فتاك
قريش ، وعلى رأسهم أبولهب ، صاحب فكرة
السرقه ، وهذا الحارث الذي نفذ الفكرة . وحين تصاغ

(١) حار : ترخيم حارث . وهو الحارث بن عامر الذي كان يجالس النبي .
قبل ان يرتد . فقالت قريش : (عندما ارتد) قد صبا . فقتل يوم
بدر . وكان حسان قد هجاء متهماً إياه بالاشتراك في سرقة غزال الكعبة
الذهبي مع ابي جهل بعد سكرة عرمية ..

الأحداث الكبرى ، أو الصغرى ، شعراً ، تكتسي ثوباً مستعاراً هي بغنى عنه . اما الثوب الذي هو الشعر (أو بالأصح النظم) ، فلن يكون أكثر حظاً من الحدث . لا سيما حين لا يرتفع الشاعر بالحدث الى مستوى رفيع عبر لعبة فنية معقدة . . حين لا يجعل فيه من الايحاء ، والاثارة ، أكثر مما فيه من التاريخ . .

هجائية أخرى أشد وطأة : =====

قال حسان يهجو حارثاً آخر ، هو الحارث بن هشام بن المغيرة^(١) ويعيره بفراره يوم بدر :
يا حار ، إن كنت امراً متوسطاً
فأفد الألى ينصفن آلَ جناب^(٢)
اخوات امك ، قد علمت مكانها
والحق يفهمه ذوو الألباب

(١) هو الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي شقيق أبي جهل عمرو بن هشام ، شهد بدرأ كافراً مع أخيه أبي جهل ، وفر حيث ذ قتل أخوه . وعُيّر الحارث بفراره ذاك . . وكان يعتذر ، بعد ان اسلم ، عن هذا الفرار ، ويتلم عليه . كما روى له الأصمعي ابياتاً في هذا المعنى .

(٢) هو جناب بن عبد الله بن هبل الكلبي . الديوان .

إن القرافصة بن الأحوص عنده
 شجن لأملك من بنات عُقاب^(١)
 اجمعت انك انت الأم من مشى
 في فحش مومسة ، وزوك غراب^(٢)
 وكذلك ورثك الأوائل انهم
 ذهبوا ، وصرت بخزية وعذاب
 فورثت والدك الخيانة والخنا
 واللؤم ، عند تقايس الأحساب^(٣)

لا يزال الهجاء قذفاً وشتائم وفضح أعراض
 وأنساب . فهل ندرسه على انه جزء من التراث ، ام
 نلفظه ؟ ومتى كان تراثنا مجموعة من الشتائم . الا انها
 الضرورة الموضوعية تلزمنا ، حين ندرس شاعراً قديماً
 ان نعيش معه في كل مطرح من مطرح فكره وشعره . .
 وان تسجل عليه كل سقطاته ، او ما اجبر عليه حين
 اسف وانحدر . وان نسجل له كل روائعه ، اذا كان له
 من روائع . هنا ، نبذو مؤرخين أكثر منا ناقدين

(١) اي انها كانت خادمة للقرافصة بن الأحوص الكلبي
 (٢) الزوك : مشى الغراب . وهو الخطو المتقارب في تحرك جسد الانسان
 الماشي . وزاك في مشيته يزوك حرك منكبيه وإليته وفرج بين رجليه .
 (٣) اي عند تسابق الأحساب .

محللين . وهذا ما لا نرضاه لأنفسنا . . دعنا ، إذن ،
من معاني هذه الهجائية السبائية المكرورة . ولنر ما فيها
من « الشعر » :

موضوع القصيدة :

بطل قریش مخزومي يفر من المعركة . هذا الفرار
دليل على انه يحمل من صفات امه الأمة عند بن
الأحوص ، اكثر مما يحمل من صفات ابيه هشام ،
وجده المغيرة . . فهل وفق حسان في توضيح ذلك ؟ .

حين رمز وغمز وبالإشارة البعيدة كان أقرب الى
« الشعر » منه الى الثر الذي يعتمد التصريح دون
التلميح : شَجَنُ لَامِك ، اخوات امك قد علمت
مكانها . . والحق يفهمه ذوو الألباب . . وكلها تلميحات
ورموز تشير الى الحقيقة دون البوح بها . . وهي اشد
تأثيراً في نفسية الابن من التصريح . . لأن التلميح يترك
للسامع مجالاً واسعاً للتأويل ولتوقع وجود اكثر من
حقيقة ، في تلك الأم واكثر من نقيصة . . كما وفق في
تصوير مشيخة الحارث ، بعد ان اخزاه ، بمشيئة المومس
الفأحشة ، والغراب المتهافت الذي يزوك زوكانا . .

لقد اخزاه مرتين : مرة حين لم يتحدث الا عن أمه

وماضيها... ومرة حين الحق عارَ الأم بالزوج ، الأب
فشمل العار الجميع .. وبرز الحارث انساناً مطعوناً في
نسبه يحمل خيانة اجداده الذين مضوا وتركوا له هذا
العبء الثقيل من الاوزار ..

فانت ترى ان كمية « الشعر » في هذه الهجائية لا
بأس بمقدارها، إن من حيث التعبيرية الفنية السهلة،
أو من حيث تصوير الخسة والخسيس في مظهرهما
ومخبرهما ..

هجائية مُرة كثيفة :

قالها ، هذه المرة ، دفاعاً عن نفسه ، ورجولته
العاجزة .. قالوا : إن حسان مرَّ يوماً بمجلس مُزَيَّنَةٍ بعد
ان كف بصره ، فضحك به بعضهم . فانتفض قائلاً :

أبوك ، أبوك ، وأنت ابنه
فبش البُنَي ، وبش الأب
وامك سوداء نوبية
كأن أمامها الحنظب^(١)

(١) وقيل : بدل نوبية سودونة : وهي القصيرة العنق والألواح واليدين ، او
الناقصة الخلق ، الضيقة المنكين . الحنظب : ضرب من الخنافس
فيه طول .

يبیت أبوك بها معرساً
 كما ساور الهوة الشعلبُ
 فما منك اعجبُ يا ابنَ استها
 ولكنني من ألى اعجب
 إذا سمعوا الغي آووا له
 تيس تنب إذا تضرب^(١)
 ترى التيس عندهم كالجواد
 بل التيس وسطهم أنجب
 فلا تدعهم لقراع الكماة
 ونادِ الى سوءٍ يركبوا

هجائية اتخذت ، كما يبدو ، خطة الهجوم بقصد
 الدفاع ، بحيث يتستر العاجز وراء لسانه الذي يأخذ
 بالقذف والشتم وتهش الاعراض اخفاء لعجز الشاعر عن
 المقاومة باليد أو السيف . خاصة حسان الذي لم يكن
 يملك ، منذ كان ، سوى سلاح وحيد هو اللسان ،
 واللسان السليط الطويل الأسود الذي أظهره مرة أمام
 النبي حتى ضرب به أرنبة أنفه . . وطالما انتصر به وحل
 جميع عقده وعِله ، في ميادين الفخر والهجاء . . فلا

(١) يقال نب التيس نباً إذا صاح عند النزو او الغراب تضرب : تنزو.

عجب ، وهو الآن أعمى ، ينقض على من ضحك منه
انقضاضاً سريعاً وحاسماً ، وبالضربة القاضية ، كيلا
يعود الى مثلها . ويبسودان حسان قد عرفه وعرف امه
وأباه .. وإلا لما وصف أمه بأنها نوية (اي زنجية
سوداء) ، او انها « مودونة » قصيرة العنق والاطراف ،
وان اصابعها طويلة بشعة كالخنافس ، وانها أمة حقيرة
وهو ابن استها .. ولا يكفي حسان بالتشنيع على الأم
والأب ، بل يصل هذين بجدود حقراء « تنب كالتيوس »
عند الضراب ، عاداتهم التزو .. والتعدي ، وارتكاب
الفواحش .. ومن كان هذا دأبه لا يمكن ان يكون بطلاً
كيمياً ، يقارع الكماة ، في ميدان الفروسية والشرف ،
بل هو بطل في ميدان السوءات والقبائح ، يسارع اليها
ويعيش معها .. صورة بارعة بل صور تراكمت من بيت
الى بيت حتى بلغت حد الكمال في تجسيد « جمال
القببح » فمن الأنامل الحنظبية ، الى إعراس الأب ، الى
هوة الثعلب ، الى ابن استها ، وما في ذلك من فحش
الدلالة الى تيوس تنب اذا تضرب .. ثم ذلك التيس
الذي اصبح كالجواد الأصيل في نظر اصحابه الذين
يسارعون في الفحشاء ، ويحجمون عن المكرمات ..
مما اضفى « جمالية » تصويرية على هذه الهجائية

ونجحت في أن توارى خلفها نفساً كثية غطاها الشاعر
بروح السخرية وتشويه الآخرين الذين ليسوا في
« عماهم » الأخلاقي بأفضل منه في عماه المادي . .

وهكذا نهض « الشعر » في هذه الهجائية وكاد
« النظم » أن يتوارى . ولكن . .

لقد جاءت الصياغة البارة وروح السخرية عاملين
هامين في توجيه هذه الهجائية الاجتماعية نحو مستوى
أعلى لم تبلغه هجائيات حسان الأخرى . لقد شع من
كل بيت فيها روح ساخرة ، رغم هجومها ولوعاتها
المكبوتة من انسان سخي لا يرى في الشاعر الكبير
سوى عماه ، وعجز شيخوخته . نفس لا تزال تضح
بسخرية ضاحكة ، على مرارتها ، من ذلك الحقير واه
وأبيه وأجداده ، تجسدها صور بارعة وفق إليها الشاعر ،
وتشبهات دقيقة وملائمة للألم واصابعها وبشاعة منظرها
وحقارة منبتها . اما صورة الأب الذي ، حين يُعَرس
بها ، فكأنه ثعلبٌ يساور هوة عميقة . . . واجداده
البلداء الذين هم ، عندما يتنادون الى الغي والضلال ،
كتيوس تصبح عند الضراب . . .

لقد ضغط الشاعر المهجور ضغطاً شديداً حين جمعه

بكل أصله وفصله وصفاته في سبعة أبيات ، ثم رمى به
شلوأ بين الأشلاء ، ولا شيء بين الأشياء ..

ولولا المنحى الاجتماعي الذي نحاه حسان في
هجائه ، وتلهيه بهتك الأعراض والسباب لطلع لنا منه
ساخر فنان أقرب بكثير إلينا والصق ، حين نجده ، وقد
استخرج لنا المأساة من صميم الملهاة ، وتعامل مع
البشاعة الخُلقيّة والخُلقيّة بدقة وعمق ؛ كما سيفعل
الجاحظ وابن الرومي والمتنبي وأبو العلاء والتوحيدي
ويديع الزمان الذين اطلعوا لنا لوحات خالدة لما يسمى
اليوم : جمال القبح .. فنحن لا نزال ، مع هؤلاء ،
نضحك من مهجويهم حين نرثي لهم ، أو نرثي لهم
حين نضحك منهم ، ثم نضحك ونرثي لأنفسنا
وللإنسانية جمعاء حين نجدها تعج بأمثالهم من
التافهين ، والادعياء ، والمشوهين والبخلاء المتسترين أو
المتفلسفين الذين يفسفون بخلهم اقتصاداً وتوفيراً وهم
احقر من ان نستمع اليهم ، او نسمع لهم ..

مرة اخرى تقول إن جو حسان وطبيعة عصره لم
يكونا ليسمحاً له بأن يكتشف في نفسه ذلك النوع من
الهجاء التصويري الساخر ، او ان يتمادى فيه ، وان كان

يحمل ، في ذاته ، بذوره .. وطبعي ألا يبرز
الساخرون « اطباء الانسانية » كما يسميهم مولير الا
في عصور متطورة فكرياً واجتماعياً ، الى جانب المزاج
والاستعداد الشخصي . فالشاعر الساخر انسان متحضر
ومثقف وعالم نفسي خبير بنفوس المنحرفين وما تنطوي
عليه من عاهات ، وما تلجأ إليه من وسائل دفاعية
وادعائية مضحكة .. وحسان لا يزال أقرب الى البداوة
منه الى الحضارة ، والى التقليد الموروث في الهجاء ،
وغير الهجاء ، منه الى التجديد والابداع ..

يفخر بقومه ويهجو المشركين: قال يعرض بأسيد
قريش الذين قتلوا في وقعة بدر الكبرى :

لقد علمت قريش، يوم بدر،
غداة الأسر ، والقتل الشديد
بأننا حين تشتجر العوالي
حمأة الروع يوم أبي الوليد^(١)
قتلنا ابني ربيعة ، يوم ساروا
الينا في مضاعفة الحديد^(٢)

(١) هو أبو الوليد عتبة بن ربيعة ، وكان من سادات قريش ، قتل يوم بدر .

(٢) وهما عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .

وفرّ بها حكيم يوم جالت
بنو النجار تخطر كالأسود^(١)
وولت عند ذاك جموع فھر
واسلمھا الحویرث من بعيد^(٢)
لقد لاقیتهم خزیاً وذلاً
جهیزاً باقیاً تحت الوریث
وكان القوم قد ولوا جمیعاً
ولم یلوا على الحسب التلیث
وكالعادة نجده ینطق بلسان قومه بني النجار الذین
دافعوا عن النبی يوم بدر ، واسهموا في تحقیق النصر
للمسلمین وتغشاه حالة من الزھو ینسی معها انه هو

(١) هو حکیم بن حزام بن خویلد بن أسد بن عبد العزی بن قصي . وهو
ابن أخي خدیجة بنت خویلد زوج رسول الله . انهزم يوم بدر ثم اسلم
يوم الفتح . كان من سادات قریش في الجاهلیة والاسلام . جاء
الاسلام وبيده الندوة فباعها من معاوية بمائة ألف درهم . فقال له ابن
الزبیر : بعت مکرمة قریش . فقال له حکیم : ذهبت المکارم الا
التقوى . وحج في الاسلام ، ومعه مائة ناقة بدنة ، قد جللها الخیرة
وكفها عن اعجازها ، واهداهما ، ووقف بمائة وصیف بعرفة في اعتاقهم
اطواق الفضة فنوش فیها : عُقَّاه الله عن حکیم بن حزام . واهدی ألف
شاة . شرح الديوان للبرقوقي . الناشر : دار الأندلس - بیروت .
(٢) الحویرث : یرید به الحارث بن هشام بن المغيرة . انهزم في بدر ثم
اسلم . تقدم ذكره .

شخصياً ، لم يساهم في شيء من ذلك ، ولكنه يشعر في اعماقه انه في صميم المعركة يشارك وجدانياً فيها وايمانياً . بنو النجار اقربائه واخوال النبي ، فهم حين يستبسلون فكأنما هو المستبسل ، وحين يفهدون النبي بأرواحهم ، فإنما هو الذي يفديه أيضاً . . ما دام السيف واللسان في اتجاه واحد ، ومن اجل غاية واحدة ، ويصدران عن ايمان واحد ، وان اختلفت السواعد . ويمفاعيل متساوية . . وبنو النجار كفوه مؤونة ، قتل ابي الوليد ، وابني ربيعة ، وانهزام ابن حزام ، وهم من عتاة قريش وصناديد المشركين . . فحق له ان يفخر بهؤلاء الآباء والأجداد ، وان يهجو اعداءهم واعداء النبي من المشركين الذين منهم من قتل ، وأسر ، أو وَلَّى الأدبار ، وقد لحق بهم العار المركب: عار الهزيمة ، وعار الشرك ، وعار قتال النبي ، وهو عار ابدي . .

اين الملحمة ؟ والبطولات الخارقة تسجل كل يوم ؟!

افلا يحق لنا ان نتساءل : لماذا لم يرتق الشاعر
بأمثال واقعة بدر الصغرى ، وبدر الكبرى ، واحد ،
ومؤنة الأحزاب واليرموك ، الى مستوى الملحمة ! رغم
توفر النفس والشاعرية ، والاعجاب الشديد برموز
الملحمة ، وادواتها ، من ابطال ، وعلى رأسهم النبي
وعلي ، ومن معارك رهيبة مصيرية ، ومن مشاركات
وجدانية ، ومساهمة السماء بتحقيق النصر للمسلمين^(١)
ومعجزات حقيقية تتم على يد النبي ودهائه العسكري ،
وخططه في اختيار المواقع الاستراتيجية ونصب الكمائن
وإدارة لعبة الحرب ، واشتراك النساء مشركات ومسلمات
فيها . وهذا هو النابغة زميل شاعرنا ومعاصره يصف

(١) بدليل الآيات : ﴿ وأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ﴾
سورة التوبة الآية ٤٠ .

﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ سورة الصف
الآية ١٤ .

﴿ هو الذي أيدك بنصر وبالمؤمنين ﴾ سورة الأنفال الآية ٦٨ .
(قيل : وكانوا في بدر خمسة آلاف جندي .. والله أعلم ..)

زحف جيوش الغساسنة ، وصفاً ملحماً واثعاً ، رغم
إيجازه ، حيث يقول :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب

مع ان حسان سمع بمثل هذا النمط من وصف
المعارك والملوك الذي قيل بأقربائه الغساسنة ، وهم
دون بطولة النبي ويأس المسلمين ، والنابعة دون حسان
اعجاباً بالغساسنة وتأثراً بهم ، وإيمان حسان بالدعوة
وصاحب الدعوة إيمان راسخ لا شائبة فيه ولا ضعف . .
والمعلقات ؟ ألم تأت مليئة بالأنفاس الملحمة ، رغم
غنايتها ؟ ولم تكن رموزها ولا ادواتها ، ولا مضامينها ،
ولا شعراؤها بأقوى ولا أروع ولا أبدع من هذا الجو
الاسلامي الرائع المريع ، المليء بالانجازات ،
والبطولات على كل صعيد ؟ .

جو أقل ما يقال فيه أنه مثير وملهم . فلماذا
وكيف ؟ .

الجواب مع الأسف يكمن في الشاعر ، غير
المؤهل لمثل هذا ، لا نفسياً ولا جسدياً ، ولا
شاعرياً . . فهو قد انتهى أيام الرسول الى ان يصبح

شاعراً متقاعداً ، يجلس في اطمه طوال النهار يجتر
ايامه وماضيه ، ثم يمثل بين يدي النبي في المدينة حين
يستدعيه لسماع بعض قصائده ، او انتدابه لهجاء بعض
شعراء المشركين ، كابن الزبيري ، وبعض رجالهم
كأبي سفيان وأبي جهل وسواهما . . ثم يعود الى
اطمه ، شيخاً هرمًا مضعوفاً لا غنى فيه ولا غناء ، وفي
شعره ، مع ان شعره من السلاسة والسهولة بحيث كان
يُغنى في الجاهلية .

جل ما كان يحرك شاعريته الخابية الأحداث
الاسلامية المثيرة وشمائل النبي ، وبطولات صحابه ،
فيروح يمدحها ويتغنى بها ويباهل بها شعراء قريش
وابطالها .

ويبدو ان تلك الاثارة وذلك التحريك لم يكونا
بالمقدار الكافي ليرتقي بها ، شعرياً ، الى ذلك
المستوى الرفيع الذي يقارب الخارقة او الملحمة . .

ثم ان الاحداث الاسلامية وشخصية الرسول كانت
هي بحد ذاتها ملاحم وخوارق ، لم يألّف مثلها
العرب ، ولا شاعر العرب حسان ، فظلوا ينهلون منها
على مهل كفيض إلهي ، ارتووا منه ، وذاذوا عنها

ذودهم عن الحياة ، واستشهدوا في سبيلها . لكن شعراءهم لم يكونوا على مستوى ابطالهم ، كما تقدم القول ، فلم يخرجوا من مستنقع التقليد والاجترار ، وفي لا وعيهم ان هذا التقليد قدس الاقداس ، وفي استعدادهم ، انهم لا يستطيعون اكثر من تقليده والوقوف عنده . . ولم يكن حسان إلا كسواه من الشعراء ، زمن النبي وخلفائه ؛ مع انه كان ، بما توفر له من التفرغ ، وطول مراسه بالشعر ، والحظوة الكبرى لدى الرسول ، قادراً على ان يعطي افضل ، ويصلنا به اكثر ، اسلاهاً على الأقل . ان صلتنا به هي صلة واهية جداً ، بل هي صلة سلبية ، تضعنا في مركز اللوم دائماً ، والنقد والتجريح ، بل والاستخفاف . . فنحن لسنا بحاجة الى وثائقه وسجلاته ، وتأريخ الأحداث الاسلامية الكبرى من خلاله . . ولا إلى هجائياته وادعاءاته وغزله البارد . . نحن بحاجة الى شاعر الرسول ، ذاك الذي يتغنى ، ويجيد الغناء ، بالحدث الضخم وصاحبه ، غناء ملحماً مثيراً ، بحاجة الى فكتور هوغو عربي امام بونابارت العرب الأكبر بل امام اعظم شخصية دينية وزمنية في التاريخ القديم والحديث هو النبي محمد . . فإذا بملحمة الدهور المحمدية الاسلامية تسبق « ملحمة

الدهور» الفرنسية بثلاثة عشر قرناً - لكن شيئاً من هذا ، أو بعض هذا ، لم يحدث ولم يبصر النور ، لا عند حسان ، ولا عند غيره ، علماً بأن البوصيري وأحمد شوقي وبولس سلامة قد حاولوا في سلاحهم الشعرية سد ذلك الفراغ الكبير ، لكن نجاحهم كان متواضعاً .. وسبحان مقسم المواهب والأرزاق ! ثم لو ان الشعراء العرب خرجوا من ذواتهم وغنائياتهم ، لالتقوا مع الآخر ، واستوحوا منه ومثلوا وتمثلوا ، بدل البقاء مع تلك « الأنا » المكروهة المفارقة في التمحور والانغلاق على ذاتها كالشرنقة ..

هذا الآخر من : الحدث (البطل ، المدى ، الزمن) كفيل بجذب الشاعر إلى حقل مغناطيسيته ، وصهره بأتونه ، والتمرغ برماده ، والتجذر معه ، ثم انبثاق طائر « الفينيق » من هذا الرماد الخلاق .. وطائر الفينيق هو الشعر الذي يحيي ، وهو الشعر الذي يغير العالم ..

عفواً حسان ، فأنا لا أعنيك بكل هذا ، كما لا أعنيك من بعضه ..

حسبك انك غنيت بعض مواقف النبي وبعض

شمائله ودافعت عن الاسلام ، وسجلت بأمانة الخير
احدائه الكبرى ، ووصمت بالعار كل متخلف مشرك .
حسبك هذا . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

===== مذهب حسان : =====

كان حسان « عثماني » الهوى ، يؤمن بأن الخليفة
الثالث قد قتل ظلماً وعدواناً . وميله هذا عاطفي أكثر منه
عقلانياً . ولعله أراد أن يكفر ، برثائه لعثمان عن انسابه
بني النجار الذين تورطوا في الثورة على الخليفة ،
فتسوروا دار الخلافة واسهموا في قتله . وفي رواية
اخرى ان المتسورين دخلوا دار الخلافة من على احد
اسوار بني النجار الملاصقة للدار ويعلمهم ..
قال يرثي الخليفة منوهاً بذلك :

اوفت بنو عمر بن عوف نذرهما
وتلوثت غدرأ بنو النجار
وتخاذلت يوم الحفيظة انهم
ليسوا هنا لكم من الأخيار
ونسوا وصاة محمد في صهره
وتبدلوا بالعز دارَ بوار^(١)

(١) قوله : ونسوا وصاة محمد في صهره ، فقد روي عن عائشة ان =

اتركتموه مفرداً بمضيعة
 تنتابه الغوغاء في الأمصار
 لهفان يدعوا غائباً انصاره
 يا ويحكم يا معشر الأنصار
 جيرانه الأدنون حول بيوته
 غدروا ورب البيت ذي الأستار
 إن لم تروا مدداً له وكتيبةً
 تهدي اوائلُ جحفلٍ جرار
 فعدمتُ ما ولد ابن عمرو منذرُ
 حتى ينيخ جموعُهم بصرار^(١)
 لا يحسبنُ المرجفون بأنهم
 لن يُطلبوا بدماء أهل الدار الخ...

وثيقة اخرى من وثائق حسان ، في الرثاء كما في
 الهجاء او المدح ، يتم فيها تسجيل الحادثة وجزئياتها ،
 ويشغل المكان والزمان والأشخاص حيزاً كبيراً من

= النبي ﷺ قال : يا عثمان انه لعل الله يقمصك قميصاً ، فاذا ارادوك
 على خلعه ، فلا تخلعه لهم . والمراد بالقميص الخلافة التي طالبه
 المحاصرون بالتنازل عنها ، فلم يقبل .

(١) يقول : ان لم تروا له جيشاً جراراً يأخذ بثأره ، وينيخ بصرار (جبل
 قرب المدينة فعدمتُ اهلي . وعمرو ومنذر جدا حسان .

شعره . يتخلل كل ذلك عاطفة معينة ، وانفعالات خاصة يثها في تضاعيف ذلك الحيز . فكأنه يؤرخ حين يفعل ، أو يفعل حين يؤرخ . وحتى الجغرافيا لها في شعره مكان واهتمام ، لدرجة ان بعض شعره اصبح دليلاً « ستراتيجياً » موثقاً به لدى المتحاربين^(١) .

ها هو ينذر بني النجار والذين قتلوا عثمان بأن جيوشاً جراحة سوف « تنيخ » في سفح جبل « صرار » قرب المدينة لتأخذ ثأرها من قاتلي الخليفة : ذلك الشيخ الأشمط المؤمن المتعبد في ليله ونهاره ، جامع القرآن وصهر الرسول ، وهو القاتل فيه أيضاً :

ضحوا باشمط عنوان السجود له
يقنطع الليل تسبيحاً وقرآنا
لتسمعن وشيكاً في ديارهم
الله أكبر ، يا ثارات عثماننا

وتجيش عاطفته ، فيدفعه هذا الجيشان إلى التنبؤ بوقوع حروب ثارية ، وتصح النبوءة ، وتكون واقعتا الجمل وصفين اللتان اتخذتا منحى سياسياً خطيراً حين

(١) يروى ان النبي حين آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين حسان وعثمان .

استغلها معاوية استغلالاً دفع بالمسلمين الى التناحر
والاقتتال من جديد .

وواضح ذلك الصديق في رثاء الشاعر للخليفة
المقتول في هاتين المقطوعتين وفي غيرهما . وتلك
العاطفة المتدفقة التي سالت دموعاً عبر الصور
والتشابه ، فانسابت رقاقة ساخنة . كما انسابت الصور
والتشابه صافية واضحة سهلة . والصديق يستبجع ،
دائماً ، الوضوح في الموقف ، والتعبير والافصح . .
هذا ، ولا غرو ، فإن حسان حين رثى عثمان لم يكن
يرى أمامه خليفة بقدر ما كان يرثي أخاً له وقريناً^(١) ومن
هنا صدق الرثاء ، أي رثاء ، ورقته . ثم ان حسان
قريب قريبه ، ونسيب نسيبه ، ولهذا جاءت رثائاته
في عثمان تعبيراً عن عاطفة وود خالصين ، لا
تسجيلاً لموقف ورأي سياسيين^(٢) . . ولست الآن ،
على أي حال ، مهتماً بمناقشة حسان موقفه ، ورأيه في

(١) عثمان قريب النبي ومن كبار صحابته وذو النورين . وحسان قريب النبي

عبر بني النجار . وعديله بعد ان وهبه النبي سيرين اخت مارية القبطية

زوج النبي وام ولده ابراهيم . فأولدها عبد الرحمن بن حسان .

(٢) ذلك لأن الذين تنادوا للأخذ بشار عثمان لم يؤلفوا بعد ما سمي

« بالعثمانية » .

مقتل عثمان ، فأنا لا أؤرخ للأحداث الإسلامية في هذه الدراسة ، بقدر ما يهمني ، فنياً ، هذا اللون الصافي والواضح من الرثاء الذي قلما وجدناه عند الشاعر إلا حين يرثي كبار الأجرة كالنبي وأبي بكر^(١) وعثمان وبعض شهداء المسلمين ، فتراه ترق ديباجته ، ويسمو بيانه رقة عاطفته والتياح كيانه . وما عدا ذلك فهو غريب الشوارد ، معقد الديباجة ، أحياناً كثيرة ، وسهل الأسلوب الى درجة السطحية والابتذال والمباشرة ، أحياناً أخرى ، على عكس رأي شارح الديوان في أسلوب الشاعر . قال : « والذي أراه ان شعر حسان في الاسلام لا يقل في جزالته عن شعره في الجاهلية . . اما الأصمعي فيرى ، مثلنا ، ان في شعر حسان المسلم ليناً وضعفاً . ونحن نزيد ان فيه قصر نظر وضعف خيال ، وفهماً سطحياً لحقائق الأحداث المستجدة . وقد بينا ذلك قبل قليل .

(١) لحسان في رثاء أبي بكر هذه المقطوعة الرقيقة :

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة فاذكر اخاك أبا بكر بما فعلا
التالي الثاني المحمود سيرته وأول الناس منهم صنق الرسلا
وثاني اثنين في الغار النيف وقد طاف العدو به اذ صعد الجبلا
وكان جب رسول الله قد علموا خبر البرية لم يعدل به رجلا

ولن نقف عند آراء الاقدمين فيه ، فهي ، كما
تعرف ، اعتباطية ، ارتجالية ، لا قيمة لها اليوم .
وربما اعتمدت البيت الواحد ، او المكانة الاجتماعية ،
لتفضيل شاعر على شاعر . كرأي الحطيئة الذي قال
يوماً : ابلغوا الانصار ان شاعرهم اشعر العرب حيث
يقول :

يُغشَّون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

وعفا الله ، بهذا البيت ، عن جميع السقطات !

ويقول الأصمعي : « الشعر نكد ، يقوى في الشر ،
ويسهل ، فإذا دخل الخير ضعف ولان . هذا حسان
فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط
شعره » . هذا ايضا ليس صحيحاً . السر ، دائماً ،
يكمن في الموهبة والاستعداد والرفض او تقبل
الحدث . والارتفاع الى مستواه والتفاعل معه . .

ولعل كلمة « نكد » التي اطلقها الأصمعي تقابل
عندنا كلمة « معاناة » وان لم يقصد الأصمعي ذلك . إذ
أن الشعر نكد فعلاً ومعاناة ، وقدرة فائقة على تحويلهما
الى تجربة والتجربة الى « شعر » . . اما المرور مرور

الكرام بالأشياء والمعاني ، اما المباشرة والعفوية
و«تناول الشعر من الكم» كما قال يوماً أبو العتاهية..
فهذا ليس من الشعر في شيء . ولعل حسان لم يسمع
بما قاله معاصره الحطيئة في تعريف الشعر ، او لعله
سمعه ولم يعمل به « قال الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه
يريد أن يعرّبه ، فيعجمه

===== الخمرتان :

والحق ، اننا لا نجد حسان الشاعر ، في
الاسلام ، كما نجده في الجاهلية . لقد ضاع في
الاسلام ، وتبدد تحت وهج الحدث ، ولم يستطع ان
يصمد .. قال شعراً كثيراً ، في النبي ودعوته ودعائه ،
ويا ليت له لم يقل .. حين فقد صفة « الشاعر » واكتسب
صفة المؤرخ والناظم دون رصد دقيق ..

في الجاهلية ، كما رأينا ، ظل شاعراً موصول
الكيان بالزمان والمكان والأشخاص ، لصيقاً ببيئته
وأشائها ، ذائباً في صميمها ، وإن لم يرفضها ؛

يتحدث إليها وتتحدث إليه في مناجاة ، وحب
ومشاركة . لم تشخ شاعريته ، بعد ، ولم يذو شبابه .
تقبل الحياة الحضرية ، بلا شروط ، وتذوق لذائذها بلا
قيود . وشرب الخمرة مع كبار شاريها بلا تحريم . .
احب ، وفتك ، وعريد ، ثم صاغ كل هذه التجارب
شعراً . . ولئن كان لم يحسن الصياغة كالأعشى والنابغة
وطرفة والحطيئة ، الا انه ، مثلهم ، ظل شاعراً . .

وجاء الإسلام فاستبدل خمرة بخمرة : خمرة مادية
بخمرة روحية . . غير أن هذه الخمرة الروحية لم تفعل
فعلها فيه ، بعد ان نضب عوده ، او كاد ، وجف
حلقه ، وتبلد ذهنه ، وتلّهى بسفاسف الدهجاء
الاخلاقي ، ولم يَرْقَ الى مديح نبوي معقول . ووصف
للأحداث الاسلامية الكبرى مقبول . .

لم يعد ، في الاسلام ، يرى الأشياء بوضوح . .
شح بصره ، ثم غار . . وجمدت بصيرته ثم بارت . .
كان له ، في الجاهلية ، شيطان مريد هو الشيصبان ،
يوحى اليه ويستوحي منه رموز الشر والفتك ، والخمرة ،
والهجاء . اما في الاسلام فقد بطلت اسطورة الجن
التي توحى ، واستبدل وحي بوحي . وحي السماء هذه
المرة الذي ينزل الآيات تنزيلاً على النبي وحفظة الوحي

وسدنة القرآن . وحل محل الشيصبان جبريل والملائكة
الذين يسبحون الله بكرة وأصيلاً ، وقد يتجسدون بأمر
ربهم ، فيشتركون في القتال على الأرض ، مع جيش
النبي . . امام هذا الجو الروحاني المدهش والمثير ، لم
يستطع حسان ، كشاعر ، ان يرقى اليه ، ويستوحى مع
المستوحين ويستلهم مع المستلهمين .

قال حسان وكانت السعلاة^(١) لقيته في بعض ازقة
المدينة ، فصرعته . . وقعدت على صدره ، وقالت له :
انت الذي يأمل قومك ان تكون شاعرهم ؟ فقال :
نعم . قالت : والله لا ينجيك مني إلا أن تقول ثلاثة
أبيات على روي واحد . فقال حسان :

إذا ما ترعرع فينا الغلام
فما إن يُقال له من هو^(٢)
فقلت : ثنه ، فقال :

إذا لم يسد قبل شد الإزار
فذلك فينا الذي لا هو^(٣)

(١) السعلاة : انثى الجن . وقيل هي ساحرة الجن ، وهي الغول . ويقال :
استسعلت المرأة صارت كالسعلاة خبثاً او قوة تأثير ، وسحر . .

(٢) يعني به « من هو » انه صار معروفاً بالنجدة والفضل . او : اشهر من أن يُعرف .

(٣) الذي لا هو اي الذي ليس متأهلاً لدخيل فينا .

قالت : ثلثه . فقال :

ولي صاحب من بني الشيصبان
فطوراً أقول ، وطوراً هوه^(١)
فما معنى هذه الحوارية الشيطانية بين الشاعر
والشيصبان؟.

معناها ان خيال الجاهلي على مستوى من الرقي
الميثولوجي ، إذا صح التعبير ، إلى درجة التخيل ،
والتخيل ، وتمثل عالم مسحور ساحر ، متجسد في
مجتمع وادي عبقر ، حيث يعيش الجن من كل نوع . .
ويتوزعون على كل شاعر « عبقري » او يتلبسونه ،
ومنهم حسان . .

فإذا ما قالوا شعراً راقياً نسبوه إلى هذا العالم
السحري ، لا سيما في الغزل ، والخمرة ، والفخر .

(١) الأخ أو الصاحب من الجن هو شيطان الشاعر الجاهلي الذي يوحى اليه الشعر .
وكان يسمى تابعاً ورثياً . وكان للفرزدق شيطانان هما : الهوجل والهوير .
وشيطان الأعشي : مسحل والشيصبان : قبيلة من الجن ، ومنها شيطان
حسان . وشيطان بشار : ستناق . يصف حسان شيطانه بأنه عالم خبير حين
يوشي كلامه أحسن الوشي :

واخي من الجن البصير اذا
حال الكلام بأحسن الجبّير
(الوشي)

وكلما كان الشاعر قادراً على الاستيحاء من هذا العالم
كان « مجنوناً » قد داخله الجن ، وأصبح مسكوناً به . .
لا يملك معه إلا أن يكون شاعراً . .

ولعمري ما كان ذلك ، في الحقيقة ، إلا بفعل
نشوة ، أو صبوة ، أو عزة في الاثم تملأها الشاعر
الجاهلي وسما بها أو سمت به ، فخيّل إليه أن « شيئاً
ما » « روحاً ما » تملكه ، هناك ، وانتشله ، هنيهات ،
من عالمه الأرضي الضيق الكثيب . . ثم أوحى له بما
يريد وبما يشتهي . . وتمت له غيبوبة ونشوة ، في عالم
سماه ، بعد صحوه : جنأ !

هاتها لم تقتل ! : من خمريات حسان في
الجاهلية :

قال بعد أن فرغ في مدح الغساسة :

ولقد شربتُ الخمر من حانوتها
صهباء صافيةً كطعم الفلفل
يسعى علي بكأسها متنطف
فيعلني منها ، ولو لم انهل
ان التي ناولتني فرددتها
قتلت ، قُتلت ، فهاتها لم تقتل . .

كلتاها حلبُ العصير فعاطني
بزجاجة ارخاهما للمِفْصَلِ
بزجاجة رقصت بما في قعرها
رقص القلوصِ براكب مستعجل
ثم ختمها بالفخر قائلاً :

نسبي أصيلٌ في الكرام ومذودي
تكوي مواسمه جنوب المصطلي
ولقد تقلدنا العشيرة امرها
ونسود يوم النائبات ونعتلي
ويسود سيدنا جنحاج سادة
ويصيب قائلنا سواء المَفْصِلِ
ونحاول الأمر المهم خطابه
فيهم ونفصل كلُّ أمر مُعضل
وتزور أبواب الملوك ركابنا
ومتى نحكم في البرية نَعْدِلِ

انه يراوح باعتزاز ، بين نشوات ثلاث : نشوته
بالانتساب الى تلك العصابة في جلق .. ونشوته بخمرة
حرفٍ ينهلها من يد غلامية نطف أو غلام .. بعد أن رد
تلك الخمرة المقتولة بالماء واستبدلها بخمرة غير

مقتولة ! ونشوته بسيادة قومه بني النجار على قبائل الازد
والاوس والخزرج ومن يليهم من عرب الجزيرة .. الى
درجة انهم يحكمون في رقاب الناس فيعدلون ولا
يجورون ..

يعظ سكراناً :

وممسكٍ بصداعِ الرأسِ مِنْ سُكْرِ
ناديته وهو مغلوبٌ فغداني
لما صحا وتراخى العيش ، قلتُ له
إن الحياة ، وإن الموت مثلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كلَّ عيشٍ صالحٍ فإن

ولكنها موعظة تغري بالخمرة ، ولا تنهى عنها ،
يتقبلها الممخور بالشكر رغم الصداع الذي تسببه : .
وما دامت الحياة والموت سيان وكلاهما في الحقيقة
موت ، فلا بأس من اقتناص الفرصة بين موت
وموت .. مذهب حسان جاهلي سيصبح بعد قرن من
الزمان مذهباً نواسياً ، ثم خَيَّامياً .. وكان من قبل مدار
فلسفة يونان ورومان .. وسراً من أسرار عقائدهم
الميثولوجية وأساطيرهم : فللخمرة عندهم آلهة وملائكة

سقاة ، وطقوس ومراسيم . . تحيي وتميت وتنصر
الأبطال في الحروب . . .

✓ يعيش مع الخمرة شرباً وشعراً : =====

دخل يوماً بيت خمار بالشام ومعه الأعشى . فاشترى
خمراً وشربا . فنام حسان . ثم انتبه ، فسمع الأعشى
يقول للخمار : كره الشيخ الغُرم . . فتركه حسان حتى
نام . ثم اشترى خمراً الخمار كلها ، ثم سكبها في
البيت حتى سالت تحت الأعشى . . فعلم انه سمع
كلامه ، فاعتذر إليه .

فأنشأ حسان يفتخر ويهجو :

ولسنا بِشَرْبٍ فوقهم ظل بُردة
يعدون للحنوت تيساً مُفَصداً^(١)
ولكننا شرب كرام ، إذا انتشوا
أهانوا الصريح ، والسديف المسرهدا^(٢)

(١) من الفصد: شق العرق ليخرج منه دم فيشرب . . وكانت العرب تفعل ذلك ،
أيام الشدة : يقصدون البعير ، فإذا خرج الدم سخنوه وأكلوه ويقول حسان : لسنا
بشرب صعاليك ، يقصدون التيس ويأكلون دمه . .
(٢) السديف : السنام . المسرهد : المُقطع

وتحسبهم ماتوا زمين حليلة
 وإن تأتهم تحمذ ندامتهم غدا
 وإن جثتهم ألفيت حول بيوتهم
 من المسك والجادي ، فتيماً مبددا^(١)
 ترى فوق أثناء الزرابي ساقطاً
 نعالاً وقسواً ، وربطاً معصدا^(٢)
 وذا نطف يسعى ملصقاً خده
 بدياجة تكفافها قد تقددا^(٣)

أنشودة للشباب المنصرم ، والذكريات :

إن شرخ الشباب ، والشعر الأ
 سود ما لم يعاص كان جنوناً^(٤)
 ما التصابي على المشيب ، وقد قل
 بت من ذاك أظهرأ وبطونا

(١) الجادي : الزعفران . وقيل له الجادي نسبة الى قرية بالهام بنبت فيها .
 (٢) الزرابي : الظاني . الربط : المنديل . قسوا : خفاف ، لا واحد له .

(٣) ذونطف : الغلام المقروط . النطف : القرط . الدياجة : الثياب المتخفة من
 الأبريسم . مقددة : مقطعة .

(٤) ما لم يعاص : ما لم يرتكب المعاصي .

إن يكن غُثٌّ من رُقاشٍ حديثٌ
 فبما نأكل الحديث سميناً . (١)
 وانتصبنا نواصيَّ اللهو يوماً
 وبعثنا جناتنا يجتنونا
 فجنونا جُنَى شهيأ حلياً
 وقضوا جوعهم وما يأكلونا
 وامين حدثته سِرُّ نفسي
 فرعاه حفظ الأمين الأمينا

جغرافية الحبيب :

قال يمدح صديقه الأثير الأعز جَبَلَةَ بَنِ الأبهم ،
 مبتدأ بوصف ديار الغساسنة أنسابه وأجائه . داراً داراً
 وموقعاً موقعاً :

لمن الدار أوحشت بمَعانٍ
 بين أعلى اليرموك فالخمانِ
 فالقريّات من بلاش فدارٍ
 يّا ، فسكاء ، فالقصور الدواني

(١) رُقاش : اسم المغنية . يقول : اذا كان حديث رُقاش قد غث وفد ، وهي أحلى
 من في الحانوت ، فأني حديث بعد سمين ممتع . لعله يقصد : انه لا غناء في
 التصابي بعد المشيب ..

فَقِفْنَا جَاسِم ، فَأُودِبَةُ الصُّفْرِ
 مَغْنَى قِبَائِلٍ وَهَجَانٌ^(١)
 تِلْكَ دَارُ الْعَزِيزِ بَعْدَ أَنْيْسٍ
 وَحُلُولٍ عَظِيمَةٍ الْأَرْكَانِ
 ثَكَلَتْ أُمَّهُمْ ، وَقَدْ ثَكَلَتْهُمْ
 يَوْمَ حَلَوْا بِحَارِثِ الْجَوْلَانِ^(٢)
 قَدْ دَنَا الْفَصْحُ فَالْوَلَاءُ يُنْظَمُ
 سِرَاعًا أَكَلَتِ الْمَرْجَانِ^(٣)
 يَجْتَنِينَ الْجَادِيَّ فِي نَقَبِ الرِّبْطِ
 عَلَيْهَا مَجَاسِدُ الْكَتَّانِ
 لَمْ يُعَلِّلْنَ بِالْمَغَافِرِ وَالصُّمُغِ ،
 وَلَا نَقَفٍ حَنْظَلِ الشُّرْيَانِ^(٤)

(١) كل هذه مواضع بأكتاف دمشق كانت مقرمك آل جفنة الغساسنة ؛ والمعنى : المنزل الذي غني به اهله ، اي أقاموا ، ثم طعنوا عنه . والقبائل ، هنا ، الرؤساء من قولهم : فلان قبيل القوم أي عريقهم . وقوم هجان ، ورجل هجان ، ايض كريمة النسب نقية . والهجاف من كل شيء الخالص .

(٢) هو الحارث بن أبي شمر الغساني .

(٣) الفصح عند النصارى عيد ذكرى قيامة السيد المسيح . الأكله : جمع اكليل .

(٤) المغافر : صمغ يسيل من الحنظل . ونقفه : كسره ' استخراج ما فيه . يقول : ان ولادهم شأنهم ان ينظمن الحللى واكلة المِجان ويصطبغون بالزعفران كأنه على ثيابين الأزهار قد اجتنيها ، ولسن ممن يجتني صمغ المغافر وينقن الحنظل كالبديوات .

ذاك مغنى من آل جفنة في
 الدهر ، وحق تعاقب الأزمان
 قد أراني هناك حق مكين
 عند ذي التاج مجلسي ومكاني
 ذكريات اليمّة تعاوده كلما تاق الى حياة
 الجاهلية .. حياة لم تكن ، في الواقع ، حياة عادية ..
 كانت له ، عند الغساسنة مهرجاناً ربيعياً ، عاشه حلماً ؛
 ولم يعيشه واقعاً بليداً تنقضي لذا ذاته إذا ما مضى
 وانقضى ، وتتقطع في حواسه ، اسبابه ..
 كل شيء ما زال ماثلاً في حس الباصرة والبصيرة :
 الدار ، وقد أوحشت ، في مكان ، هناك في أعلى
 اليرموك ، فالقرىات من بلاس : . ووديان الصُّفَر ،
 فداريا ، فسكاء . فالقصور الدواني .. ها هي أعياد
 الفصح تُقبل بكل أفراحها وطقوسها : صبايا القصر
 يسرعن في جمع أكاليل المرجان ! وجني الزعفران ،
 يصطبغن به كأنه على أنوار من أزهار وورود .. صبايا
 تحضر ناعمات ، لا تلتطخ أيديهن « ضافر »
 وصموغ ، ولا نقف حنظل ، شيمة البدويات في
 الصحراء الجديد .. كيف لا ! وهن في مغاني
 الغساسنة ورياضهم عند جِلْتِ وبصرى والجولان

والجايبة .. آه ! .. هناك كان مجلسي ومكاني .. بين
يدي اجبتي ولداتٍ صباي .. لكنها الأيام ، وتعاقب
الأزمان ..

غزله :

لم يكن حسان ، في شبابه ، زيرَ نساء ، كامرىء
القيس مثلاً ؛ ولا كان « حصوراً » كابن المعطل . وكان
على قدر من جمال الطلعة ملفت لفتيات المدينة حيث
ترعرع ، وجلق ، حيث عاش أكثر أيام شبابه . وصفه
الرواة بأنه كان ذا لحية سوداء ، وناصية (او غرة) قد
سدلها بين عينيه ، وعشرون مخضب بالحناء ؛ لكي
يبدو ، كما قال لابنه : « كأنه أسد والغ في دم .. »
اميل الى الطول ، منه الى القصر .. وقد مرَّ معنا
ذلك . هذا من حيث الشكل والهندام .. اما من حيث
الموضوع ، او الصفات والشمائل : فقد كان كريم
العنصر ، طيب الأرومة ، نبيل النفس ، وفيأ ، حاضر
النكتة ، يتميز بجرأة أدبية ملحوظة ، كما رأينا ، فكيف
به مع النساء ! ناهيك بقريحته الفياضة ، وشاعريته
الموروثة عن آبائه وأجداده الذين كانوا كلهم شعراء ..
وحتى اخته وابنه وابنته^(١) .

(١) يؤكد ذلك المبرد في قوله : « واعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ، فانهم
يُعْتَدُونَ سَنَةً في نسق كلهم شاعر » .

إذن : شباب ريان ، وشاعرية ، ومكانة ، وغنى . .
 فماذا ينقصه كيلا يفتك ، ويشبب ، ويلهو ؟ لا شيء
 سوى أن يكون فظاً غليظاً مع الفتيات ، لا يحسن
 الحديث إليهن ، أو التغزل بهن ، أو أن لا يكون قد
 أحب فعلاً . . نرجح أن لا . . ولا نؤكد . . وعذرنا أن
 آثار حسان الجاهلي من غزل وخمر ومجون شحيحة
 جداً . . ربما طمسها الرواة كيلا تنسب لشاعرٍ أصبح ،
 في الاسلام ، شاعر الرسول الأول ، والناطق باسم
 الدين الجديد ، أمام المشركين وربما كان ذلك عن
 عمد . فنحن نقلب أخباره في الأغاني فلا نجد له شيئاً
 من هذا القبيل ؛ وكذلك في المراجع القديمة الأخرى .
 وهذا ديوانه ، وشرح ديوانه ليس فيهما ما يُغني . . إذ لا
 يعقل أن يكون شاعر كحسان توفرت له ، في
 الجاهلية ، كل أسباب الفتك والمجون والعريضة ، ولا
 يفتك أو يعربد أو يحب ثم يصف كل ذلك شعراً . . .

حادثة واحدة ، يذكرها الاغاني ، وهي مبيته مع
 الأعشى في خمارة^(١) . وها نحن نثبت ما جاء في
 ديوانه أو شرح ديوانه من الغزليات ، وهو قليل جداً .

(١) ورد ذكرها في هذه الدراسة

ولا نقف، طبعاً، على ما جاء في مطالع مدحياته أو
فخرياته من غزل تقليدي ولو ورد فيه اسم صاحبه
شعثناء . .

قال يصف همومه الليلية بعد هجر شعثناء له :

تطاول بالخمّان ليلى، فلم تكن
تهم هوادي نجمه ان تصوّيا^(١)
أبيتُ ازاعبها كأنني موكل
بها، لا أريد النومَ حتى تُغيبا
إذا غار منها كوكب بعد كوكب
تراقب عيني آخر الليل كوكبا
غوائر تترى في نجوم تخالها
مع الصبح تتلوها زواحف لُغبا
أخاف مفاجأة الفراق بيغتة
وصرف النوى من أن تشت وتشتعا
وأيقنت لما قوض الحي خيمهم
بروعاتٍ بين يترك الرأس أشيبا

(١) الجمّان : موضع بالقرب من دمشق (شرح الديوان) .

واسمعك الداعي الفصيح بفرقة
 وقد جنحت شمس النهار لِتَغْرِبَا
 وَبَيَّنَّ فِي صَوْتِ الْغَرَابِ اغْتِرَابَهُمْ
 عَشِيَّةً أَوْ فِي غَضَنِ بَانٍ فَطَرَبَا
 وكدت غداة الين يغلبني الهوى
 اعالج نفسي ان اقوم فأركبَا
 وكيف ولا ينسى التصابي بعدما
 تجاوز رأس الأربعين وجربَا
 وقد بان ما يأتي من الأمر واكتست
 مفارقه لوناً من الشيب مُغْرِبَا^(١)
 اتجمعُ شوقاً ان تراخت بها النوى
 وصدأ إذا ما اسقبت وتجنُّبَا^(٢)
 إذا انبت أسباب الهوى وتصدعت
 عصا البين ، لم تَسْطِغْ لشعشاء مطلبَا
 وكيف تصدي المرء ذي اللب للصبا
 وليس بمعذور إذا ما تطربَا

(١) المُغْرِبُ : الأبيض .

(٢) اسقبت : بالسين أو بالصاد : من السقب : الدنو.المصاقبة : المقاربة .

اطيلُ اجنسابا عنهم غيرُ بُغضه
ولكن بُقياً رهبةً وتصحباً^(١)

وهي كما ترى غزلية عادية لشاعر هجرته حبيسته
بعد أن بلغ الأربعين ، فلم يبق له سوى التصابي والتأوه
وذرف الدموع . ولا أرى فيها شيئاً من خصوصية الشاعر
ولا من لوعته الحقيقية وإذا ما كان قد أحب شعشاء
فعلاً ، أم لا . . كما أنها يمكن أن تنسب إلى أي شاعر
جاهلي مخضرم ، أو اسلامي ، غير حسان . .

مرّ الشاعر بنسوة ذات يوم فيهن عمرة^(٢) وكان
خطبها سراً ، فاعرضت عنه . . وقالت لامرأة منهن : إذا
حاذاك هذا الرجل فسله من هو ، وانسي أحواله . فلما
حاذاها سألته من هو ، فانتسب وسألته عن أحواله
فأخبرها فاعرضت عنه فحدد لها حسان النظر ، وعجب
من فعلها بامرأته وهي تضحك فعرفها ، وعلم ان الأمر
من قبيلها . فقال :

(١) البقيا : الإبقاء . والتصحب : التمتع من الصبغة .

(٢) هي عمرة نبت العصامت بن خالد بن عطية تزوجها حسان ثم طلقها ثم اتبعها
نفسه . وهي ليست عمرة بنت رواحة اخت عبد الله بن رواحة (من شعراء
الرسول) والتي شيب بها الشاعر قيس بن الخطيم .

قالت له يوماً تخاطبه
 نفجُ الحقيبة عادةً الصلب^(١)
 اما الوَسامة والمروءة أو
 رأي الرجال ، فقد بدا - حسي
 فوددتُ انك لو تخبرنا
 من والداك ، ومنصب الشعب^(٢)
 فضحكت ثم رفعت منصلاً
 صوتي أوآن المنطق الشغب^(٣) :
 جدي أبو ليلى . ووالده
 عمرو ، واخوالي بنو كعب
 وانا من القوم الذين اذا
 ازم الشتاء محالف الجذب

(١) نفجُ الحقيبة : عزيمة العجز . الصلب : عظم في مقدم أعلى الظهر .
 (٢) المنصب : الأصل ومثله النصابي . والشعب : أبو القبائل فهو اكبر من القبيلة .
 ويأتي التسلسل هكذا حسب ترتيب الزبير بن بكار : الشعب - القبيلة -
 العمولة - البطن - الفخذ - الفصيلة . وهي على ترتيب خلق الانسان . .
 فالشعب اعظمها مشتق من شعب الرأس . ثم القبيلة من قبيلة الرأي
 لاجتماعها ، ثم العمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العضلية وهي
 الساق . .
 (٣) الشغب (بسكون الغين) تهيج الشر والعامه تفتح .

اعطى ذوو الأموال معسرهم
والضاربين بموطن الرعب
حوارية لا بأس بها ، فيها من الخصوصية والرقّة
والذوق الشيء الكثير ، كما أن فيها غلو الشباب
وغلوّاه ، سيما ذلك الشباب المعتز ، أمام عمرة ،
بأرومته المتجذرة في أعماق العز والرفعة والكرم ، ابتداء
من جده أبي ليلى : النجار أو تيم الله ، ووالده
عمرو بن عامر ، وانتهاء بأخواله بني كعب بن الخزرج
بن ساعدة . وتعجّني تلك الضحكة الانكازية من فتى
مشاغب عز عليه أن تزري به عمرة امام صويحباتها
فانتفض رافعاً صوته منتخياً بنسبه ، معدداً مآثر قومه
الذين إذا شتوا بذلوا أموالهم للمعسرين ، وإذا خاضوا
الحروب ضربوا في مواطن الرعب ، أي في صميم
قلوب الاعداء . . وهي كناية رائعة وفق اليها الشاعر ،
تذكرني بكناية مثلها لأبي عبادة البحتري في صراعه مع
الذئب ، حيث يقول : فاتبعْتُها أخرى ، فاضللتُ نَصْلَها
بحيث يكون اللب والرعب والحقْد^(١) وتنتهي المباراة
والمباهلة بسكوت عمرة وانتصار حسان الفتى المدل

(١) انظر كتابنا: البحتري بين البركة والايمان. ص ١٢٦ الناشر: دار
ومكبة الهلال - بيروت ١٩٨٢.

المشاغب . كما ينتصر الفن والشعر عند حسان ،
ربما ، لأول مرة في غزله ، ذلك لأن سائره وقوف على
الاطلال ، ومطالع غزلية مصطنعة لا رصيد لها من
صدق أو فن . .

ومن فخرية له هذا المطلع الغزلي الدقيق الوصف
لمفاتن « النضيرة » بنت القصور وكأنه يعرفها من
ملاصقة ومعايشة ، غزله هذا لا يثير بقدر ما يعجب .
لقد نحت للنضيرة تمثالاً دقيق التفاصيل ، ولكنه من
مرمر ليس فيه حياة ، كما صور لنا نفسه ذلك البدوي
الضارب في الصحراء على هدى الخير سعياً الى قصر
الحبيب النضير :

حي النضيرة ربة الحذر
اسرت إليك ، ولم تكن تسري
فوقفت بالبيداء أسألها
إنني اهتديت لمنزل السفّر
والعيش قد رفضت ازمتها
مما يرون بها من الفتر
وعلت مساويها محاسنها
مما اضربها من الضمر

كنا اذا ركذ النهار لنا
نغتاله بنجائب صعر
عوج . نواج يعتلين بنا
يمضين دون النص والزجر
مستقبلات كل هاجرة
ينفحن في حلق من الصفر
إلى أن يقول :

فإذا الحوادث لا تضعفني
ولا يضيق بحاجتي صدري
يعيي سقاطي من يوازيني
إنني لعمرك لست بالهذر
إنني أكارم من يكارمني
وعلى المكاشح ينتحي ظفري
لا أسرق الشعراء ما نطقوا
بل لا يوافق شعرهم شعري
إنني أبى لي ذلكم حسبي
ومقالة كمقاطع الصخر
وأخي من الجن البصير إذا
حال الكلام بأحسن الحبر

أنفيسر ما بينسي وبينكسم
صمرم ، وما أحدثت من هجر
جودي فإن الجود مكرمة
واجزي النحسام ببعض ما يفري
وحلفت لا أنساكم أبداً
ما رد طرف العين ذو شفر
وحلفت ما أنسى حديثك ما
ذكر الغوي لذاذة الخمر
ولأنت أحسن ما برزت لنا
يوم الخروج بساحة القصر
من درة أعلى الملوك بها
مما ترَبَّبَ حائرُ البحر
ممكورة الساقين شبههما
برديتا متحير غمر
تنمي كما تنمي أرومتها
بمحل أهل المجد والفخر
يعتادني شوق فاذاكرها
من غير ما نسب ولا صهر
كتذكر الصادي وليس له
ماء بقنة شاق وعمر

ولقد تجالسني فيمنعني
ضيق الذراع وعلة الخفر
لو كنت لا تهوين لم تردي
او كنت ما تلوين في وكر
لأثيته لا بد ، طالبه
فاقني حياءك واقبلي عذري
قل للنضيرة ان عرضت لها
ليس الجواد بصاحب النزر
قومي بنو النجار رفدهم
حسن ، وهم لي حاضرو النصر
جرثومة عز معاقلها
كنايت لنا في سالف الدهر

===== الحكمة عند حسان :

لم تكن « الحكمة » عند حسان « عملاً شعرياً
مراعياً مستقلاً عن عمل الحدس واللاوعي وانبثاق
العاطفة كما فعل المتنبي ، مثلاً ، في تجربته العقلية »
او « تجربته الشعورية المعقلنة » إذا صح التعبير بمعنى
ان حسان لم يكن يختزن في أعماقه ثقافة أو معرفة
مميزة ترفده ، حين يمدح ، أو يتغزل أو يرثي أو

يهجو ، بقيم جاهزة يثها في تضاعيف هذه الموضوعات ، فإذا بها حكمة أو رأي أو موقف . . كانت روافده ، في الجاهلية « معلومات » أكثر منها ، ثقافة ، اقتبسها من عادات وقيم الغساسنة وفي الاسلام رافداه ، الأوحدان : القرآن وشخصية النبي .

الحكمة فلسفة ملمومة تختصر فهم الشاعر للمجتمع على نحو ما ، والكون على نمط تفكير خاص أو عام . . فإذا كان الشاعر منسجماً مع قيم المجتمع وسنن الطبيعة ، جاءت حكمته أو فلسفته تقليدية مكرورة ليس لها سوى إطارها الفني الذي يتميز به الشاعر المبدع . أما إذا كان الشاعر في موقف الرفض أو المصطدم بهذه القيم فتأتي حكمته نتيجة تفاعل شديد معها . . وهذا يعني مرور الشاعر بتجربة فكرية وشعورية مرة مرارة المعاناة والألم .

على أن من آفات الحكمة التي هي وليدة « العمل الفكري » في الشعر ، انها تحد من عفوية التفجر الشعوري ، مما يعيق تدفق التجربة ويثقلها ببعض الفلسفة ومآحكات المنطق . ويربط عملية الإيحاء والاستيحاء بقيود التفكير والتجريد الذهني البطيء .

لا بأس أن تأتي الحكمة ، كما عند المتنبي ،
نتيجة انفعال الشاعر بالمعاني انفعالاً شديداً ، ثم يتلقاها
العقل المثقف ، في عملية تسلم وتسليم فيصوغها
حكمة ، على أن نشعر نحن بذلك وليس الشاعر ..
وان تنساب الحكمة انسياباً خفياً ، ثم تطفو على
السطح ، هكذا ، ويدون أن يشعر المتلقي بأن من
يرسلها إليه لا يتعمدها تعمداً ..

وأسوأ الحُكم ، هي التي يتعمد الشاعر أن يختم
بها قصيدته .. وكأنه خطيب واعظ يريد ، قبل أن يغادر
المنبر ، ان يثير تصفيق الجمهور ، بعد أن أثاره قرفاً
وانزعاجاً ..

فمن أي صنف كان حسان الحكيم ؟

من الانصاف للشاعر أن نقول أنه كان يمر في
حالات توتر كثيب واستفزاز من بعض الموتورين ،
فينبيري لرد التهم الباطلة عن نفسه ، وليس من
الضروري أن يكون بعضها تهمة الجبن^(١) ينبيري وهو
في حال من التأثر والهيجان ونبرة الاستعلاء بحيث يأتي

(١) كما أكدنا بطلانها في فصل سابق .

دفاعه عن نفسه وكرامته متوجاً بالحكمة ، أو مصطبغاً
بها . فهو حين قال :

وان امرءاً يمسي ويصبح سالماً
من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد
كان يعبر عن ألم دفين عاناه ، من أولئك الظالمين الذين
شنعوا عليه في كثير من صفاته ومواقفه . انها صرخة
المظلوم ، في كل زمان ومكان ، وآهة البريء المعجى
عليه ، في كل أوان .. هذه الحكمة هي من الحرارة
والصدق والشمول بحيث لم نعد نشعر أنها تعبير عن
حالة خاصة لشاعر معين ، بل هي لسان حالنا ، نحن ،
في زمنٍ : السلامة من الناس ، وألسنة الناس ، ربح
عظيم .. والبعد عنهم فردوس مقيم ..

وحين تلهى الابن والحفيد بهذه الحكمة فرخت
لهما حكمة مماثلة ، ولكنها جاءت باردة ، برودة
صاحبها . يقال إن عبد الرحمن بن حسان ، وكان
شاعراً ، أراد أن يباري أباه في حكمته ، فنسخها ، إن
لم نقل مسخها .. فأصبحت ، على لسانه ، هكذا :

وإن امرءاً نال الغنى ثم لم ينل
صديقاً ، ولا ذا حاجة لزهد
(الزهد : اللثيم)

ثم جاء الحفيد وهو سعيد بن عبد الرحمان فصاغها
كما يلي :

وإن امرءا لاحى الرجال على الغنى
ولم يسأل الله الغنى ، لحسود
اما ابنة حسان ، وكانت أيضاً شاعرة ، فلم تتدخل
في هذه اللعبة . . ربما حدث ذلك بعد وفاتها . . من
يدري . .

وفي الاسلام انقلبت حكمته رأياً تقريرياً ، أو عظة
مأخوذة من القرآن والحديث . لا قيمة لها في ميزان
الشعر ، كقوله :

هداهم به بعد الضلالة ربهم
وارشدهم ، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهاوا
عمى ، وهداة يهتدون بمهتدي
وقوله :

أرى كثرة المعروف يورث أهله
وسود عصر السوء غير المسود
إذا المرء لم يفضل ، ولم يلق نجدة
مع القوم ، فليقعد بصغر ، ويتعد

وانني لأغنى الناس عن متكلف
يرى الناس ضلالاً وليس بمهتدي

وينسخ قول لبيد وغير لبيد فيقول :

فما المال والاخلاق إلا معارة
فما اسطعت في معروفها فتزود

وليبد يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بد يوماً أن ترد السودائع

وفي قول لبيد رمز بعيد لما افصح عنه حسان في
الشطر الثاني من بيته .. ويبلغ من التقريرية الثرية
مداها حين يقول :

متى ما اتيت الأمر من غير بابيه
ضللت، وان تدخل من الباب تهتدي

انه ينظم القول المأثور : ادخلوا البيوت من
أبوابها .. ولا ينزید شيئاً .. لا نعرفه .. ومتى كان
الشعر تفسيراً وإرشاداً أخلاقياً ؟ من المفروض أن يكون
الشاعر أرقى من معاصريه تفكيراً وخيالاً واستيحاء
ورؤياً . حتى إذا عبر عن هذه ، فاجأ معاصريه ، أو

صدمهم ، أو هزهم ، أو اغناهم . اما إذا تحدث إليهم
بما يعرفونه وبما يسمونه « تحصيل حاصل » فلن يحرك
فيهم شيئاً ، ولن يطيل من أعمارهم لحظة واحدة . . .
بل قد يهدر منها لحظات !

وحسان لم يرق في شعره عامة ، وفي حكمته
خاصة ، إلى أرفع من مستوى معاصريه ، بل حدثهم
بما يعرفون وبما يألفون ، وصاغ كل ذلك شعراً ، لا
سيما في الشطر الإسلامي من حياته . وتغنى لهم بمآثر
النبي ويطولات حواريه . وهاجم بخبرة ولباقة وشدة
أعداء الإسلام ، فارضى المسلمين ولكنه لم يُرضِ
الشعر . . كما يجب . .

١٢٩ اعلان مبادئ فروسية :

طالما كان حسان يهذي بشمائل البطل ، ويحيا في
لا وعيه قيما فروسية جاهلية كرسها الاسلام ونادى بها
لأنها تتلاءم مع القيم الاسلامية الجديدة : كعفة
اللسان ، وزباطة الجأش ، والقول الفصل ، والجلود مع
قلة المال ، والعفة والحياء ، واحتمال أذى الدهر ،
والصبر على الجوع ، والبشاشة ، والنجدة الخ . . . ها
هو ينقلها من لا وعيه إلى وعيه ، إلى شعره ، يغني بها

كأنها حقائق ثابتة عاشت فيه وعاش لها وبها ، خصوصا
أمام شعناء :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا
علي لساني، في الخطوب، ولا يدي^(١)
لساني وسيفي صارمان كلاهما
وبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي^(٢)
وإن أك ذا مال قليل أجد به
وإن يُهتَصِرْ عودي على الجهد يُحمَدِ
فلا المال ينسيني حيائي وعفتي
ولا واقعات الدهر يظللن مبردي
أكثرُ أهلي من عيال سواهم
وأطوي على الماء القراح المبرد
وإني لمعط ما وجدت ، وقائلُ
لموقد نارِي ليلة الريح أوقدِ

(١) لم يجرؤ على القول : في الحروب بدل الخطوب . . انسجاماً مع واقعه . فهو
قد يكون بطلاً في الخطوب لا في الحروب . . وفارساً معلماً من فرسان الشعر
والإباء والكرم والعفة والجاه وسوى ذلك . . ما عدا فروسية الحرب وسفك
الدماء . .

(٢) المذود : اللسان . وحقاً ما قال حسان . لسانه قد بلغ من الاعداء ما لا يبلغه
السيف فيهم . . وهكذا عوض بلسانه عما فتده في ذراعه وسيفه .

واني لقوال لدى البث مرحباً
وأهلاً إذا ما جاء من غير مَرَصِدٍ
واني ليدعوني الندى فأجيبه
وأضرب بيض العارضِ المَتَوَقِّدِ^(١)
واني لحلوّ تعتريني مرارة
واني لَتَرَأُكَ لِمَا لَمْ اَعُوْدِ
واني لمزجاء المطيِّ على الوجي
واني لتراك الفراش الممهد

وماذا يملك الشاعر امام الحبيبة سوى أن يغني هذه
النخوة اليعربية والشمائل البدوية التي بلورها الاسلام
وأبقى عليها ؟ ماذا عليه ان حازها كلها وعاشها
وجمدها ، ما عدا واحدة منها . . فليكن اللسان والبيان
والجنان بديلاً عنها وأقوى منها . . ويستوي فيه البطل
والفارس والشاعر على حد سواء . . وليذهب الاعداء
بيطولة السيف وحدها . كما ذهب ذاك الحضور
صفوان . . .

رأيه في الشعر :

الشعر ، في نظر حسان غناء وتطريب . على

(١) بيض العارض : تدفق المطر .

الشاعر أن يجيد تأليفه وإيقاعه ، ليجيد الملحن تلحينه
والمنشد غنائه . قال معلناً رأيه :

تغن بالشعر إما كنت قائله
ان الغناء لهذا الشعر مضمّر

والشعر صدق في القول ، وفي التعبير عن
الشعور ، لا كذب ولا تفيش ، وهو « لب المرء » أي
عقله وجوهر تفكيره :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كَيْساً ، وإن حُمْقاً .
وإن أشعرَ بيتٍ أنتَ قائله
بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

انه رأي متقدم نسبياً حين يقول شاعر كحسان
بموسيقية الشعر وإيقاعيته وحسن وقعه على الاسماع ،
وانه نتاج عقل الانسان وتفكيره . فإن كان هذا العقل
غنياً جاء الشعر غنياً ، وإن كان مفلساً فارغاً أحق جاء
الشعر كذلك . . أما مسألة الصدق الذي يُعنيه حسان
وهو الصدق الاخلاقي فنظرية عفى عليها الزمن . إذ
ليس الشعر ، كما نفهمه اليوم ، تعبيراً عن الحقائق
المادية الملموسة والقيم الأخلاقية المعروفة بقدر ما هو

تصور لها واستيحاء منها ، أو تصادم معها ورفض لها
وارتفاع بها إلى حقائق أخرى يراها الشاعر ولا نراها
نحن . والشاعر بهذا المفهوم يتخطى الحقائق والعرف
والمتداول ، والواقع الى واقع اسمى وارقى يريد له هذا
الانسان الحائر المتخبط في خضم واقعه وجبرية حياته
ونكد عيشه . . وهنا يتجلى صدق آخر هو الصدق الفني
الذي لا قيمة لأي صدق غيره في الشعر .

الشاعر رسول إنقلابي ثائر، بإمكانه تغيير العالم
وتحرير الانسان . .

عفواً حسان أنا لا أطلب منك فهماً للشعر أكثر
مما فهمت . وأشهد أن ما فهمته كان شيئاً رائعاً . .

فهرس

٧٦ ام معبد أشعر	٣ استهلال
٨١ تقييم هجائياته	٨ نشأة حسان
٨٩ هجائية أخرى	١١ - ٩ هوته / كنيته / عمره
٩١ موضوع القصيدة	١٣ قبيلة الشاعر
٩٢ هجائية مروة	١٧ فتش عن اليهود
١٠٠ اين الملحمة	١٩ صفاته
١٠٥ /مذهب حسان	٢٨ عقاب وثواب
١١١ الخمرتان	٣٣ من هذه الروايات
١١٨ /يعيش مع الخمرة	٤٤ /حنينه الى الصبا
١٢٠ جغرافية الحبيب	٤٨ /حسان الجاهلي
١٢٣ /غزله	٥٨ حوار غير متكافي
١٣٣ /الحكمة عند حسان	٥٩ سان والمنافرة
١٣٩ /اعلان مبادئ فروسية	٦٠ خطوة اولى يتيمة
١٤١ /رأيه في الشعر	٦٢ الخطوة الثانية
	٦٧ هزال هذا التفوق فنياً

الْحَشَى
«يُبْصِرُ لَيْلًا»

الموسوعة الأدبية الميسرة

٩

الخشى

«يُبْصِرُ لِيلاً!»

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

دار مكتبة الهلال

بيروت - لبنان

جميع حقوق النقل والاقتباس
والإعادة الطبع محفوظة
لمكتبة الهلال
طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز البناية برج الضامية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب. ٥٠٠٢ / ١٥ برقياً مكتبة الهلال

استهلال :

ابوك قتيل الجوع قيسُ بن جندل
وخالك عبدٌ من خُماعةَ راضعٌ^(١)

قَتَلَ الجوعُ أباه ، وازرت العبودية بخاله ،
وانتصرت عليه اريستوقراطية الوثن ، وصنمية السيادة

(١) خُماعة : بطن من العرب سموا باسم خُماعة بنت جشم بن ربيعة بن زيد
مناة . والراضع : اللثيم .

اما لماذا لقب ابوه بقتيل الجوع فالروايات تقول : ان اباه قيس دخل يوما
مغارة يستظل فيها من الحر فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم
المغارة ، فمات فيها قيس جوعا . فسمي قتل الجوع . والبيت : ابوك
قتيل الجوع .. هو لخصمه ومنافسه جهنم واسمه عمرو وهو من بكر
يعيره فيه بأبيه وخاله .

انظر : ابن قتيبة والاعثاني وطبقات الشعراء وسواها ..

الفوقية، أو هكذا خيل اليهما.. فتحداهما بجوع آخر.. هو
الجوع إلى الشهرة، ونباهة الذكر، ومجد الشعر.. بديلاً
أروع وأخلد.. غطى على جوع الأب وفقره، وعبودية الخال
وهوانه..

وحمل الاعشى همّ الجوعين، وذُلّ الابوين..
لكنه سدّ الجوع الأول بالمحلق، ومن هم فوق المحلق
وتحتة.. وسد الثاني: بالشاعرية المبدعة، وتحقيق
سيادة مضادة، هي سيادة الشعراء الجياع بوجه سيادة
المتخمين من عتاة قريش.. مؤيدة بصداقة الأحبار،
وسدنة الكعبة في نجران، وعُباد الحيرة، وامراء لخم
وغسان، ورفاق الصبا في اليمامة..

ويغيب الشاعر، بعد هذا، في نشوة الخمر
والنصر والشعر، ولا يستفيق منها إلا على نداء شيخ
في اعماقه يهيب به ان يتطهر بالاسلام.. لكن ابا
سفيان كان له بالمرصاد فردّه عن قصده بالمال والدهاء
فعاد.. وما لبث ان سقط ومات ولم يتطهر!

وعاد ليداتُ العمر يسكرون على قبره، كما
اوصى، ثم يغادرون وقد اهرقوا ثمالات كؤوسهم على
ترابه، عله بهذا يروي، كما شاء، عطشه، ويحيا من

جديد متحدثاً ، بالشعر ، والسكر عفونة المكان ،
وقسوة الزمان ، وسخرية الموت ..

ورغم عشا بصره ، رأت بصيرته ، وفتحت
سريره ، فأبصر ليلاً ، سوادَ صحرائه ، ونفذ بشاعريته
الى ابعد ما يراه المبصرون .. نهاراً ..

ولعله لم يتاجرُ بشعره إلا ليجعل لهذا الشعر
« ثمناً » مفروضاً على مَنْ لا يُقدّر الشعرَ من
التافهين .. وليحقق ، بهذا الثمن ، نوعَ حياته
وسيادته ، ويحتفظ بحريته وشاعريته ..

وهكذا كان الشعر في مفهوم الأعشى زاداً يومياً ،
كما كان وسيلة أكثر منه غاية . عليه طابع البريد
اليومي . به يتبلّغ ويبلغ ، يرسل ويوعز بالجواب ،
يحاور ويداور ، ويدافع عن القبيل والعشير ، ويتخلص
من المآزق ..

أما لماذا كان يغني كل ذلك غناءً صاخباً ، وعلى
الصنوج بالذات ؟ فلكي يوقظ النيام ، في نظري ،
ويجمهر حوله الناس ، ويؤكد في حدسه الصافي حقيقةً
في الشعر القديم بارزةً ، هي أن الايقاع وحده لا يكفي ،

وأن تلاوة الشعر، كما في النثر، لا تحرك وحدها القلوب والجيوب..

فلا بد من غنائه غناء مجهوراً ، ليدخل متجاوزاً
الأذان الى الوجدان .. يقول الشاعر الانكليزي وردز
ورث : ان الشاعر حين يغني اغنية ، ينضم اليه فيها
كل بني البشر ، انما يكون بحضرة الحقيقة .

ولعل صناعية العرب كان بغنائه هذا يرضي
حاجتين في نفسه لا حاجة واحدة : يهدد آلامه ،
ويملاً فراغ شبابه ، من جهة ، ويجعل سلاطين المال
والجاه تخضع لسلطان الشعر ، ودولة الشعر ، من جهة
ثانية .. حتى انقلب الشعر الجاهلي على يد ابي بصير
موكباً او مهرجاناً ، ثم سوقاً للمزاد العلني ، الدلال فيه
الشاعر ، والبضاعة الكاسدة مادة المزاد ، واجرة
الدلالة : ضيافة وخمرة وشواء ، وهدايا ثياب حريرية .
ونياق جزورية .. ثم انصرف الى الهدوء في اليوم
التالي ، استعداداً لمزاد آخر على بضاعة اخرى ..
وهكذا .. وقد يكتفي من كل هذه « الهمروجة » بثمن
سكرة في ليلة واحدة .. ولكن مع الرفاق دائماً ..
وعلى حسابه .. بلا حساب .

هويته :

هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل . . بن بكر بن وائل بن أسد بن ربيعة بن نزار . يكنى أبا بصير^(١) وشهرته : اعشى قيس ، واعشى ربيعة ، واعشى بكر ، والأعشى الأكبر ، لأنه أول « العشو »^(٢) واستاذهم . نعت أبوه قيس بقتيل الجوع . اما امه فلا نعرف عنها شيئا نظرا لأن حياة شاعرنا الخاصة ولا سيما

(١) هي عادة عند العرب قديما : يلقبون او يكونون فلانا الاعمى بابي بصير ، تيمنا او تطفلا او تعويضا . والاطرش بسمعان ، والاسود بابي البيضاء . والفلدوغ بالسليم . كما كانوا ، في الجاهلية ، يسمون بعض ولدانهم بأفعى ، وتغلب ، وكلب ، وصخر ، وذئب . او يلصقونه بأحد الأصنام فيجعلونه عبد اله ، كعبد اللات (استبدل في الاسلام بعبد الله) وعبد مناف (مناف اسم لأحد اصنامهم) كل ذلك تسليما بالعبودية ، او تيمنا او تعوذاً وإبعادا لشر هذه الرموز بالانتساب اليها ، والتسمية باسمها .

(٢) تذكر كتب الأدب شعراء كثيرين ممن سمو « بالاعشى » ذكر المستشرق Geyer اثنين وعشرين شاعرا منهم . اما الاغاني فيذكر من هؤلاء « العشو » ثلاثة فقط هم . شاعرنا الاعشى الأكبر . واعشى همدان الذي عاش في الاسلام ايام الامويين واسمه عبد الرحمان ويكنى بأبي المصباح (اغاني ج ٦ ص ٣٣) واعشى بني تغلب واسمه ربيعة (وقيل النعمان) بن نجوان يحيى بن معاوية . كان نصرانيا يتردد بين البدواة والحضارة ما بين الموصل وديار ربيعة ودمشق (بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٣٨) .

نشأته الاولى قد طمست اخبارها .

صفته :

أتصوره في شبابه الاول فتى سويا ، على قدر من
الجمال مقبول ، نشيطا ، معتدا بنفسه ، وشاعريته ،
يجوب اطراف الجزيرة على جَمَل شديد ، ما بين حَضْر
موت والحيرة تارة .. وقريته منفوحة باتجاه كعبة نجران
(او كنيستها) تارة اخرى ...

لا يهدأ له بال ، او يستقر الا عند هؤلاء الكهنة
والسدنة حيث الصحبة الحميمة والخمور المعتقدة .. او
في الحانوت مع الرفاق ، وبين « شلا شيله » وتابعيه
باحسان ، الى ان يفسدوا عليه نشوته وحرите ، فيستبدل
بهم آخرين ... ويبقى وحده « الشلشل » الوحيد
يحاور الكاس والطاس والقينة والساقية ..

كما اتصوره وقد عشي بصره من كثرة ما زنى
وشرب وطاف ، اشعث اغبر مهزولا على غير قوة ..
وكأن عمر بن ابي ربيعة كان يرسم صورة الاعشى ، لا
صورته أمام نُعم ، حيث قال :

رأت رجلاً ، إما اذا الشمس عارضتُ
فيضحي ، وإما في العشي ، فيحسرُ
اخا سَفَرِ جوابِ ارضٍ تقاذفتُ
به فلوات ، فهو أشعثُ أغبرُ
اشعثُ ، اغبرُ ، صحيح .. ولكن في غير
الحروب . بل وصولاً الى حيث يهوى ويتشي ،
ويسترزق ..

لهذا هو اعشى ، بل أعمى ، لا لأنه ذكر كلمة
اعشى في شعره ، كما ظن البعض . ومنهم المستشرق
هفز^(١) . يقول الاعشى :

أأن رأيت رجلاً اعشى اضربه
ريبُ المنون ، ودهر مفند خيلُ
ومن كان هذا دأبه ، طوال حياته ، حري بأن يعشا
ويعمى ويُشل !

ولم يكن الأعشى يعرف الوسط في حياته اللاهية ،
او يلزم حالة واحدة راضيا بها .. بل هو تارة مكساب
متلاف ، وتارة معدم فاقع الاعدام ، يستعيض عن

(١) دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ج ١ ص ٤٨١ .

الخمرة الثمينة ، بالفضيخ والدردى ^(١) ويستعيض باللبن
عن اللحم الغريض . يحفى حيناً ويتعل حيناً ، راضياً
بالحالتين معبراً بحب وقناعة ؛ عنهما :

إما تريننا حفاة لا نعال لنا
إنا كذلك ، ما نحفى ونتعل

ومترجماً دائماً بين جد وعَبَثْ وهو الى العبث
اميل ، يراوح بين كفر وإيمان ، واثبات ونفي ،
ومجوسية ونصرانية ، يذكر الله ويلهج بالتوحيد ..
ولكن بشفاه مخمورة على الدوام !

قبيلته :

عرفنا من سلسلة آبائه واجداده ، انه من قبيلة
بكر بن وائل المتعددة البطون والافخاذ ، والشعب ،
تضرب من وادي الفرات ، الى اليمامة . ومن اهم هذه
الفروع شيبان ، ويشكر ، وجشم ، وعجل ، ثم
حنيفة ، وقيس بن ثعلبة ، وكانتنا تضربان في اليمامة .

(١) الفضيخ والدردى : نوعان رديشان من الخمر (لسان العرب مادة
فضخ) .

ومن قيس تنشعب بنو عبدان ، وبنو كعب ، وربيعة ،
وسعد بن ضبيعة ، ومنهم الاعشى .

شاركت قبيلته في حرب البسوس التي يُقال إنها
دامت اربعين سنة ، وفي يوم الكُلاب^(١) كما شاركت
في حروب المناذرة ضد الغساسنة . وكان لهذه القبيلة
من المنعة والقوة ما جعلها قادرة على حماية النعمان بن
المنذر في وجه كسرى ابرويز . فقد روي ان هذا
الأخير ، لما غضب على النعمان لجأ هو واسرته الى
بني شيبان إحدى قبائل بكر ، واستودع عند رئيسهم
هانئ بن قبيصة الشيباني اولاده ودروعه الألف . لكن
كسرى استطاع استدراجه الى حاضرتة بالمدائن ، وزجه
في السجن ، ثم قتله . ويقال إنه رمى به تحت ارجل
الفيلة فمزقته إربا^(٢) . وكان آخر عهد المناذرة في

(١) هو يوم غزاه الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي بكر بن وائل ملوك
الحيرة اللخمين ، فانتزع ما في ايديهم من ديار بكر ، وكر على
الغساسنة ، فردهم الى اقاصي اعمالهم .. ثم طعن في نبضه فنزف
ومات ودفن في عاقل ، وهو واد بنجد . وتجمعت القبائل العربية
الحليفة ، بعد اغتياله عند ماء يسمى الكُلاب . وهناك يوم آخر يُسمى
الكُلاب الثاني (للتفصيل انظر العقد الفريد ج ٥ ص ٢٢٢) .
(٢) يبدو ان النعمان هذا (وهو النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ، المكنى
بابي قابوس) كان يستحق مثل هذه الميته ، لكثرة ما ارتكب من جرائم . =

الحيرة ، اذ ولئى الفرس عليها اياس بن قبيصة الطائي ،
فثارت حمية قبيلة بكر التي آوت النعمان ، على اياس
والفرس معاً ، واشعلوها حرباً شعواء، انتهت بهزيمة
منكرة للفرس ، في معركة شهيرة هي معركة ذي قار .
انتصر فيها العرب ، لأول مرة ، على الفرس ، بعد
استخدام واذلالٍ داما طويلا . وبقيت الحيرة ، بعد
ذلك ، في اضطراب وتجاذب ، حتى استولى عليها
القائد المسلم خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ ميلادية .

مكانة الحيرة^(١) :

اصبحت الحيرة ايام المناذرة اللخمييين موئل الادباء
والشعراء ، لا سيما ايام المنذر الاول ، ثم المنذر
الثالث بن ماء السماء رغم كثرة المحن والحروب في

= فهو الذي قتل عدي بن زيد العبادي الشاعر المشهور . مع انه كان قد
زوجه ابنته هند ، بعد علاقة حب بينها وبين الشاعر . . لكن سرعان ما
انقلب النعمان على صهره محسدا وغيرة . . لأن عدي نال حظوة كبيرة
لدى كسرى (خسرو) ابرويز . فما زال به حتى حبسه وقتله . غير ان
زيد ابن عدي ما لبث ان احتل مكانة ابيه عند خسرو فأوعز صدر الملك
عليه ، فاستدرجه من الحيرة الى المدائن ، وقتله شر قتلة ، كما تقدم .
(انظر : تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١١٢) .

(١) الحيرة : او حيرتا السريانية ومعناها الخيمة .

عهده. وكثرة جرائمه بسبب وبدون سبب. يروى انه قد كان له يومان في السنة : يوم سعد ، ويوم نحس . فمن جاءه في يوم سعد كرمه واعطاه . ومن جاءه في يوم نحسه قتله ^(١) . . ومن سخرية الاقدار ان يكون اول ضحية لهذا الطاغية، الشاعر الجاهلي المعروف عبيد بن الابرص الذي صادف أن جاءه في يوم نحسه فقتله ، على ما تقول الرواية ^(٢) .

ومهما يكن، فقد عرفت الحيرة ، في ايامه ، ازدهارا عمرانيا وفكريا وزراعيا ودينياً ملحوظا . نشطت فيها الصابئة والمجوس عبدة النجوم فاز دهر على ايديهم علم الفلك والنجوم ، كما نشطت المذاهب الدينية

(١) جاء في الاغانى خير هذين اليومين مفصلاً . وقد لخصه حتى في تاريخ المطول (ج ١ ص ١١١) فقال : وفي كتاب الاغانى قصة ممتعة جاء فيها ان المنذر بن ماء السماء (امه مارية او ماوية) نادته رجلان فأغضباه في بعض مسائل المنطق . فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظاهر الحيرة ، ثم يجعل في تابوتين ، ويدقنا في الحضرتين . فلما اصبح سأل عنهما ، فأخبر بهلاكهما ، فندم على ما فعل ، وأمر ببناء الغريين عليهما . وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى احدهما يوم نعيمه ، والآخر يوم يؤسه . فأول من يطلق عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل . واول من يطلق عليه يو يؤسه يأمر به فيذبح ويرش بدمه الغريان . الخ .

(٢) تاريخ المطول ج ١ ص ١١٠ .

القديمة كالزرد شتية والمأنوية ، والمزدكية ، وتغلغل
 في معظم طبقاتها الديانة المسيحية . يقال إن المنذر
 هذا هو الذي أسر احد ابناء الحارث بن جَبَلَة المسيحي
 ثم قدمه ذبيحة للعزى ، كما قدم اربعمائه راهبة نصرانية
 ذبيحة لتلك الإلهة نفسها (١) . لكنه ما لبث ان لاقى
 جزاء ما فعلت يده فقتل في يوم حليلة . .

واستمر ازدهار الحيرة على تصاعد ، في عهد ابنه
 عمرو بن هند (٢) :

(١) المصدر نفسه ص ١١٢

(٢) كانت هند ام عمرو اميرة نصرانية غسانية . وهي بنت الحارث ابن عمرو
 ابن حجر آكل المرار الكندي . بُنَتْ في الحيرة ديرا يعرف بدير هند .
 بقي الى القرن الثاني الهجري (طبري ج ٢ ص ١٨٨٢) ذكر ياقوت
 نص العبارة المحفورة على ناصية الدير وهو : بُنَتْ هذه البيعة هند أُمّة
 المسيح وام عبده (عمرو) وَبُنَتْ عبيده . وهند هذه هي بطلة قصة
 الاستخدام الشهيرة التي ذهب ضحيتها ابنها الملك عمرو بن هند .
 ملخص القصة : كان عمرو بن هند فخوراً كأمة عاتيا . جعل من الحيرة
 موئلا للادباء والشعراء العرب كالشاعر طرفة بن العبد ، والحارث بن
 حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، قال يوما لجلسائه : اتعرفون ، في العرب ،
 من تأفف امه من خدمة أُمي ؟ فقالوا : ليلى بنت المهلهل ام عمرو بن
 كلثوم . فاحتال حتى استقدم عمرو وأمه وحاشيتها الى قصره . وفيما هم
 يتسامرون اذ سمع عمرو استفاثة امه وهي تصيح : واتغلباه ، واذا له !
 وفي لحظات كان رأس عمرو بن هند يطيح به سيف ابن كلثوم ! وتكون
 المعلقة :

ففي الزراعة : اخترقت ارضَ الحيرة السواقي والترع ، فاز دانت سهولها بحقول الحبوب والفواكه والأعناب والنخيل . وطاب هواؤها وعذب ماؤها .

وفي العمران : بعد ان كانت الحيرة خيما ، (كما يدل اسمها) اصبحت بين ليلة وضحاها عامرةً بالقصور والدور والاديوار والبيع . ومن اشهر قصورها : الخورنق^(١) والسدير^(٢) ودير هند .

= ابا هند فلا تعجل علينا . وانظرنا نخيرك اليقينا الخ .
اما سبب الاستغاثة فهي ان هند ، وقد نوت إذلال ليل قالت لها بعد الطعام : ناوليني هذا الطست . فتجاهلت ليلي الطلب ، فكررت هند ثلاثا ، فقالت ليلي : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . لكن هند ألحت في طلبها ولجت . فما كان من ليلي الا ان صرخت لتسمع ابنها . وكان ما كان ...

(١) بنى النعمان قصر الخورنق في ظاهر الحيرة . ومعنى الخورنق في الفارسية : القصر المنيع : استقدم لهندسته أمير مهندسي الفرس (او الروم ؟) سنمار الذي ذهب بدوره ضحية هذا الطاغية بأن هوى به من على القصر . ويقال ان السبب هو اعتقادهم بأن الأثر الفني الرائع لا يمكن ان يبني مثله احد غير بانيه (حتي . تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٠٩) .

(٢) وبنى السدير ايضا في وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام (المصدر نفسه ص ١١٠) .

سكانها :

كان سكان الحيرة من بقايا الأكاديين والآراميين ، وهم الذين ازدهرت الزراعة على أيديهم . أما الجالية الفارسية فكانت تمتهن بعض الحرف والصناعات اليدوية . ويعتقد انه كان في الحيرة يهود ، بدليل وجود حركة تجارية ناشطة فيها ، جعلت منها نقطة تواصل تجاري هام ، ما بين فارس والمدائن من جهة ، وسوريا والجزيرة ، وامارة كندة واليمن من جهة اخرى . كما كان فيها اختلاط من القبائل العربية والنبط .

وسارت من الحيرة الى الجزيرة مؤثرات الحضارة فدخلت النصرانية الى نجران عبر سائحيها ومبشريها . ويؤكد ابن رسته في كتابه « الاعلاق النفيسة » ، « ان قريشاً انما اخذت الكتابة من الحيرة ، كما اخذت الزندقة » (١) .

وها هو الأعشى يأتي على رأس الشعراء الذين وفدوا وتأثروا ، وظهر في شعرهم ولا سيما الخمري والديني كلمات فارسية وصور دينية كثيرة . فاذا بشعر

(١) الزندقة : من زيدك في الفارسية ومعناها : مجوسي عابد نار .

الاعشى على الخصوص ، يصبح وثيقة تاريخية وحضارية هامة ، مع احتفاظ الشاعر فيها ، بنفس شعري مميز ، وعدوية اسلوب واضحة ، على حد تعبير عبد الملك بن مروان حين قال لمؤدب اولاده : « ادبهم برواية شعر الأعشى فان لكلامه عدوية » . وقال : « اذا اردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة (وهم رهط الأعشى) .

مذهبه :

اذا كان للاعشى من مذهب ثابت ، وهو ما لا نراه منسجماً مع نفسيته وحبه للتنقل والتغير ، فهو القَدَرِيَّة التي اخذها عن العباديين^(١) يقول الاغانى : ان الاعشى كان قَدَرِيًّا ، وكان ليبد مثبّأ . وقدريته تظهر في قوله :

استأثر الله بالفداء وبالد
عدل ، وولى الملامة الرجال ..

(١) سماهم العرب بذلك لانهم عباد المسيح . (انظر : حتي تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٠٧) .

كان الاعشى يأتي هؤلاء ليشتري منهم الخمرة الحمراء (او النبيذ) فلقنوه مذهب القَدَرِيَّة .

وعندي ان الأعشى لم يكن يهمه ان يكون قدريا ،
او مشتباً ، بقدر ما كان يهمه ان يعانق باستمرار حريته
وشعره ، ورضى ممدوحه ، من اجل غاية واحدة لا
يحيد عنها : الخمرة ! يحاور كل هؤلاء من اجلها ،
ويداورهم ، ويحيا معهم ، ويناقشها ، ويدافع عنها شأن
المثقفين في ايامه من اصحاب الفرق والمذاهب
والفلسفات الذين كانت الحيرة تعج بهم . كان الاعشى
مستمعا هناك ، لا اكثر ولا أقل . ولسرعة بديته وميله
الى تلك الحياة الحضرية والحضارية ، كان يقتبس
بعض كلماتهم ، واصطلاحاتهم ، ويحاول ان يطبق ،
في الخمرة مثلاً ، عندما يعود ، كيفية تناولها في
مجالس خاصة وحالات خاصة . وكان يصف كل ذلك
وصفاً دقيقاً بارعاً . ولا شك ان الجو المسيحي
المسيطر في الحيرة ، واللوثني ، وتلك الحرية المتاحة
في اوساط المدينة الراقية قد أثرت في نفسية الشاعر ،
ورققت من ديباجته الجاهلية ، فحفل شعره بكل ذلك ،
كما سنرى .

رواة شعره :

يقال إنهم كانوا ثلاثة : احدهم وهو عبيد كان

يصحب الأعشى في ترحاله . وقد ذكره في شعره . قال
يصف ناقته :

لَمْ تَعْطِفْ عَلَى حُورٍ ، وَلَمْ يَفْ
طَعْ عُيَيْدُ عُرُوقِهَا مِنْ خُمَالِ

ومنهم يحيى بن متى النصراني . وأحيانا يرد اسم
يونس بن متى بدل يحيى . . فاعتبروا ثلاثة خطأ . .
والواقع انهم واحد ، كما يؤكد ذلك احد المحققين
المعاصرين ^(١) ويحيى بن متى هذا . هو الذي ادخل
على بعض قصائد الأعشى ابياتاً ليست له الغاية منها
اظهار مسيحية الشاعر أو تأثره بها . مما جعل الأب
لويس شيخو يدخله في عداد شعراء النصرانية في
الجاهلية ^(٢) كما وافقه على ذلك بعض المستشرقين
مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح اساقفة نجران
ويتصل بالبيئات المسيحية في الحيرة ، ويمثل قوله :

ربي كريم لا يكدر نعمة
واذا يناشد بالمهارق انشدا

(١) انظر : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية د . ناصر الدين الأسد

ص ٢٤٠ ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

(٢) انظر : شعراء النصرانية ص ٣٧٥ .

والمهارق الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه
نصراني ترتل لربه الاناشيد الدينية الكنسية . غير ان
هذا ليس حتماً ، كما يقول الدكتور شوقي ضيف (١)
« فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا
يُتْلون فيها بعض ادعيتهم . وقد يكون البيت دخيلاً على
القصيدة ، ادخله راوية ديوانه المسيحي ، كما ادخل في
قصيدة اخرى قَسَمَه بالمسيح في قوله :
واني ورب الساجدين عشيةً
وما صَكَ ناقوسَ النصرى ابيها (٢)
الى ان يقول : لقد كان الاعشى وثنيّاً غالياً في
وثنيته .. الخ » .

شيطان الاعشى :

سحل ابن أثانة (٣) وهو مصدر وحيه . كما كان

(١) أنظر : العصر الجاهلي ص ٣٣٨ د. شوقي ضيف . دار المعارف
بمصر .

(٢) ابيها : كاهنها . صك : دق .

(٣) ويروي شاعرنا عن جنبه مسحل الخبر التالي قال : خرجتُ أريد
قيسَ بنَ معد يكرب بحضرموت ، فضلت في أوائل أرض اليمن ،
لاني لم أكن سلكت ذلك قبل ، فأصابني مطر ، فرميت ببصري أطلب =

شعراء الجاهلية وبعض شعراء الاسلام يعتقدون بأن «جن» وادي عبقر «تسكن» ارواحهم فتوحي اليهم

مكأناً الجأ إليه ، فوقعت عيني على خباء من شعر ، فقصدت نحوه ،
وإذا بشيخ على باب الخباء ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، وادخل
ناقتي خباءً آخر كان بجانب البيت ، فحططت رحلي وجلست ، فقال :
مَنْ أنت ؟ وأين تقصد ؟ قلت : أنا الأعشى ، أقصد قيس بن معد
يكرّب . فقال : حياك الله ، أظنك امتدحته بشعر ؟ قلت : نعم .
قال : فأنشدني ، فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سمية غدوةً أجمالها غضباً عليك ، فما تقول بدا لها

فلما أنشدته هذا المطلع ، قال : حسبك ، أهذه القصيدة لك .
قلت : نعم . قال : من سمية التي نسبتَ بها ؟ قلت : لا أعرفها ،
ولمّا هو اسم الّقي في روعي . فتأدى : يا سمية أخرجي . وإذا
بجارية خماسية قد خرجت ، وقالت : ماذا يا أبت ؟ قال : أنشدي
عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرّب ، ونسبتك في
أولها ، فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها ، لم تخرم منها
حرفاً ! .. وفعل الشيخ مع شاعرنا نفس الشيء مع قصيدته ..
المعلقة : ودع هريرة .. حتى اسقط في يد الأعشى . فلما رأى ما
به . قال : ليفرخ روعك أبا بصير . أنا هاجسك مسحل بن أثالة الذي
ألقي على لسانك الشعر . فسكن روع الشاعر وهدأت نفسه ...
الخ .. كل هذه الروايات عن تدخل «الجن» وتجسدهم وتحدثهم
دليل آخر على سذاجة شعراء الجاهلية وبعض شعراء الاسلام . وانهم
لم يكونوا من «الوعي الفتي» ، ان صح التعبير ، بحيث يكشفون
ويؤمنون بأن مواهبهم وعبقريتهم هي وحدهما دون سواها التي تلهمهم
الشعر ، وليس «جن» وادي عبقر ، أو سواها ..
حتى إذا تقدم الشاعر العربي في دروب الحضارة اكتشف وآمن بأنه هو =

بالشعر الذي هو من « رقى السحر » على حد تعبير ابي
نواس . . ومنهم من كان يسكنه شيطانان : واحد ينطقه
بالخير . . والثاني بالشر ، كما عند الفرزدق ، مثلاً ، في
« هو جلّه وهو برّه » . . .

كان الأعشى قد مدح قيس بن معدي كرب الكندي
بقصيدة دالية . فقال له قيس : انك تسرق الشعر .

فقال له الأعشى : قيدني في بيت حتى اقول لك
شعرا . فحبسه وقيده . فقال :

أزْمَعْتُ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارًا
وَشَطَطْتُ عَلَى ذِي هَوًى أَنْ تَزَارَا

وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته
كما قيد الأسرات الحمارا
صاحب معلقتين؟ اذا كانت المعلقات سبعا ، فهو

= وحده صانع شعره . . ولم يعد « الجن » او الشيطان ، في نظره ،
سوى خرافة أو اسطورة أو رمز ، قد يلجأ إليه ، أحيانا ، ويستخدمه في
صنيعه الشعري الحديث كأداة تخيل وترميز ، ليضفي على قصائده هالة
مشيرة من التجميل الفني وحالة من الصوفية الفكرية والتجربة العميقة
ذات الأسلوبية الغامضة المكثفة الظلال والتهاول . . المؤلف

صاحب الثامنة ، وإن ثمانى فهو صاحب التاسعة ، وإن تسعا فهو صاحب العاشرة . المهم انه احد اصحاب المعلقات ايا كانوا وأيا تكن ! ولئن ميزه بعض القدامى ، من غيرِ عليه ، وجعلوه ثالثاً بعد النابغة وطرفة أو بعد امرئ القيس وطرفة ، كما فعل ابن جني ، فان منهم من منحه استاذية الشعراء في الجاهلية ، ولجريس استاذيتهم في الاسلام . كما جعله الشعبي اغزل الناس في قوله :

غراء فرعاء ، مصقول عوارضها
تمشي الهوينا ، كما يمشي الوجى الوجلُ
واختثهم في قوله :

قالت هريرة لما جئت زائرَها
ويلي عليك ، وويلي منك يارجلُ
واشجعهم في قوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا
او تنزلون فلإنا معشر نُزُلُ

كل هذه الأحكام السريعة لا تقـم الأعشى ولا تؤخره في ميدان الابداع الشعري . المطلوب اليوم ان

نحاكمه نحن ، ان نضعه نحن تحت مجهر النقد
الحديث غير متأثرين بما قاله هؤلاء وسواهم من نقدِ
البيت الواحد او القصيدة الواحدة ، ومن حكام العاطفة
والهوى المحكومين بالأراء الجاهزة والنظريات المسبقة
من دينية او سياسية ، او لغوية . .

المطلوب ان نسبر غور الأعشى ونقيس مقدار
المسافة التي قطعها ليصل إلينا او لا يصل . . ان
نتحسس مدى حضوره بيننا ، لغة وفكرا وشعرا . . وهل
دار حولنا أو لم . . وهل سقط في مستنقع موروثه ونزوته
ومحدودية صوره وضيق أفقه ، ام تراه اخترق حدود
الزمان والمكان والموت ، وكيف ؟ . هذا ما سنحاول
الكشف عنه عندما نقف امام آثاره متذوقين سابرين .

اما معلقته، فالأولى مطلعها:

ودع هريرة ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا ايها الرجل

قالها ليزيد بن مسهر ابن ثابت الشيباني.
والثانية مطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلالِ
وسؤالي ، فهل ترد سؤالي
دُمْنَةُ قفرة تعاورها الصيـ
فُ بريحين من صَبَا وشماعِ

قالها في مدح الأسود بن المنذر اللخمي .
وسنعرض لهاتين المطولتين بالتحليل ما امكن . فنحن
لا نؤرخ للأعشى وغير الأعشى في هذه الدراسات (١)
بقدر ما نخضع شعر الشاعر لذائقتنا الخاصة ومقاييسنا
الحديث في نقد الشعر ، حتى اذا ارضانا بعض هذا
الشعر ، وارضى الميزان انتفعنا به ، وبرهنا على ان في
تراثنا الادبي قيما لا تبلى ، وأبعاداً انسانية تطاول القرون
وتتحدى الزمن ، وانه لم يكن عبثاً كله ، كما لم يكن
نظماً عروضياً فارغاً ، او تعبيراً عن امور واهداف
ومشاعر لا شأن لنا بها . .

(١) وهذا ما فعلناه دائماً حين درسنا أبا العلاء وابن رشد وابن خلدون وابن
الرومي والمتنبي وأبا نواس والبحتري والفرزدق وحسان والأعشى وأبا
العتاهية وأبا فراس وسواهم - المؤلف .

قصته مع علقمة (١):

جاء في الاغانى (ج ٩ ص ١٢٠) : أتى الاعشى
الاسودّ العنسي ، وقد امتدحه ، فاستبطاً جائزته . فقال
الأسود : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيّات عَرَضاً ،
فأعطاه خمسمائة مثقال ذهنا . . وبخمسماية حللاً
وعنبراً . . فلما مر ببلاد بني عامر خافهم على ما معه ،
فأتى علقمة بنّ علّانة . فقال له : أجزّني . فقال :
أجزّتك . قال : من الجن والانس ؟ قال : نعم . قال :
ومن الموت ؟ قال : لا . فأتى عامر بنّ الطفيل (٢)

(١) علقمة بن علّانة بن عوف بن الاحوص بن جعفر بن كلاب . أسلم في
عهد النبي ﷺ ثم ارتد بعد فتح الطائف ، وخرج حتى لحق بالشام ،
ثم عاد وأسلم أيام أبي بكر . وهو غير علقمة الفحل طبعاً ، علقمة ابن
عبد من تميم معاصر امرئ القيس الشاعر ، ومناقسه في صفة
الخيّل ، ومتنزّع زوجته أم جندب منه . . بعد أن احتكما إليها في
قصيديهما اللتين وصفا فيها فرسهما بناء على طلبها . فحكمت
لعلقمة . لكن بروكلمن ينفي صحة هذه الرواية . للتفصيل انظر :
ديوان الشاعرين ، أو تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ،
ص ١٢٨ الناشر دار ومكتبة الحياة - بيروت - بدون تاريخ .
(٢) يكاد يكون الوحيد الذي ساد قومه : في الجاهلية ، سيادة غير موروثّة
تعتمد على مزايا شخصية أهمها : الشجاعة والكرم وهو القاتل منوهاً
بذلك :

وما سودّتي عامر عن ورائة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنّني أحمي حماها وأنقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكي =

فقال : اجبرني . قال : اجرتك . قال : من الجن والانس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم . قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : ان مُت و انت في جوارى ، بعثت الى اهلك الدية . فقال : الآن علمت انك قد أجزّني من الموت . فمدح عامرا وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذي اراد كنت اعطيته اياه . قال الكلبي : ولم يُهَجَّ علقمة بشيء اسدّ عليه من قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم
وجاراتكم غرتي تبين خمائصا
فرفع علقمة يديه ، وقال : لعنه الله أن كان كاذبا !
أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟ !

وبدأت بين الأعشى وعلقمة حرب هجاء طاحنة
ثبت فيها شاعرنا ، وتأخر علقمة .

وهكذا انتصر ذكاء عامر وانهزم غباء علقمة ، اذا

متحدياً بذلك السيادة الارستقراطية الموروثة والتي طالما تباهى بها عتاة
قريش . وابناء الملوك امثال امرئ القيس القاتل :
وكنا اناساً قبل غزوة حرميل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا .

صحت هذه القصة الحوارية ، كما انتصر الاعشى في
الحالين ..

مسافر زاده الخيال :

مثلما بنى العرب حضارتهم « ركضا على ظهور
الجياد » على حد تعبير توفيق الحكيم .. بنى الأعشى
مجده الشعري ركضا على متن ناقته واصلاً بها اطراف
الجزيرة شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً. فمن اليمامة الى
اليمن ، الى عدن ، الى كعبة نجران. يقول مخاطباً
ناقته :

وكعبة نجران حتم عليه
لِ الى ان تناخي بابوابها

مادحا اربابها من آل عبد المدان :

نزوز يزيدا وعبد المسيح
وقيساً ، هم خير اربابها

وسواهم من اسياء اليمن كسلافة ذي فانش والاسود
العنسي ، وقيس بن معد يكرب . ثم ينحدر الى حَضْرَ
مَوْت، ويرتقي الى الحجاز فيدخل سوق عكاظ كل سنة

مشاركاً في بعض المنافرات والمباهلات ، ومن هناك
اعلن على رؤوس الأشهاد قصيدته في مدح المحلق
الفقير المثنائ فتهافت اسياد القوم على الزواج من بنات
المحلق الثماني . . ونفذت البضاعة ! كما سنرى .

ويتابع الأعشى سيره شمالاً فينزل الأبلق حصن
السموأل^(١) ، ثم يحتاز ديار كلب الى العراق ، فيهبط
الحيرة مادحاً الاسود بن المنذر والنعمان ، مختلطاً
بالعباديين ، اخذاً عنهم بعض افكارهم الدينية وعاداتهم ،
كما استفاد من صفة الخمرة التي شربها عندهم .
وادخالها في قصائد الخمرية .

وتراه سرعان ما يعود قاطعاً القرى الواقعة على
شاطئ الخليج العربي ماراً بعمان ، وقد يعرج ، في
بعض اسفاره ، على اورشليم وحمص في الشمال

(١) وهو حصن بواحة تيماء (او تدماء : هذه ماء) بناء عادياً والد سموأل
(أو سموئيل) الشاعر العربي المعروف . وقد تغنى سموأل بهذا
الحصن مفتخراً به على سائر العرب فقال :
بنى لي عادياً حصناً منيعاً ويشراً ، كلما شئت استقيتُ . .
ولي شرب العطاش من بدو الصحراء ماء البحر ا وقد سمي هذا الحصن
بالأبلق لأنه كان مبنياً من حجارة بيضاء وأخرى سوداء . وهو من
طبقتين .

الغربي ، وتقوده راحلته ، احيانا ، الى بلاد فارس فيمدح
ملوكها^(١) ولا يكتفي بالملوك فنجدته يخالط بعض العرب
من بني حمير النازلين على حدود فارس وينقل عنهم
الكلمات الفارسية التي يرصع بها أشعاره ، كما يطعمها
بالافكار النصرانية يأخذها عن اهالي الحيرة ، وكذلك
افكار الزندقة .. وفجأة نجده حاطاً رحاله في بلاط
النجاشي في الحبشة :

اتيتُ النجاشي في ارضه
وارضُ النبطِ وارضُ العجم !
كل ذلك « للمال » كما يقول :

وقد طفت للمال آفاه
عُمانَ ، فحمصَ فاوري شليم^(٢)

(١) من الأكاسرة . يروي ابن قتيبة وصاحب الأغاني قصة عن لقاء الأعشى
بكسرى ، لا تخلو من فكاهة ، قال : سمع كسرى الأعشى ينشد ،
في هذا البيت :

ارقتُ، وما هذا السهاؤُ المؤرَّقُ وما بي من سقم، وما بي مَعشَقُ !
فقال كسرى : فسروا لنا ما قال . فقالوا : ذكر الشاعر أنه سهر وارق
من غير سقم ولا عشق . فقال كسرى : فهو ، إذن ، لص !
(٢) أوري شليم أو أوري شليم على رواية ثعلب ومعناها بالعبرية : أرض
السلام . أو مدينة السلام . وهي القدس عند المسلمين والمسيحيين
وقد لفظها الشاعر : أوري شلم لتستقيم القافية .

وقد يرضى بالقليل منه ، اذا كان من صديق
محب ، كقيس بن معد يكرب ، الذي يكتفي منه احياناً
« بجموم » او نجيب اي بفرس او جمل :

كل عام يمدني بِجَمُومٍ
عند وضع العنان ، او بنجيب .

مثبتاً كل ذلك في قصائده . كما رأيناه في هذه
القصيدة الميمية الحميمة تحاوره ابنته في بعض
مقاطعها ، شاكية كثرة اسفاره ، وهي من مطولاته
الرائعة نظمها في مدح قيس بن معد يكرب الكندي .
قال :

تقول ابنتي ، حين جدَّ الرحيلُ
ارانا سواءً وَمَنْ قد يَتِمُّ
فيا ابتـا ، لا تَرِمِ عندنا
فانا بخير ، اذا لم تَرِمِ
ويا ابتـا ، لا تزلِ عندنا
فإنا نخاف بأن تُخْتَرِمِ
ارانا اذا اضمرك البلاءُ
نُجْفى ، وتُقطع منا الرِّجَمِ
انه يتصور ابنة له ، ولعل له ابنة ، تحاوره وتضرع

اليه ، مسكة بخطام ناقته ، ألا يتركهم وحدهم ، في
منفوحة ، كالأيتام . فهم بخير ، تقول له ، ما دام
بينهم . وهم حاضرون بحضوره ، غائبون في غيابه ، لا
يزورهم أحد .. وسرعان ما ينتفض من تذكيره بموت
يخترمه في سفره كما يخترمه في حَضْرَه .. ويمضي ،
بعد هذا الحوار الوجداني ، في غايته ، فان له دائماً
ابنة اخرى .. عروساً أخرى .. هي المسافات -
النهايات . والآخرين ، والمال والشهرة والخمرة .. إن
له حواراً آخر هناك .. على الاطراف .. حيث
اصحاب الحضارات والاديان والمذاهب والعيش
الرخي .. وزاده معه اليهم دائماً : قصائد عامرات
يرشها عليهم مدائح مدائح ! ويستبدل ، عائداً ، طيباً
بطيب ، وشعراً بخمرة .. ومالاً وشهرة .. ويترطب جو
الشعر العربي بالغضارة والحضارة واشياء المدن ..
ونودع معه : قفا نيك ، بقفوا نضحك ونشرب ونحكي !
كما نودع معه : دعست على غطش ويطش وصحبتني
سعار وارزير ووجر وافكل !- :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شارِ مِشَلْ ، شَلُولْ ، شُلْشُلْ شُول !

وتبقى شلا شيله، ونكهة الشواء تملأ خياشيمنا ،
وكياناتنا يبقى الأعشى كله بيننا ، ويتوارى الشنفري !

كان الشعر قبل الأعشى يتشاءب ، يتمطى على رمال
الصحراء كالافعى او كالحرباء او كالسلحفاة ...
وكاليرابيع والمناجذ، يتنفس من تحت الرمال بلا عيون او
بعيون اطفالها البكاء على الاطلال .. حتى اذا جاء
الاعشى على رأس رواد جدد متحركين كالنابغة وطرفة
وحسان جرى في عروق الشعر الجاهلي ماء الحياة
والحركة والتطور وبعض التحضر وكانت نقلة .. لها ما
بعدها ..

قليل لشاعرنا : الى كم هذه النجعة والاغتراب ، ما
ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال :
لو دامت الشمس عليكم لمللتموها ..

جواب، كما ترى، شعري استعاري رائع!

ولو جاء بقالب نثري! فالشعراء عندما يشرون
يشعرون .. هذه الصورة اعجبت ، أبا تمام ، المغرم
بالبدیع والترميز ، فصاغه شعراً . قال :

وطول مقام المرء في الحي مُخْلَقُ
لدياجيته ، فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زیدت محبةً
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

كما يثيرنا نحن أيضاً ، بعد قرون وقرون ، لما فيه
من شاعرية تتخطى برموزها ورؤاها حدود الكلام
العادي نثراً ونظماً ، ويلامس اعماق انسانيتنا التي تأبى
« القعود » والجمود والتأسن ، فترود الأفاق بحثاً عن
الكرامة والشهرة والمجد ، أو على الأصح ، حباً
بالتجدد والتطهر . . من وسخ الانغلاق وغربة الذات في
الذات والحيّز!

لقد كان الأعشى ، في جوابه هذا ، فيلسوفاً
صغيراً ، دون أن يدري ! وكان في حياته وتنقلاته ،
وابتدار لذاته : ابيقورياً - مزدكياً ، دون أن يشعر ، ولم
يكن رواقياً رومانياً على الاطلاق . . كان شاعر الحس
المتوفز والحرية الحرة بلا منازع . . في زمن كان
الانسان الجاهلي فيه اسير ظرفه وبيئته ، عبد صحرائه ،
سجين قدره ، قتيل وجوده وحدوده . . فجاء الاعشى ،
ومن هم في مثل تطلع الاعشى « يخرجون » من كل

هذه القيود المفروضة ، فإن لم يستطيعوا تحطيمها ،
فعلى الأقل ، إعلان رفضها والابتعاد عنها ، والتشهير
بها ، ثم غناء هذا « الخروج » شعراً ، ينسون أو
يتناسون معه قسوتها وجبريتها بالخمير والشعر والمرأة !
ثالثاً أقدم ، في حسمهم وفلسفتهم ، ولعله في طوية
الكثيرين منا ودخيلائهم : لكننا لا نجرؤ على البوح به
أو له ، أو هو فوق طاقتنا وحريتنا ، ذلك لأننا لا نملك
صراحة الأعشى وعفويته وقدرته على البوح
والحركة ...

جاء في العقد (ج ٦ ص ٢٢٠) : قيل للأعشى :
ما السرور؟ قال : « صهباء صافية تمزجها ساقية من
صوب غادية » . ويتم ثلوثه بالشعر الذي يصفى الخمرة
كالراوق ، وبالساقية التي تطهر النفوس والأبدان
بمصفاة الجمال ، وتنير صبوات الشباب بمشكاة السحر
الحلال ..

النقيضان ! :

والأعشى ، إلى هذا ، يحمل النقيضين . فقد
تربى ، كما علمنا ، في حضن النصرانية في الحيرة ،

وكعبة نجران لكثرة تردده عليهما ، وعلى كهانهما ،
فتولدت عنده عاطفة الرفق والرحمة وحب المتدينين ،
لا سيما وهو لم يجد لدى أحبار النصرانية وكهنتها
تحرجاً في شرب الخمرة ، بل هم يشربونها في
اعتدال . يقول واصفاً سيداً متديناً :

ربي كريم لا يكدر نعمة
وإذا يناشُد بالمهارق انشدا^(١)

فسيده (أوربه) متدين ملتزم ، يلبي داعي الدين إلى
صلة المحروم ، واعطاء المحتاج ، ويزيد فيلزم نفسه بكتابة ما
تعهد به في المهارق . فإذا ما ذكره بهذه العهود المكتوبة ،
بادر إلى المحافظة عليها والوفاء بها .. ومهما قيل في هذا
البيت بأنه مدسوس عليه : دسه
راويته المسيحي ، فان الأعشى لم يكن بعيداً عن مثل
هذا الجو الذي يوحى بمثل هذا المعنى .. لكن بعض
المحققين يحلوه ان يتزع عن الأعشى نهائياً مِيلَهُ إلى
النصرانية او تأثره بها ، وكأن في الأمر جريمة ، او كأنه

(١) المهارق : كتب العهود والاحلاف ، او كتب الدين ، وربي هنا بمعنى
سيني .

مسلم ارتد الى النصرانية^(١) فالأعشى رغم وثنيته الغالبة، شاعر قبل كل شيء، ومتكسب بشعره، ومتنقل به في البلاد وعلى اطراف الجزيرة ، فاذا تنقل ، في شعره ، من مذهب الى مذهب ، او من دين الى دين ، فلا يلام ولا يحاكم على هذا الاساس . دعوه ، ايها المحققون ، لربه يحاكمه ، وحاكموه بمقاييس الذوق والفن والنقد الحديث ، وحدها . دعوه يخرج من بداوته وجلافته وغريب صوره ، ما دام هو قد اصر على ذلك وشاء ان تسري في ثنايا شعره رقة الحضارة وخفة الروح . . دعوه يعطينا صورة صادقة عما بلغه الشعر العربي قبيل الاسلام من بعض الرقي والتحضر والشفافية ، فبرهن اصحابه بأنهم قادرون على التكيف والتطور ، ثم على الوصول اليها . . ولعل هذا ما حدا بالمازني في كتابه قبض الريح الى ان ينسب للأعشى بعضاً من فضيلة ، رغم تهتكه وفجوره ، حين قال : « ان الأعشى لم يكن ناصب الفضيلة . . بمعنى انه لم يكن شريرا ، ولا قاسيا فاحشاً في هجائه ، وكان ودوداً وفيها لاصدقائه . كما كان طيب القلب يرق للمعوزين

(١) انظر كتاب : العصر الجاهلي ط ٣ ص ٣٣٨ د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

واصحاب الحاجات حين يلجأون اليه ليساعدهم على قضائها ، كما فعل مع المحلق . وتلك المرأة المثاث ، في الموضوع نفسه . . وكما فعل مع امرأته حين طلقها ، ومع ابنته ، حين ساوى بينه وبين المهجو ، كما سنرى . اليس كل هذا فضيلة او بعضا من فضيلة ؟! ابو كلاب وبناته ! جاء في الاغاني : كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المَحَلَّق^(١) الكلبي مثاثا مملقا . فقالت له امرأته : « يا ابا كلاب ، ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت احدا اقتطعه الى نفسه إلا أكسبه خيرا » . قال : ويحك ! ما عندي إلا ناقتي ، وعليها الحمل . قالت : « الله يُخلفها عليك » . قال : فهل له بد في الشراب والمسوح ؟ قالت : « ان عندي ذخيرة لي ، ولعلي ان اجمعها » . فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد ، وابنه يقوده . فأخذ الخطام . فقال الأعشى : من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ قال : المحلق . قال : شريف

(١) المَحَلَّق أو المحلَّق : سمي المحلق لأن فرسه عضته في وجهه : فتركت به أثراً على شكل الحلقة . وكان للمحلق اب شريف . لكنه مات واتلف ماله . واسم المحلق هو : عبد العزى بن حنتم بن شداد بن ربيعة . . . بن عامر بن صعصعة . وكنيته أبو كلاب ! .

كريم . ثم سلمه اليه ، فأناخه ، فنحر له ناقته ، وكشط له عن سنامها وكبدها . ثم سقاه . واحاطت بناته به يغمزنه ويمسسنه . فقال : ما هذه الجواري حولي؟ قال : بنات اخيك وهن ثمان شريدتهن قليلة . وخرج من عنده ، ولم يقل فيه شيئاً . فلما وافى سوق عكاظ ، اذا هو بسرحة له قد اجتمع عليها ، واذا الأعشى ينشدهم :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلوق
رضيعي لبانٍ ثدي أم تحالفا
باكُم داج : عوضُ لا تنغرق^(١) .

فسلم عليه المحلق . فقال : مرحباً ، يا سيدي ،
بسيد قومه . ونادى : يا معشر العرب ، هل فيكم مذكّار
يزوج ابنه الى هذا الشريف الكريم ؟ (قال) : فما قام

(١) عوض + وعوض وعوض : ظرف لاستغراق المستقبل ، أي : ابداً ،
وهو مختص بالنفي . أما ما قاله ابن الكلبي من ان «عوض» هو صنم
وان الأعشى أقسم به في هذا البيت فقول مردود .

من مقعده وفيهن مخطوبة الا وقد زوجها ..

وكان هذه الحادثة أثرت في القوم ، وجعلت
للأعشى فضيلة خاصة في العمل على تزويج البنات .
وترويح البضاعة الكاسدة . ذكر الاصمعي ان امرأة
جاءت اليه بعد حادثة المحلق . يقال: ان لي بناتٍ قد
كسدن علي فشيب بواحدة منهن لعلها تنفق^(١) .. فما
زال يشيب بواحدة تلو الأخرى حتى زوجن جميعا .
وكانت العجوز تبعث اليه بجزور في كل عرس .. ما
هذا يا ابا ليلي ! لقد جعلت شعرك رخيصة جدا ..
ولكن لا بأس ! كرمي لهؤلاء العوانس المسكينات
اللواتي جبرت خواطرهن وزوجتهن . فلا يبقين عجائز
عند ام عجوز ! فهذا في نظرك ونظرنا .. لا يجوز !
خاصة وانه لم يكن احد سواك يتواضع فيتبرع بمثل هذه
المهمة ! وهكذا ، حين يتدخل الشعر ، عند الأعشى ،
في كل كبيرة وصغيرة ، وكأنه لغته اليومية ، واداته
الوحيدة للاتصال بالناس ومحاورتهم في كل مكان : في
معصرة العنب ، في تسجيل العقود والعهود ، في كتابة
« عريضة » وتوجيه نداء من أسير ، في تدوين وصية

(١) اغاني ج ٨ ص ٨٢ .

للفراق ، ليسكروا على قبره ، في اعلان مطلب خاص
وحاجة شخصية (وهذا ما سيفعله زميله ابن الرومي
وابو العتاهية) في تزويج وطلاق ومداعبة قينة وساقية ..
حين يفعل الشاعر كل هذا ، فلن نعجب اذا أصبح
الشعر عنده عملاً روتينياً ، ومباشرة يومية ، وكانت
التقريرية والمباشرة والعفوية لحمته وسداه . وبديهي ان
تنعدم فيه التجربة او تكاد . ما عدا خمريات شاعرنا
التي وطأ بها للمدح او الغزل . فقد كان له مع الخمرة
تجربة حلوة .. واخرى مُرَّة مع معشوقته هريرة ! اما
سائر شعره ، فكما رأيت وترى ، : غناء وتطريب
ومباخر ، وقضاء حاجات ودعايات ، وتزويج بنات ..
وتجارة ...

متاعب الرحلات : أسر انتج رائعة : —==

كان عمرو بن ثعلبة القُضاعي راجعاً من غَزاة ،
ومعه اسارى . فلقي الأعشى ، وكان هذا قد هجاه ،
وعمره لا يعرفه ، فأخذه ونسبه ، فانتسب الى غير
قومه ، فاثقفه ، ثم سار حتى نزل شريح (او
شرحبيل) بن السموأل ، فأكرمه ، وارسل الأعشى

قصيدة الى شريح يستجير به فيها . فقال هذا لضيفه :
اني احب ان تهب لي بعض اسرائك هؤلاء . فقال :
خذ ايهم شئت . قال : اعطني هذا الاعمى . فقال :
ما تصنع بهذا الزمن ؟ لا . بل خذ اسيرا فداؤه مائة من
الابل . فأخذ شريح الاعشى واطلقه . فما لبث ان هجا
عمرو وقومه فشكا هذا الى شريح فعلم من اطلقه .
فأخذ شريح ميثاقاً من الأعشى الا يعود الى هجاء
عمرو .

اما القصيدة - النداء فهي من ابرع القصص الشعري
الذي لم يصل اليها مثله من الشعر الذي قيل قبيل
الاسلام ، على الاطلاق . بدأها الشاعر بالاشارة الى
حادثة السموأل المشهورة حين اصر على الوفاء بعهد
لامرئ القيس الشاعر ، فلم يسلم دروعه المائة وابنته
هند التي طلبها الحارث ابن ابي شمر الغساني ، فوجه
اليه جيشاً على رأسه الأبرص او الحارث ابن ظالم^(١)
فأبى السموأل تسليمها ، واغلق ابواب حصنه الأبلق
في وجهه . فأصاب القائد ابناً للسموأل (عاديا ؟) كان
خارج الحصن يصطاد ، فأسره ، وأرسل الى ابيه :

(١) الروائع رقم ٣١ ص ٣٦ .

« إما دفعتُ إلي الأدرع ، وإما قتلْتُ ابنك » . ففكر
 السموأل مدة ، ثم اشرف على عدوه ، فقال : ليس
 الى دفع ذمتي اليك سبيل ، فشأنك » . فذبح ابنه . ثم
 سلم السموأل الوديعة الى ورثة امرئ القيس ، فضرب
 فيه المثل بالوفاء حتى التضحية . ف قيل : اوفى من
 السموأل » او « وفاء كوفاء السموأل » .
 وإليكمها :

شريحُ ، لا تتركني ، بعدما علقْتُ
 جبالكَ اليومَ ، بعد القِدِّ ، اظفاري^(١)
 قد طفت ما بين بانقيا الى عَدَن
 وطالَ في العجم ترحالي وتسياري^(٢)
 فكان اوفاهم عهداً وأمنعهم
 جاراً ، ابوك ، بعرفٍ غير انكار
 كالغيث ما استمطروه جاد وابله
 وعند ذمته المستأسد الضاري
 كن كالسموأل ، اذ طاف الهمام به
 في جَحْفَل كهزيع الليل جرار^(٣)

(١) القد : السير يقيد به الأسير .

(٢) بانقيا : ناحية بين العراقيين .

(٣) روى ثعلب : كسواد الليل . الهمام : السيد الشجاع .

جَارِ ابْنِ حَيَا ، لِمَنْ نَالَتَهُ ذِمَّتُهُ
 أَوْفَى ، وَامْنَعْ مِنْ جَارِ ابْنِ عِمَارٍ
 بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلِهِ
 حُصْنِ حَصِينٍ ، وَجَارِ غَيْرِ غَدَارٍ
 إِذْ سَامَهُ خَطَّتِي خَسَفَ . فَقَالَ لَهُ :
 قُلْ مَا تَشَاءُ ، فَانِي سَامِعُ حَارٍ^(٢)
 فَقَالَ : تُكَلِّ وَغَدِرْ أَنْتَ بَيْنَهُمَا
 فَاخْتَرُ ، وَمَا فِيهِمَا حِظٌ لِمُخْتَارٍ
 فَشَكَّ غَيْرَ طَوِيلٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :
 اقْتُلْ أَسِيرَكَ ، أَنِي مَانِعُ جَارِي^(٣)
 إِنْ لَهُ خَلْفًا إِنْ كُنْتَ قَاتِلَهُ
 وَإِنْ قَتَلْتَ كَرِيمًا غَيْرُ عُوَارٍ^(٤)

(١) حيا : من آباء السموأل .

(٢) سامه الشيء : كلفه إياه . الخف : الذل والقهر . قل ما تشاء : هي الرواية المشهورة . وروى ثعلب : مهما ثقله حار : منادي مرخم أصله : حارث ، أراد به الحارث بن ظالم قائد الجيش ، أو الحارث بن أبي شمر ملك غسان .

(٣) شك : فكر حائراً . غير طويل : هي الرواية المشهورة وروى ثعلب : غير قليل . اقتل أسيرك : هي الرواية المشهورة أما ثعلب فروى : إذبح هديك . الروائع ٣١ ص ٣٨ - بيروت ١٩٦٨ .

(٤) عُوَار : الضعيف الجبان .

مَالاً كَثِيراً ، وَعِرْضاً غَيْرَ ذِي دَنْسٍ
 وَإِخْوَةً مِثْلَهُ لَيْسُوا بِأَشْرَارٍ
 جَبَرُوا عَلَى ادِّبٍ مِنِّي ، بَلَا نَزَقٍ
 وَلَا إِذَا شُمِرَتْ حَرْبٌ ، بِأَغْمَارٍ
 وَسَوْفَ يُعْقَبْنِيهِ ، إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ
 رَبِّ كَرِيمٍ ، وَبِيضِ ذَاتٍ أَطْهَارٍ
 لَأَسْرَهْنَ لِدِينَا ضَائِعٌ مَذْقٍ
 وَكَاتِمَاتٌ ، إِذَا اسْتَوْدَعَنَ ، اسْرَارِي (١)
 فَقَالَ : تَقْدِمَةً - إِذْ قَامَ يَقْتُلُهُ -
 أَشْرَفَ ، سَمَوَالٍ ، فَاَنْظُرْ لِلْدَمِ الْجَارِي
 أَأَقْتُلُ ابْنَكَ صَبْرًا ، أَوْ تَجِيءُ بِهَا
 طَوْعًا ؟ فَاَنْكَرَ هَذَا أَيُّ إِنْكَارٍ
 فَشَكَ أَوْدَاجَهُ ، وَالصَّدْرَ فِي مَضَضٍ
 عَلَيْهِ مَنْطُوبًا كَالذَّرْعِ بِالنَّارِ (٢)

(١) مَذْقٌ : غَيْرُ خَالِصٍ . مِنْ مَذَّقَ اللَّبَنَ : مَزَجَهُ بِالْمَاءِ . وَفِي بَعْضِ
 الرِّوَايَاتِ : لِدِينِنَا ذَاهِبٌ هَذَرًا (المصدر نفسه) .

(٢) شَكَ : الضَّمِيرُ عَائِدٌ لِلْقَائِدِ . الْأَوْدَاجُ جَمْعُ الْوَدِ : وَهُوَ عِرْقُ الْعُنُقِ .
 وَالْمَصْدَرُ . الضَّمِيرُ لِلْسَمَوَالِ . الذَّرْعُ بِالنَّارِ : الْمَقْصُودُ أَنْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ
 حَتَّى كَأَنَّهُ ذُرْعٌ بِالنَّارِ ، خُتِيقٌ .

واختار ادراعه ان لا يُسبَّ بها
ولم يكن عهدہ فيها بختار^(١)
وقال : لا اشتري عاراً بمكرمة
فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديماً شيمَةً خُلِقَ
وزنده في الوفاء الثاقب الواري^(٢)

إذا صحت نسبة هذه القصيدة الحوارية الى
الاعشى ، وهي صحيحة ، فان الشاعر يرهص بها
للشعر العربي التمثيلي ، الذي كان يمكن له ان يرى
النور ، بعد الاسلام ، وفي العصور الاموية والعباسية
خاصة ، لولا معوقات وموانع مصطنعة اكثر منها
طبيعية ، لا مجال لسردها هنا ومناقشتها ، يعرفها
الباحثون في خصائص الأمم ، ومنطلقات ودوافع الشعر
التمثيلي العالمي .

هذه القصيدة - النداء نابغة من صميم وجدان
شاعر أسير ، اعشى ، واقع بين يدي أسر جلال .
اطلقها في لحظة من لحظات فاصلة بين موت وحياة ..

(١) الختار : الغادر .

(٢) الواري : من وَرَى الزند : خرجت ناره .

بداها الشاعر اللبق بلا مقدمات لتصل سرّاً وبسرعة
فائقة مدتها سواد الليل ، الى شريح : منقذه المنتظر
اللذ^(١) سرعان ما بادر الى انقاذ شاعر بارع عرف كيف
يدخل ، بالشعر والذكاء ، الى قلب المنقذ .. والى
قلوبنا ايضا ..

هذا الشاعر الغنائي عرف ، كذلك ، كيف يحاور ،
وكيف يصبح « غريبا » في قصيدته هذه ، حين خرج من
دائرة « الأنا » المغلقة ، وراح يطلق الحوار على لسان
الحارث والسموأل ، كما استطاع ان يتوارى خلف
شخصه الحية تماما . لكن نزعت الغنائية والفردية ، في
الشعر وفي الحياة ، شيمة كل عربي ، جعلته يختصر
الموقف التمثيلي الحوارى البارع في واحد وعشرين بيتا
فقط .. ويا ليت ، اتم ، بعد الافراج عنه ، ما كان
بداه من هذه الحوارية ، فصور لنا ، وهو القادر فنيا ،
الموقف البطولي والمأساوي للسموأل ، وعظمة الوفاء ،
وجبروت الحارث ويطشه وغدره ، وتلك النفسية

(١) طال استعمالنا لاسم الموصول : الذي ، فلماذا لا نستعمل بدلاً منه
اللذ ، مثلاً ؟ وهذا المتني قبلنا بألف عام ويزيد ، استعمال اللذ بدل
الذي . لضرورة الشعر ، ربما ، ونحن لضرورة التغيير ! لِمَ لا ؟

الظلامية السادية التي يتمتع بها ...

ولكنها الغنائية العربية ، وهذه الأنا الطاغية في
النفسية العربية ، والتي ابرزها الشعر العربي قديما
وحتى حديثا^(١) .. هي التي حالت دون قيام الشعر
العربي المسرحي والملحمي عند العرب . وهكذا انقذ
الشعر صاحبنا الاعشى مرتين : مرة حين تخلص من
اسره .. ومرة حين تخلص من قيود الزمان والمكان
وجبرية الحياة وتفاهتها ولعنة الموت ، فسار ، ككل
شاعر مبدع ، في الأجيال .. الى ان وصل الينا ..
وسنمضي نحن وبقى هو والخالدون سائرين في
الأجيال ! في حين يطوي الزمن كل من ليس بشاعر او
مفكر او فيلسوف او فنان ، ايا كان !

وليس المهم ، مقدار الوصول الينا وعمق تأثيره
فينا ، فقد يكون هذا التأثير ضحلاً ضئيلاً ، كتأثير
الاعشى ، لكن المهم هو القدرة على التخطي
والوصول .. والقدرة على الحضور الدائم بيننا والولوج
الى وجداناتنا . وتحريك عواطفنا بتلك العصا السحرية
والمشكاة النورانية الموصلة باسلاكها ما بين القلوب

(١) باستثناء محاولات حديثة تبشر بالخير .

والعقول... وحين خاطب الله عباده في كتبه ألم
يخاطبهم شعرياً؟! ألم يأمرهم بأن يرتلوا كلامه
ترتيلاً؟!... ألم يتخذ الرمز والقصة والاسطورة ، وهي
ادوات الشعر ، سبيلا الى قلوبهم وعقولهم واخيلتهم ؟

===== قصة اسلامه :

روى صاحب الأغاني قال : اخبرني حبيب بن نصير
المهلبى ، واحمد بن العزيز الجوهرى قالا : حدثنا
عمر بن شبة قال : قال هشام بن القاسم الغنوي ، وكان
علامة بأمر الأعشى : انه وَقَدَ الى النبي ﷺ وقد مدحه
بقصيدة جاء فيها :

ألم تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أرمدا
وعاذَكَ ما عاد السليمَ المسهدا
وما ذاك من عشقِ النساءِ وانما
تناسيتَ قبلَ اليومِ خُلَّةَ مَهْدَا^(١)
وفيهما يخاطب ناقتَه :
فآلَيْتُ لا ارثي لها مِن كلاله
ولا مِن حفاً حتى تزور محمدا

(١) مهّد : معشوقة الأعشى أو هكذا يتخيل اسماً ما لشخص ما .

نبي يرى ما لا ترون ، وذكره
 اغار لعمرى في البلاد وانجدا
 متى ما تناخي عند باب ابن هاشم
 تراحي ، وتلقي من فواضله يدا
 فبلغ خبره قريباً فرصدوه على طريقه . وقالوا : هذا
 صناجة العرب ، ما مدح احداً قط الا رفع في قدره .
 فلما ورد عليهم قالوا له : اين اردت يا ابا بصير ؟
 قال : اردت صاحبكم هذا لأسلم . فقالوا : انه ينهاك
 عن خلل ، ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ،
 موافق . قال : وما هن ؟ فقال ابو سفيان بن حرب (١) :
 الزنى . قال : لقد تركني الزنى وما تركته . ثم ماذا ؟
 قالوا : الربا . قال : ما دنت وما اذنت . ثم ماذا ؟
 قالوا : الخمر . قال : اوه ! ارجع الى صُبابة قد بقيت
 لي في المهراس (٢) فأشربها . فقال له ابو سفيان : هل
 لك في خير ما هممت به ؟ قال : ما هو ؟ قال : نحن
 وهو الآن في هدنة (٣) فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع

(١) وروى ثعلب انه أبو جهل .

(٢) المهراس : حجر محفور مجوف يسع كثيراً من الماء .

(٣) يقصد صلح الحديبية . والحديبية بئر قرب مكة على طريق جنة . وفي
 معجم البلدان : قرية متوسطة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة =

الى بلدك ستتك هذه ، وتنظر ما يصير اليه أمرنا . فان
ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً ، وان ظهر علينا
اتيتّه . فقال : ما اكبره ذلك . فقال ابو سفيان : يا معشر
قريش . هذا الأعشى ! والله لئن اتى محمدا واتبعه
ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره .. فاجمعوا له مائة
من الابل . ففعلوا ، فآخذها وانطلق عائدا الى بلده ،
فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره فقتله ..

ويتم تليق الرواية على هذا الشكل المثير ليؤمن
المسلم العادي بأن كل من يغره متاع الدنيا ويخدعه
سرابها ، يلاقي ما لاقاه الأعشى ! ترمي به ناقته (او
منيته) من على ظهرها فيموت !

لكن الاعشى ، كشاعر ، قادر لا يزال حياً بيننا ،
سواء وقع عن ناقته ، او بعيره ، او لم يقع ، اسلم او
لم يسلم . تنصر او لم يتنصر ! فلن يضير الاسلام ولا
النصرانية ألا يدخل فيهما امثال الأعشى من الزنادقة !
بل ان ما يضيرنا نحن ، ان تلتقى مثل هذه الروايات ،

التي بايع النبي تحتها بيعة الرضوان . وفي الحديبية تحت كتابة عهد
الصلح بين النبي ومشرقي قريش ومدته عشر سنوات . وفي رواية
ثمان . كبه الامام علي بأمر من النبي .

ويتفنن في تزويقها ، وتضخيم خواتيمها . . وملا أكثرها
في تراثنا الادبي ، والديني ، والسياسي ، مما جعله
ينوء بأوزار ثقال من الكذب والنحل والتحيز ،
والاصطناع ، وجعل العرب والمسلمين مشوهي التاريخ ،
مُزَوَّرِي القيم ، أكثر القيم ، الأمر الذي شغل نقادهم
ومفكرهم في الرد والغريلة ، والتصحيح ، زمنا طويلا !
واهرق من وقتهم ونور عيونهم بما لا يعوض !

وفاته :

بما ان أكثر الروايات يجمع على ان الأعشى ادرك
الاسلام ، فقد تكون السنة ٦٢٩ ميلادية والتي اوردها
المستشرق ده برسفال ، والأب لويس شيخو ، تاريخاً
مقبولاً لوفاة الأعشى ، لأنها توافق السنة السابعة للهجرة
التي وقع فيها النبي ميثاق صلح الحديبية .

ومهما يكن ، فقد استقر ، أخيراً ، هذا الجسد
المرهق ، في قريته منفوحة باليمامة^(١) بعد طول طواف

(١) وفي رواية أن الأعشى ولد في مزرعة تسمى دُرْنَا في اليمامة ، وليس
في منفوحة . وكان أكثر سكان اليمامة ، قبيل الاسلام ، من بني حنيفة
وكانت النصرانية منتشرة بينهم ، وقد اتصل الأعشى في شبابه بأمرهم
هودة بن علي النصراني ومدحه . أنظر : الروائع رقم ٣١ ص ٦ .

وهتاف . سكنت الحنجرة عن التردد والغناء . لكن
الوجدان لم يسكت ، فقد اوصى صاحبه ان يبقى
مشاركاً الرفاق افراحهم ولذاذاتهم . . وان يجعلوا من
قبره مجلساً خمرىا لهم .

روى صاحب الأغاني ان والي اليمامة سليمان
النوفلي قال : اتيت اليمامة والياً عليها ، فمررتُ
بمنفوحة ، وهي منزل الأعشى التي يقول فيها :

فركت مهراس الى ما ورد
فقاعٍ منفوحةً ذي الحائر

فقلت : اهذه قرية الأعشى ؟ قالوا : نعم .
فقلت : اين منزله ؟ قالوا : ذاك واشاروا اليه . فقلت :
ما لي اراه رطباً ؟ فقالوا : ان الفتيان (اي رفاقه)
ينادونه ، فيجعلون قبره مجلسَ رجلٍ منهم ، فاذا صار
اليه القدح ، صَبَّوه عليه !

ويأبى الأعشى إلا أن يظل استاذاً للرفاق حتى بعد
الموت . . وتأبى روجه ان تعترف بفواصل الزمن
وعوامل الفناء !

حياته الخاصة:

لست ادري كيف يمكن لمثل هذا الشاعر الجوال
اللامستقر على حاله أن ينشئ أسرة وينجب اولادا ،
ويسكن بيتاً ، ما دام بيته ظهر بغيره ، واولاده رفاق
خمرته ورحلته ، وزوجاته ما شاء من الإماء ،
والمطلقات والعواهر !

نفهم منه ، وحده ، من بعض قصائده ، انه تزوج
مرة ، لكنه سرعان ما دُفع دفعاً الى الطلاق ..
والسبب ، لا كالأسباب ، كي : « يذوق غيرها وتذوق
غيره » ! كما يقول ..

وذوقي فتى قومٍ ، فاني ذائقُ
فتاة أناسٍ ، مثلما انتِ ذائقة !
يذكر بعض شراح ديوانه ، ان امرأته هذه كانت من
« هزان » وان اهلها همدوه بالضرب ، او يطلقها ،
فطلقها . والواقع ان السبب كان غير تهديد اهلها له
بالضرب .. بل كان تهديدها هي بضربه على رأسه
(بالقبقاب ربما) ! اسمعه يصارحها ويصارحنا :
وييني فان البين خيرٌ من العصا
وألا تزال فوق رأسك بارقة !

والاصح : فوق رأسي بارقة .. كي يستقيم
المعنى ، ويرر الطلاق ، كما يرجح بعض الرواة (١) .

===== خمرياته :

استاذ الأساتيد خراً وشعراً :

وانك لن تجد شاعراً من بين الشعراء الجاهليين ،
يكاد ينقطع للخرمة معايشة ، وشعراً ، انتاجاً وشرباً ،
طلاباً وغاية ... كالأعشى . غيره ، من شعراء القرن
السادس الميلادي وأوائل ظهور الاسلام ، شربها وتباهى بها ،
وفلسفها . لكن اهتمامه بها لم يزد عن اهتمامه بالحبيب
واطلال الحبيب ، او الناقة والفرس والممدوح
والمهجور . لذا فنحن ما نكاد نحيا هنيئات مع هذا
الشاعر المتصعلك حتى نشم رائحة جديدة تفوح من بين
اعطاف شعره ، هي رائحة الخمرة التي تنسينا ، ولا
شك ، رائحة ثيابه المهملة وجسده المعروق لكثرة
تجواله وتسكعه .. وهذه اخبار الرواة عن انه ما هجا
وما مدح الا ليكسب مالاً ينفقه على لذته ولهوه وشربه ،
تكاد لا تنتهي .

(١) الروائع رقم ٣١ ص ٣٩ .

فلأول مرة نجد شاعراً جاهلياً متفرغاً ، وجدانياً
للخمرة وتوابعها ، يلاحق نعوتها واوصافها ، واسماءها
الجديدة من فارسية ورومية ملاحقة العاشق للمعشوق ،
كما يستغرق في رسم جوها ومجالسها وما يتخلله من
رقص وغناء ، وغنج ودلال وحميمية ، ثم .. تأثيرها في
شاربها ، وساقياتها من رفاق ورفيقات .. ولا عجب
فهو المتكسب بشعره من اجلها ، والهارب من شظف
العيش اليها ، هناك حيث سدنتها المتحضرون ،
ومعاقروها من ملوك وامراء وكهنة .. وهو لم يكن
شريب خمر وحسب . بل كان منتجاً للخمور ..
« كانت له معصرة في اتافت يعصر فيها ما جزل له
اهلها من اعنابهم » على حد تعبير الأب لويس شيخو
في كتابه : شعراء النصرانية (ص ٣٧٥) ولا عجب ان
تصبح داره ، ايام شبابه ، مجمعاً للرفاق يلهون معه ،
ويشربون . وحين اشرف على الثمانين عاش على
ذكرها ، كأعز ما يملك الشاعر الهرم من ذكريات ..
فبديهي أن نجده مبدعاً في التغني بها . له فيها صور
فنية طريفة الخيال تضج بالحياة والحركة ، الى جانب

جدتها ورفتها :

تريك القذى من فوقها وهي فوقه
إذا ذاقها من ذاقها ، يتمطق
لاحظ الدقة في تصوير الصفاء والنقاء ، وروعة
الحركة في « يتمطق » التي ما نكاد نقرأ البيت ، وتمثل
الحالة حتى نتمطق فعلاً ..

توكأ على هذا البيت الاخطل ، وهو تلميذ بارز من
تلامذة الأعشى ، في بعض خمرياته ، فقال :

ولقد تباكرني على لذاتها
صهباء عالية القذى ، خرطوم^(١)
ويقول الأعشى :

من خمر عانة قد اتى لختامها
حول ، تسل غمامة المزكوم

فيقول الأخطل :
وإذا تعاورت الأكف ختامها
نفحت فنال رياحها المزكوم

(١) خرطوم : سريعة الإسكار .

ويقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة
واخرى تداويت منها بها .. فيقول

ابو نواس :

دع عنك لومي فان اللومَ إغراء
ودواني بالتّي كانت هي السّاء

وينقلب المعنى ، عند النّواسي ، تجربة ، والتجربة
تضغظ في رأي أو حكمه . وحين يصبح الشعر وعاء
للحكمة ، وارشيها تسجل فيه « المعلوماتية » يبرز
الحكماء والمتفلسفون ، امثال المأمون ، فيعلقون على
البيت - « أن اوله سقراط ، وآخره بقراط » ! ^(١) بدل
تذوقه وتحسس جوانب الابداع فيه ، وتلك العفوية
الغامرة التي تنضح منه ، والصراحة الجريئة التي تتحدى
فيه اللاتمين المغلقين الذين كانوا سبب شذوذه
الاجتماعي ، كما كانت الخمرة سبب دائه ودوائه في
آن! فالشعر في نظرهم ، تاريخ وجغرافيا ودين ،
وطب ، وإلا فلا .. عذّروهم انهم يعيشون في القرن

(١) يروى أن المأمون عندما سمع هذا البيت لأبي نواس قال معلقاً : إن
أوله سقراط (أي فلسفة) وآخره بقراط (أي طب) بدل أن يهتف
متأثراً .

التاسع الميلادي .. فما عذرنا نحن ، اذا نظرنا الى
الشعر نظرتهم ، ونحن نعيش في أواخر القرن
العشرين ؟!

وواضح ان الطريقة القصصية الرديئة والحوارية
المتعددة الاصوات التي طغت على اسلوب ابي نواس
الخمري ، كان لها جذور عند الأعشى ، وبدايات
موفقة ، إضافة الى الجانب النفسي ، والمناخ التحرري
الذي كان ابو نواس يحيا فيه ، وينطلق منه في حوار
مع الخمرة : عشيقته الاولى .

وانك لن تجد كبير فرق بين هذه الحكاية للأعشى ،
واية حكاية خمرية لأبي نواس ، اللهم إلا فارق
العصر ، والوضع ، والموقف والثقافة . قال الأعشى :

وقد اقود الصبا يوما فيتبعني
وقد يصاحبني ذو الشرة الغَزَلُ

في فتية كسيوف الهند قد علموا
ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحِيلُ

نازعتهم قضب الريحان متكثا
وقهوة مزة راووقها خَضِل

لا يستفيقون منها وهي راھنة
 الا بهاتٍ ، وإنْ علوا ، وإنْ نهلوا
 ومستجيب تخال الصنح يسمعه
 اذا ترجعُ فيه القينةُ الفضلُ
 والساحباتِ ذيول الریط آونةً
 والرافلات على اعجازها العجل
 من كل ذلك يوم قد لهوتُ به
 وفي التجارب طولُ اللهو والغزلُ

انها حكاية حال الأعشى مع الخمرة حين يذهب
 الى الحانوت^(١) قائداً لشبابه ، لا مقوداً ، تصحبه
 عصابة من كرام الرفاق ، نذروا انفسهم ، مثله ، للحب
 والغزل والخمرة ، ينهبون معه اللذات نهباً ؛ لعلمهم بأن
 العمر هو الشباب ، وما دون ذلك فضول وخمول .. بل
 سراب ! وان الموت قَدَر لا مهرب منه ، ولا حيلة
 معه ... ليتلوع الهاربون من الفاجعة ، وليبيكوا ما
 شأوا .. وليقفوا على الاطلال او يقعدوا .. اما هم
 امامها ، فذوو شرة يتحدونها بتحبيدها او نسيانها .. ها
 هم في الخمارة يتحلقون حول استاذهم الأعشى

(١) الحانوت : المقصف أو الخمارة بلغة اليوم او (الكابارية) .

المتكيء على قُضْبِ الريحان يأنسون بحديثه وشرابه
وآدابه^(١) . . . فينتشون بها نشوة لا يستفيقون منها الا
ليطلبوها من جديد . . . اما السقاة فغللمان نظيفو الثياب ،
خفيفسو الحركة . يطوفون على السكارى بين
الاغفاءتين ! ثم لما تفعل الخمرة فعلها ينطلق الوتر في
نغم خافت يجاوبه الصنج ، وصوت القينة الفضل
(بالماكسي) في ترنيمة مشتركة خافتة تزيد من بهجة
المكان وتخفف من ثقل الزمان .

وتمضي ايام الأعشى كهذا اليوم الذي لها به وتحرر
من نكد الدنيا وقسوة الواقع . . ولن اتصوره غير هذا ،
حتى ولو لم يكنه . . واضح من هذه الخمرية ،
ومثيلاتها ، مدى تحضر الأعشى ، وعمق ما تأثر به من
طوافه حول اطراف الجزيرة العربية ، حيث الممالك ،
والملوك ، والدور والقصور ، وحيث الحضارتان
القديمتان الفارسية والرومانية (وريثة اليونانية) تتركان
بصماتهما في ملبس عرب الحواضر ، ومأكلهم
ومشربهم وعاداتهم . . فيأخذ الأعشى من كل ذلك

(١) لاثبات استاذية الأعشى انظر المقارنة المفصلة بين خمرياته وخمريات
الأخطل وأبي نواس التي عقدناها في كتابنا : أبو نواس ص ٩٠ وما
بعدها الصادر عن دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠ .

بقسط ينعكس على خمرياته واسلوبه فيها . ويكاد ينفرد
في توصيل ذلك اليهم ..

فمن خمريات الأعشى تتعرف الى الحانة
والحانوت ، والخَدم والسقاة والقيان والقيئات .. كما
ان زي الغلامه Ala garçonne كان معروفا في تلك
القصور والحنات .. فهذا غلام الاعشى يعلق في اذنه
قرطاً ، ويخضب كفه ، ويقلص سرباله ^(١) عندما يباشر
عمله في الحانة ليصبح جزءا منها . مع هاتيك الغانيات
المغنيات اللواتي يَسْحَبْنَ ذبول الربط ^(٢) ..

وبيديه ان هذه الرقة ، وهذه الحضارة لم تكونا
في البادية ، ولا عرفهما شعراؤها ، إلا مَنْ تسنى له ،
كالاعشى والنابعة وحسان وعدي ان يعيش معهما
وفيهما .. الاعشى لماما والنابعة وحسان وعدي
دواما .. بل كانتا في الحواضر ، وفي مدن العراق
والشام والحيرة واليمن وبعض الواحات كتيماء وفدك

(١) اصبح عند العامة (شروالاً) والسربال : الدرع ج سراويل جاء في
القرآن (سورة النحل) : ﴿ وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل
تقيكم بأسكم ﴾ .

(٢) الربط : أو الربطة كل ملاءة غير ذات لفقين (أي قطعتين متضامتين)
كلها نسيج واحد وقطعة واحدة (عِيطَ المحيط مادة ربط) .

وجلج والاديرة . وكان طبيعياً ان ترق ديباجة هؤلاء الشعراء المتحضرين ، وان يتميزوا عن غيرهم من شعراء البادية ، وبالأخص في خمرياتهم ، لكأن الخمرة قد تسربت الى الحروف والكلمات فانتشت بها بعد ان انتشى الكيان والوجدان . وسرعان ما يبدو الفرق واضحاً حين ننتقل الى سائر موضوعاتهم الشعرية حيث يبدأ الجفاف وغريب الكلام وخشن الصور بالتكاثر والتزاحم في تراكمية كثيفة . . . تبعدنا عنهم بقدر ما تقربنا منهم خمرياتهم المتحضرة . . .

تحضر بدون استقلال :

لم تستطع رحلات الأعشى الى اطراف الجزيرة ومعايشته لأشياء الحضارة في الحيرة واقتباساته منها ان تفصله عن بداوته وجفاف اسلوبه الا بمقدار ضئيل ، لا نحسه إلا في خمرياته ، كما رأينا وحتى هذه الخمريات لم تستقل مع الأعشى في قصيدة ، والموضوعية ، التي هي احدى مفرزات الفكر المتحضر ، لا نجدها في قصائد الأعشى الخمرية ، مع انه عاش للخمرة ، في صباه ، وكاد ينقطع اليها . علماً بأنه ما مدح وما تكسب

في مدحه إلا من اجلها . وهذا معناه ان الأعشى كان قليل الحظ من الحضارة ، وبالتالي ، قليل الحظ في الموضوعية الفنية التي يتميز صاحبها بالتفرغ والانقطاع لموضوع واحد ، كما تتميز القصيدة الراقية ، في اي موضوع كان ، بالاستقلالية التامة ، فلا خلط ولا مزج ولا تنقل ، في القصيدة الواحدة من موضوع الى موضوع . كما لاتعليل ولا تحليل ولا وحدة .

لذا ظلت خمرياته في اكثرها ابياتا - مطالع - يوطيء بها الى المدح والهجاء او الفخر ، وبالعكس .

وتنحسر موجة « التحضر الفني » عن الأعشى في بقائه حسي الوصف ، مادي الصورة ، شيمة سابقه ومعاصريه من الشعراء الجاهليين ، فلا تجريد ولا انفعال ولا خيال ، بل لصوق بالمشهد لصوقا شكليا او ظاهريا تحدده الباصرة لا البصيرة ، وتتعامل مع المرثي كشيء محدود لا ابعاد له ولا صلة له بالنفس او الوجدان .

فأين امتياز الاعشى اذن ؟ سنرى ان امتيازه في الخمريات هو انه نقل الخاطرة أو اللوحة الى « الفكرة » ، الى الموضوع . صحيح انه لم يرتفع

بالخمرة من المادة الى الروح ، من مظهرها الى جوهرها ، وظل جاهليا ، الا انه « ارتفع افقيا » بها ، اذا صح التعبير ، بمعنى التوسع والاحاطة والشمول ، قبله كان ذكر الخمرة على لسان الفارس ، والرئيس ، والصعلوك ، سيلا الى التفاخر والتباهي والإدلال على الآخر بأنه ذلك الفتي القادر على شرائها « بالمشوف المعلم » على حد قول عترة ، وانه يشربها « بعدما ركد الهواجر » ، وانه وان سكر فانه يبقى وافر العرض والكرامة . ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد .. فلا تطرق الى الخمرة نفسها ومجلسها ، وصفتها وساقيتها وسائر توابعها ومفاعيلها في الرفاق ، ثم صفة هؤلاء الرفاق قبل السكر واثناءه وبعده .. مما توسع به الأعشى توسعاً لم نعهده قبله . ناهيك بما اضافه على الخمرة من نعوت جديدة واسماء مجلوبة من عواصم المتحضرين الذين زارهم وشرب معهم ..

نماذج محللة : شلاشل بنت الأعشى !

وهذه خمرة مقتطعة من معلقته اللامية التي يودع فيها صاحبه « هريرة » بعد ان تغزل بها ما شاء له

التغزل موطئاً بكل ذلك إلى مدح يزيد بن مسهر أبي ثابت
الشياني، جامعا ، في المعلقة ، كل ما يريده من غزل
وخمر ومديح وفخر . قال :

وقد اقود الصبا يوما فيتبعني
وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل
وقد غدوتُ الى الحانوت يتبعني
شواو مثل شلول شُلْشُل شول^(١)
في فتية كسيوف الهند قد علموا
ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكئاً
وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة
إلا بهات ! وان علوا وان نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف
مقلص اسفل السربال معتمل

(١) الشاوي الذي يشوي اللحم . الجشل : سواق الإبل ، الشلول :
خفيف الحركة : روى أبو عبيدة : نشول : الذي ينشل اللحم في
القدر ويقدمه للقوم . الشلشل : المتحرك . الشول : الذي يحمل
الشر . وقالوا : شبل بمعنى طيب النفس والرائحة . أما الذين انتقدوا
هذا البيت فلم يترثوا ليروا ما وراء هذه الشلشلة . .

ومستجيب تخال الصنـج يسمعه
إذا ترجع فيه القينة الفضل
من كل ذلك يوم قد لهوتُ به
وفي التجارب طول اللهو والغزل
والساحبات ذيول الخـز آونة
والرافلات على اعجازها العَجَلُ^(١)

لا ادري ما الذي قَرَّبَ الاعشى ، في لاوعي
الحافظة ، من بدر شاكر السياب | لعلها شناسيل بنت
الجلبي ، لشاعرنا العراقي الرومسي ، وشلاشيل
الاعشى ؟! في تداعٍ حروفي ساقته الشنشنة والشلشلة
لحظة التداعي الوجداني الذي انبثق عن صورتين
تكادان أن تكونا واحدة .

صورة الصورة

الساحبات ذيولَ الخـز آونة
والرافلات على اعجاز العَجَلُ ..
للواتي يحملن (العَجَل) . او جرار الماء (او

(١) العَجَل : جمع عَجَلَة وهي قربة الماء .

الخمرة) متكئات بها على اطراف اردافهن ، يدرن بها ، في الحانة ، على الاعشى ، ورفاق شرابه . .
وصورة بنت الجلبي الريفية التي تسحب في قريتها
الوادعة ذيول فستانها الحب والاعجاب ، نظير عرشة الحب
والسكر تحدثها الساقية في كيان ووجدان الاعشى
المنهمك ، في الحانة ، بِشَوَائِهِ وشِوائه ، ذاك المشلشل
الشول (السريع الحركة) !!

واراني ، أثر هذه الرؤيا واقعا بين تنافر الاضداد
وتتابع حركات الجرس الموسيقى ، مستدعياً نشوة
وجدانية سرعان ما تتسرب الى كياني من رؤية بنت
الجلبي ، وبنات الاعشى^(١) وهن على تلك الصورة
الرائعة ، فأكاد اسحب مثلهن فضل ردائي . . لكن ،
سرعان ما أتعثر باذيال الشناشيل العراقية والشلاشيل
الاعشوية ، فاتراجع دون ان ادخل ، وابقى متأملاً^(٢) !
اما التحليل الفني لهذه المقطوعة الخمرية فقد اجريناه
قبل قليل .

(١) قلنا : بنات الأعشى لمراعاة النظير . وقصدنا : شلاشيله .
(٢) تلك رؤيا نَلَّتْ عن أحلام اليقظة ، لا أدري ماذا يقول عنها النقاد
وعلماء النفس التجريبيون . أو لعلها شئنة عُرِفَتْ عني في الاستطراد
والشطح ! والله أعلم .

مقطوعة خمرية اخرى : =====

جاءت هذه المقطوعة كغيرها ، توطئة الى مدح
قيس بن معد يكرب ويزيد بن عبد المدان :

أَلَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ عَمَّا بَيْنَا
بَلَى ، عَاذَهَا بَعْضُ إِطْرَابِهَا !
لِجَارَتِنَا ، إِذْ رَأَتْ لِمُتِي
تقول : « لك الويل ، أنى بها^(١)
فإن تعهديني ، ولي لِمَّةُ
فإن الحوادثُ أَلْوَى بها
وكأسٍ شربتُ على لَذَّةٍ
واخزى تواديتُ منها بها
لكي يعلمَ الناسُ أنني امرؤٌ
اتيتُ المعيشةَ من بابها
كُمِيتُ يُرى دُونَ قَعْرِ الْإِنَا
كمثل قذى العينِ يقذى بها
وشاهدنا الورد والياسمين
نُ ، والمسمعاتُ بقصابنها

(١) تلومه جارته على تصايبه وهو شيخ . قائلة : أنى لك بالتصايي وأنت
أشيب أشمط؟!

ومزمرنا مُعْمَلُ دَائِمٍ
 فأَيُّ الثَّلاثَةِ ازرى بها
 ترى الصَّنَجَ يَبْكِي لَهُ شَجْوُهُ
 مخافةً أن سوف يدعى بها
 مضى لي ثمانون من مولدي
 كذلك تفصيل حُسابها
 فاصبحتُ ودعتُ لهُوَ الشَّبا
 بٍ ، والخندريسَ لاصحابها
 احب أثافتَ وقتِ القطا
 فِ ، ووقتَ عصارةِ عنابها
 وكعبةً نجرانَ حَنَمَ علي
 كِ حتى تُناخي بأبوابها
 نزور يزيدا ، وعبدَ المسيدِ
 حِ ، وقيساً ، هُمُ خيرُ اربابها
 اذا الحبراءُ تلوثَ بهم
 وحبروا اسافلَ هُدابها
 لهم مشرباتُ لها بهجةٌ
 تروقُ العيونَ بلذبابها
 يبدو أن استغراق الاعشى ، في هذا المطلع ، مع

الخمرة والمرأة ، كان طويلا ، ولم يغادره الا بعد ان اشبع نفسه ذكريات ، وهذا روعه مما هو آت « بعد الثمانين التي مضت له » . حتى اذا خلا ، بعد لأي ، الى ممدوحيه انقلبت الغاية وسيلة ، واصبح يزيد وعبد المسيح وقيس وكعبة نجران هوامش المتن ، واطار الصورة . اما المتن ، او محور الصورة ، فهو ذاته ولذاته ، وخمرته وجارته وصنجه ، وحانته وناقته يحاور الجميع ، مبتدئاً بجارته وَلِمَتِهِ .. وتتصر اللمة التي ازرت بها حادثات الدهر وطول العمر بأنتصار صاحبها عليهما .. ها هو ، رغم الثمانين ، يشرب الخمرة ليؤكد للناس انه « اتى المعيشة من بابها » وما زال .. ولكي يعلل استمراريته معها ، راح يفلسفها ويخضعها للمنطق الطبي القائل بعدم الامتناع كلياً عن تناول شراب أو طعام مهما كان ضاراً^(١) او قتل الشيء بمثله .. كالسم بالسم او الميكروب بالميكروب نفسه وهو منطق علمي حديث حَدَس به الشاعر ، وفاض عنه فيضا :
وكأس شربت على لذة
واخرى تداويت منها بها
ولعله اقتبسه من اولئك الكهنة - الاطباء ، في

(١) كالخمرة أو القهوة أو الدخان ، وكل ما هو ضار بالمدمن عليها .

الحيرة واليمن ، فافرغه ، وعيه او لا وعيه ، في حكمة
ملمومة واضحة، اعجب بها، كما رأينا، ابو نواس،
ولاءمت منه عقلاً ومزاجاً ، فعمقها وفلسفها فاصبحت :
وداوني بالتّي كانت هي الداء .. وطبيعي ان تتمازج
الحِكماتُ حين تتماثل الحالات .. فأبو نواس تلميذ
الاعشى ، وتلميذه «الشاطر» ! فلا عجب ان يتفوق على
استاذة ، حضارة وفكراً دون ان يغيّره موقفاً وتحدياً ،
ونفسية .

ويمضي الاعشى ، في ذلك البيت - الحكمة ،
والذي يليه ، في تحدٍ لبقي معلناً انه هو الذي عرف كيف
يعيش ، وكيف يدخل الى الحياة ، من بابها الواسع ،
وليس كأولئك المُغلّقين الذين يجيئون - ثم يذهبون ،
خارج السور العظيم ، ثم لا يدري بهم احد ! ففي ظنه
ان الخمرة ، وهي شراب الآلهة ^(١) هي الباب
والمآب ، وهي سر الوجود ^(٢) .

(١) في ميثولوجيات الأمم الغابرة كالليونان والرومان والفرس .

(٢) وقد أصبحت الخمرة عند أبي نواس مثلاً هي الإله ، ثم اتخذها الصوفية
طريقاً إلى الله ، ولو بالترميز ، فضلاً .. ثم انقلب الله هو الخمرة
نفسها ، فسكروا به واتحدوا .. فضلوا مرتين ! ..

وكذلك فعل الخيام . للتوسع انظر كتابنا : أبو نواس : مجدد أم شعوبي
الصادر عن دار ومكتبة الهلال ١٩٨٠ - بيروت . المؤلف .

وخمرة الأعشى كملت حمراء صافية ، وهي لشدة صفائها «تريك القذى من فوقها وهي فوقه» على حد تعبير الأخطل تلميذ الأعشى الأول والمقتبس الحاذق:

ولقد تباكرني على لذاتها
صهباء عالية القذى خرطوم

وهي لا تشرب في البيوت سرا ، او على الطرقات ، او عند الهاجرة .. بل إن لها حرمةً وجوًّا ومواقيت، لا بد من توفيرها: حانة راقية، يفرش فيها الورد والياسمين، لأمثاله من كبار الشاربين المتخصصين ، امام مغنيات جميلات الصوت والأداء ، يوقعن على أعوادهن، بمرافقة المزممار الدائم العزف... وها هو الورد ، والمسمعات ، والأعشى ، يشكلون ثلوثاً لذيداً يليق بالحانة والعيشة .. ولا يزري بالخمرة .. فهو والرفاق اكفاؤها ، وليس «سفلة» القوم ، او من «يجهل الادبا» كما سوف يقول ابو نواس ..

ويصبح الصنج ، في هذه الخمرية ، جزءاً حياً من الحانة .. فهو لكثرة ما عزف عليه ، أَلَّفَ شجواً حنوناً منسجماً مع اللحن .. واذا بجزيئات الحانة وشخصها تنقلب كلاً واحداً يضحج بالحياة ، فيتشبي الجميع ،

ويتحد الجميع.. ولعلنا ، في اعماقنا ، نشاركهم
نشوتهم ، وننسى معهم كل ما يجري خارج هذا الركن
الدافئ الحميم ، من هموم ومتاعب ، وتفاهات ..
ننسى الحياة في جانبها الروتيني ، وفي وجهها الآخر
الكالح .. ارايت كيف ينقلنا الشاعر ، اعشى ام غير
اعشى ، في لحظة استشفاف واستشراق ، الى عالمه
واحلامه وذكرياته ؟ ولا يكاد شاعرنا يخرج من عالمه
الأثير معلنا وداع «الحندريس» لاصحابها ، حتى يعود
الى ذكرياته في «أثافت» : تلك البلدة الحبيبة الى
نفسه ، لا سيما وقت قطاف العنب وعصره في معصرته
الخاصة ^(١) وينظر ، الآن ، حوله ، فلا يرى سوى
شيخوخته وناقته فيخاطبها قائلاً :

وكعبة نجران حتم عليك
الى ان تُناخي بابوابها
وما ذاك منه لمجرد الزيارة بل لأنه «يرتاح» هناك

(١) كان للأعشى معصرة للخمر في أثافت وهي قرية في اليمن . انظر :
شعراء النصرانية ، ص ٣٧٥ للأب لويس شيخو لكن هذه التجارة
بالخمور لم تكن موروثة الوحيد أو الأهم . تجارته الرابحة كانت كما يقول
صاحب الروائع ما يحصله من الأمراء والملوك لقاء مدح كان يسير بين
العرب والمعجم فيرفع شأنهم الخ .

حين يزور اصداقائه. الاوفياء الكرام : يزيد بن عبد المدان ، وقيس بن معدى كرب وعبد المسيح : هؤلاء الكهنة المتحضرين كهنة كعبة نجران او كنيسةها ، وسدنة حباب الخمرة الذهبية ، ليتداوى عندهم بالتي كانت هي الداء ، وينعش شيخوخته اليابسة .. فما حظ الاعشى رحاله ولناخ راحلته الا عند امثال هؤلاء الصحاب الذين يكرمون ويعطون ويسقون .. صحابٌ مترفون يجرون اذيال النعمة ، ويسكنون الغرف العالية حيث يتبادلون ، مع الأعشى ، كأساً بكأس : منهم الخمرة ، ومنه المديح ، وتتم لكل طرف نشوته !

فن التعبير فيها :

من الواضح ان « استغراق » الاعشى في هذه الخمرية - المدحية ناتج عن « حالة » او تصور حالة ، طالما احب شاعرنا ان يحياها ، ويترجم عنها ، او يتصورها في كيانه ، على الأقل ، ثم في بيانه .. فكيف اذا كان هذا التصور في لحظات اليأس من العودة ، حيث الثمانين تشد على من بلغها شداً عنيفاً ، فاذا به ، هنا ينفجر ... لكن انفجاره جاء غير مُدَوٍّ .. جاء

هادئاً هدوء العمر كله.. فانساب التجربة - الذكري عبر
 حوار حميم مع الجارة اللائمة ، في رشاقة حوارية
 تخيلية تبدو وكأنها عصرية ، وليست لشاعر عاش في
 القرن السادي الميلادي .. وهذه الكلمات : ورد ،
 ياسمين ، معيشة ، شجيو ، لهو ، مزمر ، قطاف .
 ليست كلمات لشاعر اذاعي عصري ينظم ليلحن شعره
 ويغنى في الاذاعة ؟! واذاعة الاعشى كانت صوته
 وصنجه .. كل ذلك ساعد على اشاعة جو المرح
 والمتعة والجمال والموسيقى . جو اندمج فيه الشاعر ،
 مع انه اطل عليه من مسافة بعيدة ، مسافة الثمانين
 عاماً .. لكنه كان موصولاً به ، مشدوداً اليه .. فاحت
 المسافات ؛ ونسي الشاعر موقعه .. كما نسي القافية
 الايقاعية هل هي لاتمام المعنى ام هي لكمال اللحن ،
 فرددها ، تلقائياً ، كما هي . فاذا «ها» تتكرر
 خمس مرات ، وبصورة متتالية وفي مقطع
 خمري قصير ... معنى ذلك . في نظرننا ، ان الشاعر
 مشغول «جوانياً عن كل ما في هيكلية قصيدته
 » برانياً .. او .. لعل حب التطريب في النغم الرتيب
 الذي تفرضه ضربة الصنح (ططق - ططق : حركتان
 فسكون مكررة رره - رره) هو الذي دعا الشاعر الى

تكرار « بها » خمس مرات . فكأنها اللازمة الموسيقية التي جرت عليها بقية القوافي المماثلة ، اذ لم يعد يهم التنوع ، في هذه القافية بقدر ما يهم الترجيع اويبقى ، اخيراً ، بحر القصيدة - المغناة ، وهو المتقارب . . لتقارب تفصيلاته وإيقاعها ولقرب القافية من صدرها . مما يصلح للغناء الراقص ، كما يقول البستاني في مقدمة الالياذة المعربة ، ولوصف مجالس الخمرة والطرب حيث تستعمل الآلات الموسيقية الخفيفة ذات النغم المقتضب والسهل : كالطبله والزمير والصنج والعود . .

كان طبيعياً ان يصدر كل ذلك عن شاعر شبه متحضر ، ذي حس مرهف ، ولياقة تعبيرية تعطي لكل حالة لونَ صورها وتشابيهها ، ولكل نغم ما يلائمه من الحروف والحركات . .

لكن الاعشى ، رغم كل هذه الرشاقة واللياقة ، ظل مادي الصور حسي الخيال : نظرا الى انه لا يزال لصيق صحرائه وعصره ، مهما ساح وطاف ، وعبد لغته التعليلية - القرشية الغريبة الجزلة التي رقت الخمرة والحضارة منها ، بعض الشيء ، لكنها لم ترتفع

بشاعرنا الى مستوى التجريد .. ولا الى الوحدة
الموضوعية والتعليل والتحليل من حيث المعنى .. فلا
يزال بينه وبين هذا قرنان من الزمان ..

خمرية الثالثة:

وقد بدأها ، كعادته بغزل موجه ، هذه المرة ، الى
هند في المطلع ، ثم الى سلمى في الختام .. اي الى
لا أحد . قال بعد غزل تخيلي :

وطلاء خسرواني اذا
ذاقه الشيخ نغنى وارجحن
وطنابير حسان صوتها
عند صنج كلما مُسَّ أَرَن
واذا المسمع افنى صوته
عَزَفَ الصنج فنادى صوتَ وَن ..
واذا ما غُضَّ من صوتيهما
واطاع اللحن ، غنانا مُغْن
اذا الدن شربنا صفوه
أَمروا عمراً فناجوه بَدَن
بمتاليف اهانوا مالهم
لغناء وللعب ، وأَذَن

فترى إبريقهم مسترعفاً
 بشمولٍ صفقت من ماءشن^(١)
 غدوةً حتى يميلوا أضلاً
 مثل ما ميل باصحاب الوسن
 ثم راحوا مغرب الشمس الى
 قُطْفِ المشي ، قليلات الحزن

نسخة طبق الأصل عن سابقتها : ابيات ايقاعية
 تغنى بسهولة على آلات العزف البدائية ، كالطنبور
 والدف والصنج ، وقد يكفي وحده عشوائياً . . تساعد
 على ايقاف انسياب النغم : قافية مرنانة مشددة ساكنة
 الحرف الأخير ، متحركة الروي ، على وزن فَعْلُ
 (حركتان فسكون زره) من المتقارب ايضاً . وتراه
 يحدد سير الايقاع تحديداً مقصوداً اذ يربط القافية كلها
 بالنوطة الموسيقية ، بتعبير اليوم ، وباللازمة ، بتعبيرهم .
 وهي هنا : صوتَ وَنَ . . التي لا معنى لها سوى انها
 ضابط حركي فقط . فاذا كانت القافية العربية ، قبل
 الأعشى وفي ايامه وبعدها « خبطا عسكريا » كما يقول
 احد النقاد المعاصرين ، او كلاماً مسجعاً بلغ ذروته ،

(١) مسترعفاً بالشمول : مليء بالخمرة المبردة .

كما نقول نحن .. فان قصائد « الأعشى وبالأخص
 خمرياته ما هي سوى « خبط وَتَري » ان صح التعبير
 ودوزنة عود ، وإيقاع دف ، وضربة صنج بالاصبع !
 ضربة منخفضة حتى « يطبع اللحن » ، ويتمكن المغني
 من الانطلاق ، كما يقول : فاذا ما غُض من صوتهما
 ما أطاع اللحنُ غنانا مُغَن . كما يلاحظ أن قافية صدور
 الابيات : الثاني والثالث والرابع من هذه الخمرية مؤلفة
 من لفظة : صوتها ، في البيت الثاني ، وصوته ، في
 الثالث ، وصوتهما في الرابع .. وكأنه قصد الى ذلك
 قصدا ، ل يتم تجاوب موسيقى الداخل مع موسيقى
 الخارج ، في القصيدة ، الانشودة .. او المعزوفة ..
 وكعادته ايضا مع الندامى ينطلق الأعشى في بزل
 الدن ، ليشرب هو والرفاق صفوه حتى الثمالة .. منادين
 عمرا بصوت واحد : ان أحسنت ، على ما غنى وما
 سيغني ، يقولونها « مناجاة » ورفع كؤوس ! انها عادة
 قديمة معروفة لدى المعاقرين اقتبسوها عن الفرس
 والرومان كابرا عن كابر .. وها هو الاعشى يشير اليها
 بقوله : « فناجوه بدن » هؤلاء الرفاق متحضرون
 اسخياء : « متاليف اهانوا مالهم » .. لغناء ، وللعب
 وأذن « لا كأولئك الاغنياء الاشحاء (من عرب

الصحراء؟) الذين يهينون انفسهم من اجل الحرص
والشح ، فلا يستمتعون بدنياتهم ، فيبرهنون على غباء
مطلق ، وجلافة بدوية رعناء ..

انها اشارة بعيدة ، رَمَز اليها الشاعرُ بكلمةٍ واحدة :
متأليفٌ أهانوا مالهم .. فعرفنا قصده ، وكم في قصده
من مغامز !

ويسترسل الشاعر ، بعد هذا الغمز ، في وصف
ظاهري لهؤلاء الندامى واباريقهم التي لا ترى الا
مسترفةً مترعةً بالخمرة المثلجة .. رغم أنهم ينهلون
منها بين اللحظة واللحظة ، وهم يياكرونها مصبيحين ،
ويميلون عليها أصلاً مقتبحين .. حتى اذا غابت الشمس
مشوا الى منازلهم بخطى وثيدة، قليلات الحزن ..
على حد اشارته ..

هذا المجلس الخمري يبدو انه نهاري ، وكأن
هؤلاء لا عمل لهم، في ليل او نهار، سوى معاقرة
الخمرة .. الا اذا كانت المعاقرة بحد ذاتها عملاً ، في
ظنهم ، كما سيفعل التلميذ « الشاطر » ابو نواس هو
وعصابتة اذ كانوا لا يُرون إلا « متقلبين بأوزارهم
وزوا ملهم » بين الكوفة وبغداد ، او بين بغداد وارباضها

واديها « مطبقين باخلاص الدستور النواصي القائل في
رأس مواده :

وما الغرم الا ان تراني صاحبا
وما الغنم الا أن يتعتعي السكر !

وتتواتر خمريات الاعشى على نسق واحد ونفس
قصصي في بدايات لهائه ومطالع حوارهِ ، لكنه يرهص
لما يعده من قصص خمري متكامل سيظهر على يد
النواصي وفي بعض الموشحات . قال يحاور رفيقا له
ابيض :

وابيض مختلط بالakra
م ، لا يتغطى لانفادها^(١)
اتاني يؤامرني في الشمو
لِ ، ليلا ، فقلت له غادها
ارحنا بباكر جد الصبو
ح ، قبل النفوس وحسادها^(٢)

(١) لا يتغطى : أي لا يتساكر ، إذا نفدت الخمرة فيظاھر بالنوم كي لا
يشترى لرفاقه .

(٢) أي نشرب غدوة قبل أن يراانا الناس فيحسدونا .

فقمنا ، ولما يصح ديكنا
 الى جونة عند حدادها (١)
 تنخلها في بكار القطا
 ف ، أزيقُ آمن إكسادها (٢)
 فقلنا له : هذه هاتها
 بادماء ، في جبل مقتادها (٣)
 فقال : تزيدونني تسعة
 وليست بعدل لأندادها
 فقلنا المَنصفنا : اعطه
 فلما رأى خَضَرَ شَهادِها
 اضاء مظلته بالسُّرا
 ج ، والليلُ غامرُ جُدادِها (٤)
 دراهمنا كلها جيد
 فلا تَحْبِسْنا بتنقادها

-
- (١) الجونة : الخمرة السوداء إلى حمرة خابية ، حدادها : صاحبها الذي يحد الناس عنها إلا بئمن .
 (٢) تنخلها : اختارها . أزيق : اراد به صاحبها . وصفه بالأبيض ثم بالأزيق . ولعله يقصد الرجل الرومي الأبيض ذا العينين الزرقاوين . .
 (٣) ادماء : بيضاء ، في جبل مقتادها : في جبل سائقها .
 (٤) المظلة : الخباء . الجُداد : الهُدُب الذي يبقى في أسفل النسيج .
 والمقصود الخصاص بين شقتي المظلة .

فقام ، فصب لنا قهوةً
تسكننا بعد إرعادها
كميتا تكشف عن حميرة
إذا صرّحت بعد إزبادها^(١)
كحوصلة الرأل في ذنّها
إذا صوّت بعد إقعادها^(٢)
فجال علينا بإبريقه
مُخَضَّبٌ كَفٍ بفرصادها^(٣)
لقوم فكانوا هم المنفديـ
نَ شرابهم قبل انقادها
فرحنا تنغمنا نشوة
تجورُ بنا بعد قُصادها
اصبح واضحاً ، بعد كل هذه المطالع الخمرية ،
او الغزلية - الخمرية ، ان الأعشى يقف في نقطة

(١) كميت : حمراء ضاربة إلى السواد . فإذا روقت بعد الإزباد فانكشفت عنها الرغبة ، أو إذا فرجت ، بدت حمراء .

(٢) صغير النعام . شبه تجمعها بحوصلة الرأل . اقعادها : طول بقائها في الدن . .

(٣) الفرصاد : ثمر التوت .

اخذت هذه التفسير عن الروائع رقم ٣١ ص ٥٧ وما بعدها .

وسطى ، بين النمطية التقليدية والتجديد ، بين الابداع والاتباع. ففي مطالعه الغزلية كان، كأى شاعر جاهلي، يوطيء للمدح أو الفخر، بغزل مصطنع لا ظل فيه لذات الشاعر ، ولا تعبير عن حالة حب ، ما خلا قلة قليلة منهم ، عانت من الحب واكتوت بناره ، او جُللت بغاره ، فبثته في اشعارها ، كمارىء القيس وعنترة وامثالهما . فهذا زهير ، على وقاره ، لا يجد مندوحة من التغزل ، في مطلع معلقته ، فيتغزل بزوجته « أم اوفى » والحارث بن حلزة ، الشيخ الأشمط الابرص ، يتغزل بصاحبته « اسماء » !

وهكذا كان لا بد من هذه التعويذة يضعونها على جبين قصائدهم ومعلقاتهم ، وقاية لها ، ربما ، من حسد الحاسدين من الجن والانس ! حتى جاء الأعشى فمزج بين غزليات مصطنعة وخمريات مبتدعة . وحين نقول مبتدعة نعني ما نقول . اذ لا شك في ان الاعشى ، كما عرفنا من سيرة حياته ، على قلة اخبارها ، كان لا يمدح احداً ، كبيراً او صغيراً ، الا من اجل مالٍ ينفقه على الخمرة والرفاق ، حتى اذا وصف ذلك ، ووطأ به واكثر منه ، كان صادقاً ، لأنه يعبر عن حالة يعيشها

يومياً . واذا اتهم بأنه كان يلجأ الى « صنع » خمريته
 « ليوطىء بها لمدحه ، فيصبح الرصف الخمري ، في
 نظر التهمم » منهجا ادبياً يكاد يسير عليه دون دافع
 حاضر او ذكرى مخصوصة^(١) . . ففي هذا الاتهام
 شيء من الانصاف ، وشيء من التجني على الشاعر .
 اما الانصاف فهو انه نهج نهجاً جديداً في التوطئة
 بالخمرية ، بدل الغزلية ، تخلصاً وانتقالاً الى ما يريد من
 المدح او الفخر او الهجاء . اما التجني ففي قول
 صاحب الروائع ، ان ذلك النهج كان « للتوسع الشعري
 دون دافع حاضر او ذكرى مخصوصة » . . كما كان
 الشعراء (قبله) « يوطئون بالغزل دون ان يشعروا
 بمفاعيله » . .

والحقيقة الخالصة ، في نظري ، هي ان هذا
 الشاعر الذي ظل طوال شبابه ، وحتى في شيخوخته ،
 تقطر الخمرة من اردانه فتغسل اردانه . . وبلغ من حبه
 لها ولمجالسها ان اوصى بأن تهرق على ترابه في
 ضريحه ! وربما قَفَلَ ولم يُسَلِّم من اجلها . . هذا
 الشاعر لا يمكن ان يُتهم بأن خمرياته - المطالع كانت

(١) انظر : الروائع رقم ٣١ ص ٥٦ .

نهجاً ادبياً وحسب ، وانه حين يقول خمريه ، وإن في
 معرض المدح ، لا يقولها عن احساس صادق بمفاعيل
 الخمرة .. فالخمرة التي تجري في دمه وكيانه لا بد ان
 تجري في بيانه .. نحن لا نملك تاريخ اللحظة التي
 قال فيها هاتيك الخمريات لكي نتأكد من انه
 كان خارجاً لتوه ، من « الحانوت » لكننا نملك شيئاً
 واحداً هو هذا النفس الأعشوي في الخمريه ، وذلك
 الجو الحميم الذي يشيعه في « المجلس » ، وتلك
 « الخبرة » بالخمرة ومذاقها ووصافها ومفاعيلها .
 صحيح انه كرر نفسه في اكثر خمرياته ، وكان متشابه
 الاوصاف والصفات ، مادي التشابه والصور ، وانه لم
 يستقل بالخمريه ، فلم يجعل منها فناً قائماً بذاته ..
 إلا انه كان على الأقل ، هو نفسه ، ولم يكن غيره ،
 في خمرياته .. كان اصيلاً فيها ومبدعاً ومتحضراً ،
 وهذا حسبه .. كان كلما وقف على امير او ملك او
 صعلوك ، يقف اولاً على الخمرة : اميرته الاولى يستلهم
 منها ايات المدح وصفات الممدوح ، ويتوقف طويلاً ،
 حتى ليكاد ينسى ما هو بصدد من مديح وممدوحين .
 فؤلاءهم ممدوحوه : قيس بن معدي كره ، ويزيد بن عبد
 المدان وعبد المسيح يصبحون ، في آخر خمريته :

ألم تنه نفسك عما بها
بلى ، عاذاها بعض إطرابها

وكانهم غير معنيين بالمدح لطول ما توقف عند
خمرته ونشوته وجارته ولمته ومعصرته وفلسفته .. فهل
هذا كله « منهج ادبي » وحسب ؟ ام قطع كيان تذوّب
على وهج الذكريات فتنبعث المعاناة والمعاشة القديمة
حيّة حارة وكأنها بنت ساعتها ؟

وحين نطلع على سيرة شاعرٍ ما ، من شعره ، ونفهم
نفسيته من خلاله ، كما هو شأننا مع ابن الرومي مثلا ،
يكون هذا الشعر مرآة صادقة تعكس حقيقة الشاعر في
شتى حالاته ، ويكون الشاعر مترجما امينا له ولها
عبّر ..

ثم ان هؤلاء الذين وطأ الأعشى بالخمير لمدحهم ،
كانوا هم انفسهم معتقي خمرة ، وبائعيها ، وشاربيها
وباذلي دنائها- للشعراء والاصدقاء : يعاقرها معهم ،
يمدحهم بصفاتها ويمفاعيلها ، او يجعل منهم وسيلة
اليها ، والبقاء معها حين يعود ، ومعاقرتها بما يجود به
هؤلاء عليه . فالخميرية الاعشوية اذن ، ليست مجرد
نهج او مطلع او بديل عن الغزل المصطنع ، او مزيج

منهما معا .. انها ، في الحقيقة ، تعبير عن حالة دائمة
كان يعيشها الشاعر حتى في صميم مواقف المدح او
الفخر أو الهجاء ، فهي هاجسه ، وهي غايته ، وما
الباقى الا وسائل ..

وبعد ما رأيك في هذه الاقصوصة الحوارية التي
بين ايدينا الآن : وايض مختلط بالكرام ؟ هل هي
مجرد مطلع ، توطئة لمدح سلامة ذي فائش بن زيد بن
مُرّة الحميري ، ام هي وقفة امام ذكريات لفترة من
فترات العمر الزاهية المباهية بكل اشياء المتعة واللذة
واللهو ؟ لا إخالك بعد التلمي ، الا مثلي ، معجباً بهذا
التجلي في الاستذكار واسترجاع حادثة عزيزة على قلب
الشاعر، هي حادثة دعوة ذلك الصديق الابيض له الى
تناول كأس في حانة ليلية ، وما جرى بينهما وبين
صاحب الحانة من حوار ومساومة على نوع الخمرة
وسعرها ، وكيف انه ، لما اطمأن اليهما :

اضاء مظلته بالسراج
والليل غامر جُدادها

فانكشفت له على ضوء السراج قيمة دراهمها
الجيدة .. وتلك الدقة في تصوير تضايق الأعشى

ومضيفه ووصيفه حين حبسهم حداد الخمرة عنه دخول
الحانة إلا بعد التأكد من المبلغ المدفوع ، بقوله :

دراهمنا كلها جيد
فلا تحبسنا بتنقادها

ثم يدخلون فيادر الحداد بصب قهوة دهرية ترعد
وتزبد في الكأس لكنها في جوف معاقريها مُسَكَّنة
لهياجهم ولهفتهم وتوتر اعصابهم :

فقام وصب لنا قهوة
تُسَكَّننا بعد ارعادها ..

ويمضي الأعشى في وصفه المادي الدقيق لتلك
القهوة- الكميت التي تتكشف عن حمرة داكنة اذا
روقت بعد الإزباد ذهبت عنها رغوتها او اورْبُدُها ، اما
اذا مُزجت ظهرت حمراء نبيذية ولعلها النبيذ نفسه ، او
تلك الخمرة التي كانت معروفة في الجاهلية والمصنوعة
من خلاصه التمر . فهي اذن : كميت كحوصلة صغير
النعام (الرأل) ويجب ان نلاحظ الدقة في المقابلة بين
اللوتين الداكنين ، مع ان الاعشى كان لا يرى جيدا او
هو كالأعمى ! لكن الشعراء دائما يرون ببصائرهم لا

بأبصارهم .. وبما يختزنون في ذواكرهم من ملامح
الأشياء وسمات الأشخاص . وما رأيك بهذه الصورة
المعقدة لبشار الاعمى حيث يصف معركة ليلية :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه
واعمى المعرفة في وصفه ليلة ساهرة :

ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جُمان
ناهيك بهو ميروس وإلياذته !

ان الشعراء المبدعين لا يحتاجون الى عيون
باصرة ، فكل ناحية من كيانهم تشع منها الف عين
وعين .. لذلك هم يرون ما لا نرى ، ويحسون بما لا
نحس .. هل نسينا ان في الشاعر جزءاً من الالهية ؟ !

ولا بد ، في نهاية كل مجلس اعشوي ، ان يجول
الساقى او الساقية بابر يق الخمرة ، بعد الرقص والغناء
والمنادمة ، وان يغمز من قناة الاشحاء بمدح الكرماء
من مددوحيه الذين يستنفدون الخمرة قبل ان تستنفد
دراهمهم ، وهم القادرون في الحاليتين ..

ولا ننسى ايقاعية خمرياته كلها التي نظمها لتغنى
بالصنج ، على الأقل ، وبلهوات المغنيات المجيدات
على وقع العود والمزمار . وتعجبي ، هنا ، هذه
الصورة للأعشى ورفيقه ، حين انتشوا فاصبحوا هم
النغم مشيةً وتمايلا :

فرحنا نَنغمنا نشوةً
تجور بنا بعد قُصَّادها ..

ولا يفوتنا ، اخيراً ، ان نلاحظ النَّفس القصصي
الحواري الذي يسيطر على هذه الخمرية من اولها الى
آخرها ، والتي ينتقل خلاله الاعشى برشاقة بين الخير
والانشاء ، بين الغيبة والخطاب ، في « ديالوج » خفيف
ومرح يلج به الى اعماق نفسية « الحداد » او صاحب
الحانة ، تلك النفسية التجارية التي توسع في تحليلها
تلميذ الاعشى ابو نواس في خمرياته الشهيرة .. تلك
الخمریات البتي تمتد جذورها لتتصل بجذور الاعشى
مع اعتبار فارق الزمن والحضارة .. ولكن الملامح
والمنهج والمزاج تبقى هي اياها عند الشعارين ..

وتبقى ، بعد ، مسألة المعاناة والتجربة في الصنيع
الشعري ، والصدق الفني والاخلاقي مدار اخذ ورد

حتى الآن، فهل يتحتم على الشاعر، اي شاعر، ان يمر بالتجربة او معاناة الحالة التي يعبر عنها شعرياً ، وما هو معنى المعاناة ونوعية التجربة ؟ هل يمكن للشاعر ان يبدع في وصف حرب تحريرية ، مثلاً ، دون ان يخوضها او يعايشها او يعيشها ؟ ام يكفيه ان يتمثلها في الضمير والكيان حتى اذا تأثر ببطولات ابطالها وبيانتصاراتها ، او انهزاماتها تفجر بالشعر وجاء بالرائع منه ؟ ام ماذا ؟

الواقع أن التجربة عماد كل ابداع فني ، فالشاعر المبدع هو صاحب التجربة أو المعاناة الخاصة . ويقدر ما يعبر بصدق وفن عن تجربته الذاتية بقدر ما يبدع ويغايير . اما إذا عبر عن مجموعة التجارب المشتركة والمتوارثة ، ولو بمهارة ، فسوف تفقد تجربته هذه حراوتها ، واصالتها وتفردها ، فيسقط في التقليد والمشابهة ، وجدلية المنطق العام ، ويبهت ابداعه أو ينعدم .

تجربة الماضي كانت مشتركة ، بمعنى انها تقليدية ، تشابهية ، وحين شذ عنها بعض التجديدين والابداعيين رموا بالغموض واتهموا بالسقوط والضلال .

ولا نزال ، نحن العرب ، الى الآن نقذف بالتهمة نفسها كل صاحب تجربة شخصية ، مغايرة ومبدعة .

اما بالنسبة الى تمثل الحرب الثورية مثلا ، دون الاشتراك شخصياً فيها ، فهي تصور لحالات الآخرين وليست تصويراً لحالة الشاعر ذاته ، وهي التزام بموقف سياسي انساني او قومي اكثر منه تعبيرا عن تجربة ذاتية ، محض ذاتية ، فيأتي التعبير عنها ضمن نطاق الشخصية العامة ، لا الشخص في الشاعر . وبتعبير اوضح . ان التمثل حالة خارجية لنموذج جاهز ، يثير جوانب نفس الشاعر دون اعماقها . .

ثم ان التجربة ، بقدر ما يكون التعبير عنها بعيدا عن الصحو العقلي والجدلية والتفسير ، بقدر ما تكون عميقة الغور في ذات الشاعر ، حتى لكانها حالة مَرَضِيَّة لا يشفى منها صاحبها الا باكسير « الفن » والإفصاح عنها بالرمز البعيد والظلال والتهاويل العديدة من تشابهه وكنايات ورموز وكلمات موحية ومثيرة تبعث على التأمل والمشاركة . والشاعر المبدع هو ذلك الفنان الذي لا يفسر . . بل يستوحي ، ويؤثر ، ويشير ويحمل المعاني والحقائق اكثر مما يحملها اياه العقل . وهو الذي يعيد

بناء العالم بتجاوز واقعه العقلاني الرتيب وصياغته
صياغة جديدة ، وحمل الانسان على اشتها مثل هذه
الصياغة بدلا من تقبل العالم ومشاهدته كما هو . وذلك
لا يكون من الشاعر الا بالانفعال العميق بالعالم واشيائه
واثارته من ركوده ونسقيته ورتابته الى درجة الاستفزاز
والتحدي والانقلابية !

اراني بعدتُ عن الأعشى وعن عصر الأعشى ..
فهو شاعر جاهلي نمطي ، صاحب تجربة عامة اكثر منها
خاصة . وتجربته هذه لم تكن معاناة بقدر ما كانت
مباراة ومباهاة بشرب الخمرة والتغني باوصافها ومجالسها
في شعره ، بحيث يقف معها ، اكثر من غيره ،
ويستغرق فيها مدة اطول ، ثم يغادرها الى غيرها من
فنون الشعر وموضوعاته واشخاصه . واذا كان قد تخطى
الحالة العامة معها فلأنه اتخذها غاية لا وسيلة . فاذا ما
غادرها في مطالع مدائح فلكي يعود اليها في
اواخرها ، او في مدحية اخرى ..

فلا مغامرة في الشعر الجاهلي ، ولا ابداع ، الا
في الشكل ، دون الجوهر ، وحين قست الحياة على
صعاليك الجاهلية ، مثلا ، ثاروا وغايروا ، لكنهم في

الشعر ، في شكل الشعر ، ظلوا نمطين تقليديين .
والأعشى رفض مثلهم وغاير وظل مثلهم ، على
السطح . . وإذا اعتبرناه مجددا ففي طريقة كتابة
القصيدة وانشادها : بدأها بنهج جديد هو التوطئة
للمديح بالخمرة بدل الغزل او كليهما معا ، ولم يكتف
بانشادها باللسان بل على الصنج ، معلناً ولادة القصيدة
العربية المغناة قلباً وقالباً . .

فاذا ما اعتبرنا هذا التجديد تجربة ، فاننا لا يمكن
ان نعتبره معاناة . او تجربة نفسية خاصة . . ولن نحمل
الأعشى ، في هذا المجال اكثر مما يحتمل . يكفيه انه
كشاعر خمري كان اقرب الشعراء الجاهليين الينا ،
اسلوبا وحضرية ، وروحا ، ولا ننسى معه عدي بن زيد
وطرفة وامرء القيس وجزءاً هاما من عترة .

نموذج اضافي :

اوردنا هذه الخمرية المقطوعة من قصيدة يمدح
فيها اياس بن قبيصة الطائي لأن فيها « تلاعباً » في
النهج الذي اتبعه الاعشى ، وهو الوصف الخمري
الممزوج ، احياناً بالغزل ، تمهيداً للمدح ، او الفخر .

اما هنا فانه يبدأ بالمديح والحكمة الاعتيادية ، ثم بالخمرة ومجلسها والندامى مستغرقاً ، كعاداته ، في وصفها وذكر مفاعيلها ، وكأنه خارج لتوه من الحانة . قال بعد مطلع المدح الذي استغرق ثلاثين بيتاً :

وشَمُولٍ تحسب العين ، اذا
صفقت ، وردتها نَوْرَ الذَّبْحِ ^(١)
مثلَ ذَنِي المسك ذاك رِيحُها
صبها الساقى ، اذا قيل تَوَحُّ ^(٢)
ذاتِ غورٍ ما تبالي ، يومها
غرف الابريق منها والقدرح
واذا ما الراح فيها ازبدت
أفلَ الإزبادُ فيها وامتصح ^(٣)
واذا مكوئها صادمه
جانباه ، كر فيها فصبح ^(٤)

(١) النور : الزهر . الذَّبْح : نبتة تشبه الشقائق .

(٢) ذكا المسك : انتشرت رائحته . تَوَحُّ : أمر من توحى : أسرع .

(٣) أفل : ذهب . امتصح : ذهب . أراد أن هذه الخمرة غزيرة حتى إذا صب فيها الماء فازيدت ذهب رغوئها .

(٤) المكوك : على قول أبي عمرو بن العلاء : إناء من فضة يشرب فيه .

فترامت بزجاج مُغَمَّلٍ
 يُخْلِفُ النازحُ منها ما نزع^(١)
 وإذا غاضتُ رفعناً زُقْنَا
 طُلُقُ الأوداج فيها ، فانسفع^(٢)
 ونسيحُ سيلانٍ صَوِيهِ
 وهو تسياح من الراح . مِسَح^(٣)
 تحسب الزقُّ لديها مُسْنَدًا
 حبشيا نام عمدا فانبطح
 ولقد اغدو على ندمانها
 وغدا عندي عليها ، واصطبح
 ومغني ، كلما قيل له :
 أَسْمِعِ الشُّرْبَ ، تَغْنِي فصدح
 وثنى الكفُّ على ذي عَتَبٍ
 يصل الصَّوْتُ بذِي زيرٍ أبَح
 في شباب كمصاييح الدجى
 ظاهر النعمة فيهم ، والفَرَح

(١) النازح : الغارف منها الخمر .

(٢) طُلُقُ الأوداج : أي محلل العرى . انسفع : سال .

(٣) المِسْحُ : المائل . نسيحه نجعله يسبح يسيل .

رُجِحُ الاحلام في مجلسهم
كلما كلب من الناس نباح
لا يشحون على الشمال ، وما
عُودوا في الحي تصرارَ اللّقح^(١)
فترى الشرب تساوِي بَطَحوا
مثل ما مُدَّتْ نصاحات الرّيح^(٢)
بين مغلوب تليل خدّه
وَحُلُولِ الرّجلِ من غيرِ كَسَح^(٣)
ذاك دهرٌ لأناسٍ قد مضوا
ولهذا الناسٍ دهرٌ قد سَنَحِ !
ثم يختمها بأبيات فخرية يتباهى فيها بمناقبه
واخلاقه . فهو ، كما يقول ، يمنح اعداءه « كل ما
يَحْسَم من داء الكشح » او البغضاء . . فاذا باعدائه
ينظرون اليه شزرا ، مطأطي الرؤوس كالخنافس ! « قد

(١) اللّقح ج لِقْحَة : الناقة الحلوب . أراد أن هؤلاء الشبان ليسوا رعيان
ليتعودوا صر النياق ، أوهم لا يصرون نياقهم بخلاً بالبانها . .
(٢) نصحات ج نصاح وهو الجبل : الرّيح : القردة . أراد أنهم مُصْرَعُونَ
فمددون من السكر كالحيال .
(٣) تليل : صريع . حُلُولِ الرّجلِ : أي أن رجله لا تعينه في القيام وذلك
من سكر ، لا من كَسَح أو عَرَج .

بنى اللؤم عليهم بيته « وهي صورة موفقة جاء في شكل
كناية تجسدية ، حين انسن اللؤم وجعله يبني على
هؤلاء بيتاً له وقبراً لهم ..

بدأ الاعشى خمريته وهذه لحظة تصورها « شمولاً »
تمايل حين تزبد وتفور ، كشقائق النعمان في لونها
الاحمر الادكن وتخاليلها المدل ، وكالمسك او قارورة
الطيب يندلق عطرها حين تفتح وتسترهف الكؤوس
بها ، فيدور بها الساقى او الساقية فور استدعائه او
استدعائها . انها خمرة غالية الثمن لانها عتقت في دن
دهري اسود وسيع ، يظل ممثلاً مهما اغترفت منه
الاباريق والاقداح .. وحين تقدم مُصَفَقَة بالماء تطغى
على الماء فيذهب الزبد جُفاء ، واما ما ينفع الندامى
فيمكث في الحلق والجوف والكيان .

ويكاد الاعشى لا يأتي على ذكر الخمرة الا ليذكر
معها رفاق شرابه اولئك الندامى المترفين المتحضرين
المتوهجين كمصاييح الدجى ، الراجحين عقولاً ،
المهذبين اخلاقاً وأدب شراب ، المتفقيين اموالهم عن
سعة واريحية ، لا يأبهون للوم لائم أو نباحه وهم ليسوا
اجلاً ولا رعياناً ليتعودوا صر اثناء نياقهم بخلاً يالبايتها .

وينطلق المغني ، اثناء المعاقرة ، ضاربا على اوتار
عوده ، وينتهي مهرجان اللذة وعرام النشوة بانبطاح
هؤلاء الكرام الميامين على ارض الحانة وكأنهم الحبال
الممدودة ، بعد ان خارت قواهم ولم تسعفهم
ارجلهم ، لا عن كساح او شلل بل عن انتشاء ولذة وتَمَل . .

ذلك هو ديدن الاعشى ورفاقه ، او هكذا تصور
نفسه معهم ومع الخمرة . وحين الح على ذلك فكأنه
يصور لنا جانبا كبيرا من الحياة : تناح اللذة ، في هذه
الدنيا ، لأناس فيغترفون منها ، ما استطاعوا ، ثم
يذهبون ، ثم يأتي غيرهم فيهتبلون مثلهم الفرصة اولا
يهتبلون . . وهكذا تمر الحياة ويمر الأحياء الى أبد
الأبدين ودهر الداهرين . .

ذلك هو السياق العام لهذه الخمرية ، وتلك هي
معانيها وملامحها ، ومنها نقف ، كما وقفنا في
الخمريات السابقة على تطور هام لم نعهده في
خمريات من تقدموه ، اذا جاز لنا ان نسميها خمريات
متكاملة ، والحقيقة انها كانت شذرات مبعثرة مبثوثة في
تضاعيف المعلقات والقصائد . ولم تأخذ الخمرية
سمتها وقوامها فتصبح جزءا هاما من القصيدة الجاهلية

الا على يد الاعشى الذي وان لم يجعل منها فناً مستقلاً ، الا انه جعلها لوحة متكاملة الخطوط والتهاويل بين لوحات اخرى في القصيدة الواحدة . فوقف بامتياز بين لوحتين : اللوحة الجاهلية المشوشة المضطربة واللوحة العباسية المتكاملة . بل ان النواسي الكبير ما كان كبيراً ، ربما ، لولا هذا النواسي الجاهلي الصغير ! والفضل للمتقدم دائماً .. ولو فاقه المتأخر ..

ولا داعي ، هنا ، لتفحص كل بيت وكل صورة في هذه الخمرية ، فهي في كل جزئياتها وتفصيلاتها نسخة طبق الاصل عن اية خمرية أعشوية ، لها نفس الصفات والسمات والنفس والنفسية . يضطرب فيها الاعشى ، كما هو دائماً ، بين ماديته الجاهلية وصورة الحسية الناجمة عن المشاهدات البصرية لا « البصائية » اذا صح القول ، فلا يرقى الى التجريد والأنسنة . ولا الى التحليل والتحليل والاسهاب وان كانت له مطولات ، الا انها تبقى في نطاق المحدود والقصير نسبياً .. اطول مطولة عنده لا تتجاوز الستين او السبعين بيتاً ..

فهذه مطولته او معلقته : ودع هريرة لا تتجاوز

السة والستين بيتا ، والمعلقة الثانية ، التي مطلعها :
ما بكاء الكبير بالاطلال
وسؤالي ، فهل ترد سؤالي ؟

لا تتعدى الخمسة والسبعين . ونحن حين نقف
عند العدد ، فليس ذلك ايماننا منا بقيمة الكثرة في
الشعر ، بل لنفي اعتقاد البعض أن الاعشى كان اطول
الشعراء نفسا .. كان فقط اطولهم نفسا مع الخمرة
والباقي هم يماثلونه بل يفوقونه ..

واذا توقفنا قليلا عند مطولته الاولى : ودع هريرة ،
فلكي يبرهن ان هذا التوقف ليس عبثاً اومضيعة للوقت ،
بل ان فيها ما يستحق الوقوف عنده :

اولا : لأنها جامعة لشتى فنون الشعر الجاهلي في
غزل وخمرة وذكر اسفار وتهديد وفخر ووصف مظاهر
الطبيعة وغزارة معلومات تاريخية وجغرافية وملوك وابطال
وحكمة ..

ثانياً : وضوحها وانسياب الوصف فيها
انسيابا ، وتدفق معاني الفخر والتهديد والخمرة تدفقا

« شلاشيليا » بات معروفاً^(١) وخلوها من وحشي الكلام
وغريبه في كثير من ابياتها . حتى كأنها لشاعر
اسلامي .

ثالثاً : تعمق فيها الاعشى في وصف حالات الحب
فبدأ وكأنه عالم نفسي خبير بشوؤن المرأة ونفسياتها حين
تحب وحين تكره وحين تترجح بين الحالتين . وهذا
دليل على صفاء ذهن الشاعر ، ودقة احساسه ومعاناته
الطويلة مع نوع من نساء الحانات كهريرة مثلاً . فاذا ما
وقف امامها واصفاً او مناجياً او شاكياً وقف وقفة الخبير
المجرب ..

رابعاً : صراحته وصدقه وواقعيته . فلا نراه يتورع
عن المصارحة بذكر حالته ، كما هي ، من عشا
بصره ، وسوء حظه مع الدهر ومعها . مع أنه اهل
للحب ، كما يقول :

أأن رأأت رجلاً اعشى اضر به
ريب المنون ، ودهر مُقْنِدُ خبيلُ

(١) انظر تحليلنا للمقطع الخمرى الذي تضمنته هذه البعلة . وقد ورد في
فصل : خمريات الاعشى صفحة ٥٧ .

صدت هريرة عنا ما تكلمنا
جهلاً بأَم خليل . جبلٌ مَنْ تصل ؟! (١)
اما عمق معرفته في نفسية المرأة وحالات الحب ،
فقد اعطانا صورة رائعة وصحيحة في قوله :

عُلِقْتُهَا عَرَضاً ، وعلقتُ رجلاً
غيري ، وعلق اخرى غيرها الرجلُ (٢)
وعلقته فتاة ما يحاولها
ومن بني عمها ميتٌ بها ، وهِلُ (٣)

(١) جهلاً .. استفهام انكاري تعجبي ، معناه : مَنْ تصل إذا لم تصلنا؟! .
(٢) علقتها : احببتها . هذه العلاقة بين المحبين ، ونزوات المحبوبات
حيالها لا تزال شغل علماء النفس الشاغل وكبار الشعراء المسرحيين
العالميين ككورني وراسين وشكسبير وأمثالهم الذين بنوا مسرحياتهم على
هذه العقيدة : صراع عواطف المحبين وتقلبات أهواء المحبوبات
للتفصيل أنظر : رائعة راسين « اندروماك » التي قمنا بترجمتها الى
العربية ، والصادرة عن دار الكتاب اللبنانية ببيروت ١٩٧٣ ط ٢ .
وخلاصة العقدة في هذه المسرحية : امرأة تحب رجلاً يحب سواها
تحب سواه !

هرميون « بيريس » « اندروماك » هكتور (زوجها يقتل) .
تماماً كما يقول الأعشى !
(٣) الوهل : الذاهب العقل .

وعلقتني اخيرى ، ما تلاثمني
 فاجتمع الحب ، حُبًا كله تَبَلٌ^(١)
 فكلنا مغرم يهذي بصاحبه
 ناءٍ ودانٍ ومخبولٌ ومُخْتَبَلٌ^(٢)
 ووجه الروعة والصحة في هذه الأبيات ، انها
 صادرة عن شاعر جرب كل انواع الحب العملي .. كما
 يقول في مكان آخر:

واقررت عيني من الغانيا
 ت إما نكاحاً ، وإما أُرْزَن! (من الزنى)

وكما تقول سيرته التي بدأها عشقاً ، ومعاقرة ،
 وزِنَى وفجورا ! شيمة سلفه امرىء القيس ! وانتهى
 العمر ذكريات ، ولا توبة ، وآهات ، ولا معاقرة ،
 وثمانين ، ولا إسلام ! ... فلا عجب ان يصور لنا
 حالات المرأة ، مُحِبَّةً وَمُحِبَّوَةً ، على هذا الشكل
 الرائع والصحيح الذي لا يزال ، على مدى العصور ،

(١) تبلى : كأنه أصيب بِتَبَلٍ : من تَبَّلَه : ذهب بعقله .

(٢) روى أبو عبيدة الشطر الأول هكذا : « وكلنا هائم في أثر صاحبه » .
 مخبول ومختبل : مغرم . هائم . وفي رواية الأصمعي وتغلب : محبول
 ومجبل من الحباله : أي كلنا موثق الروائع ٣١ ص ٢٧ .

يثبت صحته ومصادقته ، وسيبقى كذلك ، ما دام هناك
امراً ، على وجه الأرض ، وما دام هناك جمال وحب
وغيره وأعجاب ..

ونزداد إعجاباً بأبياته هذه ، لأنه استطاع ان يصور ،
بحدسه الصافي ، تلك العلائق المتشابكة ، بوضوح
تام ، وتراتبية بارعة ، وهذا يعني تألق الحقيقة في
اعماقه ، وترسبها في كيانه نتيجة ممارستها ، على
أرض الواقع ، زماناً طويلاً ...

علقها عَرَضاً ، وعلقت رجلاً
غيري وعلق أخرى غيرها الرجلُ

وتروع هذه الحقيقة مجنون ليلي فيهتف :

جننا بليلي ، وهي جُنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ويأتي شاعر فرنسا المسرحي الشهير راسين Racine
(١٦٣٩ - ١٦٩٩) فيجعل من تشابك هذه العلائق
وجود هذه الحقائق موضوع رائعته : اندروماك .. ثم
يأتي سيغمون فرويد ، فيقف مذهولاً امام روائع
مسرحيات راسين ، وكورني وشكسبير ، التي تعالج هذه

العاطفة الخالدة في الانسان وتصارع الاهواء حولها ،
بايات من الشعر المسرحي الكلاسيكي . فراح ، وقد
اوحت له الكثير ، يغوص على اعماق اسبابها
ومسبباتها .. فيكون علم النفس .. ثم ينبثق عنه علم
الجنس وبواعثه واغراضه وأمراضه ..

ولا إخال الاعشى ، اذا ما بعث حيا اليوم ، إلا
مصعوقاً ، اذ لن يصدق انه استطاع ، وهو الشاعر
الجاهلي البسيط ، ان يعبر عن هذه الحقائق الانسانية
الخالدة والمعقدة ، بأبيات رائعة ، هي هذه التي بين
ايدينا ، دون إعمال فكر .. بل دون ان يشعر .. ! مرة
اخرى تبرز عظمة التلقائية احيانا ، وروعة العفوية ،
وصفاء الحدس !

غزله :

قليلات هي المقطوعات ، بَلَّة الأبيات ، التي
نحس فيها انه عاشق فعلا ، متيم بصدق . كل غزلياته
مصطنعة داخلية في خمرياته ممزوجة بها مُشكلة معها
مدخلا الى المدح ، لا اكثر . اما المواقف التي ترجمها
غزلا ، وحالات العشق او الحب الصحيح التي تحدث
عنها فتكاد تكون معدومة . كل ما نقف عليه ، في

غزله ، انه كان شابا فاجراً يتحدى المرأة - المعشوقة ،
وهي من تلك الطبقة المعروفة التي لم يكن يهمها حب
الأعشى وامثاله . عنيت بها طبقة الإماء وبنات الهوى
والحانات ... ها هو يقابل تحدي هريرة^(١) ومثيلاتها
بتحدٍ آخر ، يغطي فيه « عشا بصره » بجواب تبريري
واضح . يقول :

ودعي الذكرَ من عشائي ، فما يد
ريك ما قوتي وما تصريفي !

مثل هذه « الهرة الصغيرة » لا ترى في الشاب الا
جمالَ وجهه وعينيهِ وقوامه ولمته السوداء بصرف النظر
عن قواه الأخرى .. لذا فهو يتحداها بما تفهم وبما
يهمها من القوى المادية : كقوة الفتك والممارسة ..
دون ان يذكر لها ما هو عليه من النشاط الفكري
والشاعرية والشهرة .. فلن يهمها ذلك في شيء !

اما اللواتي شبيب بهن في مطالع قصائده ،
فكثيرات . ولم يثبت انهن ، او بعضهن ، كن زوجاته

(١) هريرة : وتكنى أم خلود . هي قينة كانت لبشرير عمرو بن مَرْثَد ، أو
لاخيه حسان .

او معشوقاته .. كهريرة ، هذه ، وليلى ، وقُتلة ،
وقُتيلة ، وتيا ، ومَهْدَدْ ، وعلوية ، وسعاد ، وسعدى ،
ومى ، وميثاء ، وسمية ، وزينب ... حتى ليكاد يذكر
في كل قصيدة وكل مطلع اسماً جديداً لمعشوقة وهمية
جديدة ... وقد يذكر في القصيدة الواحدة اكثر من
اسم ، او ما كان يسمى عروس الشعر : فتارة هي
سعاد ، فاذا بها ، في البيت الثاني سعدى ! الا اذا كان
هذا من قبيل التجب لسعاد التي تصبح سعدى ! وتارة
هي هند فاذا هي سلمى ! ومهما يكن ، فان الاعشى ،
كان قادرا في غزلياته ، ان يوهمنا ، بأنه ذلك العاشق
المدنف . والشاعر المتيّم .. لا لشيء . الا لأنه كان
قادراً وبارعاً في معرفة صفات المرأة ، وخصائص
انوثتها .. متمكناً من انتقاء المفردات اللغوية النادرة ،
واضفائها على عروس شعره ، وعلى ذلك النوع من
الحسنات ، حتى لتبدو كل واحدة منهن وكأنها عشيقته
الوحيدة التي عانى منها وعانت منه ...

الا ان براعته تلك محصورة في الوصف الخارجي
والمادي للمرأة ، وذلك النوع من نساء الحوانيت ،
كالساقية والقينة ، اللواتي لا يخلصن عادة ، للعشير او
النديم ، فهن يتنقلن ، مثله ، من نديم الى نديم ، ومن

عشير الى عشير ..

كما سنرى ان الغزل عنده لن يخرج عن كونه توطئة او تخلصا الى المدح ، تماما كالخمرة . جرى فيه على سنن الاقدمين ، فلا نطمع بجديد عنده او ابداع ، اللهم الا بعض المفردات والصور التي عرفت له دون غيره ، وتلك البراعة الاعشوية في رسم قوام عروس شعره المتخيلة ، ونحت تمثال رائع لمعشوقاته الموهومات ، يكاد يلمس باليد لبروز نتوءاته ، ووضوح تفاصيله . حتى كأنه ذلك البارناسي^(١) الذي يفرغ كل

(١) البرناسية (أو مذهب الفن للفن) : هي نوع من العودة إلى الكلاسيكية ، بعد طغيان الرومنسية في أوروبا . فقد أعلن البارناسيون أن الفن ليس تقبلاً وتلقائية ، وليس انسياقاً وراء المشاعر والانفعالات الخاصة . وقالوا ، إن الفن هو نداء العلم في قصي الحقائق الثابتة ، وهو ليس نزوة . إن البارناسية استعادة للعقل ومنع للانفعال من التسلط والموس .. الخ . اما الكلمة فمشتقة من اسم جبل يدعى «Parnasse» بارناس ، اتخذ ، اسطورياً ، قصراً للشعراء البارناسيين وملهماً لهم ، على غرار وادي «عبر» في جاهلية العرب . وهو واد يسكنه الجن ، كما تخيلوا ، الذين يوحون للشعراء بما يقولون . (انظر : موسوعة لاروس الفرنسية ج ٨ ص ١٩٩ مادة بارناس) والبارناسيون جماعة من الأدباء والشعراء الفرنسيين (٤٠ شاعراً) قاموا ، ابتداء من سنة ١٨٦٠ بنشر قصائدهم في مجلة : البرناسي المعاصر Le Parnasse Contemporain - للتوسع أنظر كتاب : المذاهب الأدبية الكبرى في =

فنه في منحوتته ، حتى يستخرج لنا ، في قصائده ،
 تماثيل ، تماثيل للطبيعة البكر . وتهاويل ، تهاويل
 لأمواج البحر وسهول البر وسهوه العذراء .. دون ان
 يرف ، لذلك البارناسي ، جفن ، او يتحرك له وجدان !
 سوى اتساع الحدقة ، وسوى الريشة والدهن ، والكلمة -
 المفتاح ..

منحوتة غزلية اعشوية : =====

قال في مطلع معلقته ، يصف هريرة :

غراء ، فرعاء ، مصقولٌ عوارضها
 تمشي الهوينا ، كما يمشي الوجي^(١) الوجِلُ
 كأن مشيتها من بيت جارتها
 مرُّ السحابة ، لا ريثٌ ، ولا عَجَلُ

= فرنس! ترجمة فريد انطونيوس ص ٢٦٠ ط ١ - ١٩٦٧ دار عويدات
 للنشر .

(١) غراء : بيضاء ، واسعة الجبين : فرعاء : طويلة الفرع : شعر الرأس .
 العوارض : الأسنان التي بعد الثنايا أي الرباعيات والأنياب . الوجي :
 الدابة التي تشتكي حافرها ، الذي آلمته قدماء من المشي حافياً .
 الوجِلُ : الواقع في الوحل .

تَسْمَعُ للحلي وسواساً ، اذا انصرفت
 كما استعان بريحٍ عِشْرُقٍ رَجُلٌ^(١)
 يكاد يصرعها ، لولا تشدُّها
 اذا تقوم الى جاراتها ، الكَسَلُ
 اذا تقوم يضوع المسك اصورة
 والزنبق الورد من اردائها شِمْلٌ^(٢)
 ما روضة من رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ
 خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَاطِلٌ
 يضاحك الشمس منها كوكب شَرَقُ
 مؤزَّرٌ بنعيم النبت ، مُكْتَهِلٌ^(٣)
 يوما ، باطيب منها نَشْرَ رائحة
 ولا بأحسن منها ، اذ دنا الأصلُ
 التمثال ، هنا ، منحوت من عَصَبٍ ودم وحياة .
 والتمثيل البرناسية منحوتة من عصب الطبيعة البكر ،

(١) الوسواس : الصوت . العِشْرُق كما يعرفه الأصمعي : شجيرة مقدار ذراع لها اكام فيها حب صفار اذا جفت فمرت بها الريح ، تحرك الجب . شبه صوت الحلي بخشخشة على الحصى ..
 (٢) اصورة : جمع صوار وهي الرائحة الطيبة . شِمْل : شامل .
 (٣) الكوكب : النبات المستطيل . الشُرُق : الريان . مؤزَّر : لايس الإزار (الروائع رقم ٣١ ص ٢٦) .

ودمها الكامن في اشجارها كمون الحياة في عصب
هريرة ! كما ان النحت واحد ، والوقفة ، امام التمثال ،
واحدة ! والفارق هو الزمن وما بين الوعي البارناسي
واللاوعي الاعشوي ! ها هي هريرة « تبرزنس » عند
الاعشى في صورة المشبه به التمثيلي الذي استغرق
ثلاثة أبيات هي :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... حتى :
يوما بأطيب منها نشر رائحة ...

فاذا بالطبيعة تشارك في اكمال نحت الصورة ،
واعتدال التمثال !

وليس من التمثل في شيء نسبة مثل هذه الصورة
التي نحتها الاعشى لمعشوقته ، الى البرناسية
الجاهلية ، اي الى المدرسة الاوسية التي تعتمد
التصوير المادي للمشاهدات البصرية والتعمق او
التمادي في جزئياتها بواسطة التشبيه التمثيلي الاستغراقي
الذي كثر عند النابغة واوس بن حجر والاعشى ثم
الأخطل وأمثالهم .. ذلك لأن الشاعر الجاهلي كان دقيق
للحظ والملاحظة ، فلا يرتفع فوق الارض في تصويره
وتصوره . ويبقى لاصتاً بالمشهد لايدعه حتى يأتي

على تفاصيله دون ان يفعل كثيرا به خاصة عند
الاوسيين . والاعشى هنا ، في وصفه الخارجي والدقيق
لهرته الصغيرة ، يبدو اوسيا او برناسيا واضحا .

وتكاد منحوتاته البشرية تتشابه وتتوحد ، صفات ،
وسمات ، لتوحد الخيال الذي صدرت عنه والشاعر
الذي توهمها . صحيح ان معشوقاته متعددات
الاسماء ، كما رأينا ، لكنهن ، في الحقيقة ، واحدة .
فنحن اذن امام تمثال واحد باسماء متعددة .

هذه سعاد بعد هريرة تحمل نفس السمات ،
وتجسد نفس الصفات او تكاد :

بانت سعاد وأمسي حبلها رابا
واحدث الناي لي شوقا وأوصابا
 واجمعت صرمننا سعدى وهجرتنا
لما رأت ان رأسي اليوم قد شابا
ايام تجلولنا عن بارد رتل
تخال نكهتها بالليل سيابا
وجيد مغزلة تقرو نواجذها
من يانع المرء ، ما احلولى وما طابا

وعين وحشية اغفت فارقها
صوت الذئاب فاوكت نحوه دابا
هركولة مثل دعص الرمل اسفلها
مكسوة من جمال الحسن جلبابا
تُميل جثلاً على المتنين ذا خصل
يجبو مواشطه مسكا وتطيابا
رعبوبة ، فُتُّ ، خمصانة ، ردح
قد أُشْرِيتْ مثل ماء الدر اشرابا الخ

فالاعشى يحمل في جعبته اللغوية الواسعة العديد
من المفردات والصفات ، المعتاص منها والسهل ،
يوزعه على « عرائس شعره » يمينا وشمالا ، فلا يدعهن
الا وقد اكتملت صورتهم في ذهنه وتحت ريشته . .
وهي صورة معروفة للمرأة الجاهلية ، لم يأت فيها
الاعشى بجديد . . اللهم الا تلك المفردات الغزيرة
المنتزعة من القاموس الاعشوي الخاص والتي تدل على
تمكن الاعشى من لغته الجاهلية البدوية والحضرية على
السواء . فهيريرة عنده وليلى وسعاد وقيا ومهدد، لسن
سوى نسخة مكررة عن فاطمة سلفه امرئ القيس ، او
عبله عترة ، واسماء الحارث ومثيلاتهن من معشوقات

شعراء الجاهلية او عرائس شعرهم .. الفارق ، فقط ،
في الاسماء وبعض التفاصيل والسمات .

اما الوجد واللوعة والحرقة وتوهج الصبابة فقلما
رأينا الاعشى يهتم بأظهارها في شعره . ذلك لأن فاقد
الشيء لا يعطيه ، الا اذا كان قادراً على توهم حالات
الغرام ومن ثم تصويرها ووصفها على انها العشق
والغرام ، وقطع الكيان تذوب وجداً وصبابة كما في
القصيدة التالية :

نام الخلي ، ويت الليلَ مرتفقاً
ارعى النجومَ عميداً مثبتاً ارقاً
اسهو لهمي ودائي ، فهي تُسهرني
بانت بقلبي ، وامسى عندها غليلاً
يا ليتها وجدت بي ما وجدتُ بها
وكان حب ووجددام ، فاتفقاً

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها
هل يشتفي وامق ما لم يُصب رهقاً
صادت فؤادي بعيني مُغزلٍ خذلت
ترعى أغنً غضيضاً طرفه خرقاً

وبارد رَتلٍ ، عذب مذاقته
 كأنما عُلُّ بالكافور ، واغتبقا
 وجيداً دماء لم تُذعر فرائضها
 ترعى الاراك تعاطى المرء والورقا
 وكَفَلٍ كالنغا ، مالت جوانبه
 ليست من الزُلِّ اوراكا وما انتطقا^(١)
 كأنها درة زهراء ، اخرجها
 غواص دارين يخشى دونها الغرقا
 قد رامها حججا مذ طرُّ شاربه
 حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا^(٢)
 لا النفس تؤنسه منها فيتركها
 وقد رأى الرغبَ رأى العين واحترقا
 ومارد من غُواة الجن يحرسها
 ذو نيقة ، مستعد دونها ، ترقا
 ليسبت له غفلة عنها يطيف بها
 يخشى عليها سُرى السارين ، والسرقا
 من نالها نالَ خُلدا لا انقطاع له
 وما تمنى ، فاضمن ناعماً أنقا

(١) ليست من الزل اوراكا : ليست خفيفة الوركين .

(٢) تسعسع : هرم وشاخ .

تلك التي كلفتك النفس تأملُها
وما تعلقت الا الحَيْنَ والحَرَقَا
لكن هذه الصبايات والمواجد قلما يقف عندها
شاعرنا لأنها ليست صادرة من اعماقه ولا من معاناته ،
وسرعان ما يعود الى ازميله وريشته ينحت ويلون باصباغ
وتهاويل مأخوذة من حُق واحد وقارورة واحدة . ايك
هذا التمثال الكامل لقوام قُتيلة احدى معشوقاته ، او
عرائس شعره :

صحا القلب من ذكرى قُتيلة بعدما
يكون لها مثل الأسير المُكَبَلِ
لها قَدَم رِيا ، سباطُ بناتها
قد اعتدلت في حسن خَلْق مبتلِ
وساقان مار اللحم موراً عليهما
الى منتهى خلخالها المتصلصلِ
اذا التمسَتْ أُرْبِيتاها تساندت
لها الكف في رابٍ من الخلقِ مُفْضِلِ
الى هدف فيه ارتفاع ترى له
من الحسن ظلا فوق خَلْقٍ مُكْمَلِ

اذا انبطحت جافى عن الارض جنبها
 وخَوَّى بها راب كهاسَة جُنْبِلٍ (١)
 اذا ما علاها فارس مُتَبَدِّل
 فنعمَ فراشُ الفارسِ المَتَبَدِّلِ
 ينوء بها بوص ، اذا ما تفضلت
 توعب عرضَ الشرعي المَغْيَلِ (٢)
 روادفه تشني الرداء تساندت
 الى مثل دِعْصِ الرملَةِ المَتَهَيِّلِ
 نيافَ كغصن البانِ ترتج ان مَشَتْ
 ديبِبَ قطا البطحاء في كل مَنَهْلِ
 وثديان كالرمانتين ، وحيدها
 كجيد غزالٍ غيرَ أنْ لم يُعْطَلِ
 وتضحك من غر الشايا كأنه
 ذرى اقحوانٍ نبته لم يُغْلَلِ
 تلالؤها مثل اللجين ، كأنما
 ترى مقلتي رثم ، ولو لم تَكْحَلِ

(١) جنبل : قَلَح .

(٢) بوص : ردف . الشرعي المغيل : الثوب الواسع الفضفاض .

سجون برجاوين في حسن حاجب
 وخذ اسيل واضح متهلل^(١)
 لها كبد ملساء ذات أسيرة
 ونحر كفاتور الصريف الممثل^(٢)
 يجول وشاحاها على اخمصينهما
 اذا انفتلت جالا عليها بجلجل
 فقد كملت حسناً فلا شيء فوقها
 وإني لنذو قول بها متنخل
 ... اذا لبست «شيدارة» ثم ابرقت
 بعصمها، والشمس لما ترجل^(٣)
 وألوت بكف في سوار يزيناها
 بنان كهراب الدمقس المفتل
 رأيت الكريم ذا الجلالة رانياً
 وقد طار لب المستحف المعدل
 وقديماً عبّد اليونان إلهة الجمال فينيس، والفينيقيون
 عشروت. . فلا أقل من أن يسجد ذلك «الكريم ذو
 الجلالة» امام تمثال عشروت الأعشى، ويطير لبه وقلبه! وهنا
 التمايز بين النحت التعبيري وبين النحت الايجائي!

(١) سجون: من سجا يسجو سكن. برجاوان: واسعتان على صفا .

(٢) فاثور الصريف : خوان الفضة .

(٣) شيدارة : غطاء للرأس كالמושح أو الوشاح .

هجائيات الاعشى:

يبدو من هجائيات شاعرنا انه كان يحمل روحا هجائية وَسَطًا ، فيشتم ويلعن ، الا انه يَظَلُّ خفيف الوطأة ، لا يصل الى درجة الفحش والاقذاع .. كتأبط شر مثلاً ، أو الخطيئة .. وهجاؤه ، ان صحت نسبته ، او لم تصح ، يتناول القبيلة ، قال يهجو بني قميثة بن سعد بن مالك :

ان بني قميثة بن سعد
كلهم لِمُلْصَقِي وَعَبْدِ
ادنى لَشَرِّ من كلابِ عُقْدِ
وهم اذل من كلابِ عُقْدِ
يُعْزُونَ بين وَبَرٍ وَقَدْ
عَبْدَانُ بين عاجِزٍ وَوَعْدِ
إِنْ يَبْصُرُوا قَبْرًا حَدِيثَ الْعَهْدِ
يَنْشَوُا فِيهِ اخْتِفَارَ الْخُلْدِ
إِنْقَرَّ فَقَدْ بَلَغْتَ قَعَرَ اللَّحْدِ
وَهَامَةً وَشِقَّةً مِنْ بُرْدِ

اذا صحت نسبة مثل هذا الهجاء الاخلاقي الى الاعشى يكون قد تجاوز حد التهكم الى السخرية

اللاذعة حين جرد بني قمينة مما يفتخر به الجاهلي وهي
السيادة ، فجعلهم اتباعاً ملصقين ، وعبيدا تابعين . .
ثم نزع عنهم صفة الانسانية فجعلهم كلابا سائبة . . .
بل اذل من الكلاب السائبة . . وعاد فوزعهم بين عَجْزة
واوغاد . . « إن ابصروا قبرا حديث العهد » ينشونه
حتى يصلوا الى قعره فلا يجدون سوى عظام نخرة .
وقطع كفن بالية !

غير أني ارجح ان تكون هذه الارجوزة الهجائية من
صنع اسلاميين ارادوا بمثل هذا الشعر المنحول ان
يغذوا الصراع الذي قام « بين ربيعة واليمن على
مضر » ^(١) بقصد النيل من مضر التي عَزَّتْ بالاسلام وعز
بها الاسلام ، بعد ان عجزت ربيعة اليمن ، كما يقول
طه حسين من مناهضة مضر بالاسلام وفيها النبوة
والخلافة ^(٢) .

وترى الاعشى ، اذا قسا ، يطعن في نسب
مهجوه ، وانتمائه ، ومكانته الاجتماعية ، وقلما نهش

(١) انظر : في الأدب الجاهلي لطلح حسين ص ٢٩٩ دار المعارف بمصر
١٩٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٩ .

الأعراض وافحش ؛ كما فعل عندما هجا عمرو بن
ثعلبة بن الحارث القضاعي . قال :

بنو الشهر الحرام ، فلست منهم
ولست من الكرام بني العُبيدِ
او حين هجا شييان بن شهاب الجعدي . قال ،
بعد التوطئة بالخمرة والغزل كعادته :

ولقد علمت لتكره
نُ الحربِ من إضرٍ وغارة
ولسوف يحبك المفيد
ق فتعتصر اعتصاره
ولسوف تكلح للاسند
ية كلحة . غير افتراه
الى ان يقول :

ولقد علمتم حين ين
سبُ كلُّ حي ذي غضاره
أنا وِرننا العز وال
مَجْدَ المؤئل ذا السراة
وورثتُ دهماً دونكم
واری حلومكم مُعارة

اذ انتم بالليل سُراً
ق، وصبح غَدِ صُراهِ
فانت لا ترى في هذا الهجاء خبثاً ولا قذارة . بل
هو اقرب الى الذم والتجريح ، منه الى الفحش
والقذف ، يمازجه لون من الوان الفخر والاستعلاء على
مهجوه وتعبيره مع قومه ، بالجبن في الحروب ، وقلة
العقل ، والسرقة . . .

وقد يفاضل بين سيدين من اسياد القبائل ، فيهجو
الاول ، حين لم يُجره ، ويمدح الثاني حين اجاره ،
حتى من الموت . وهي حادثة زعموا انها وقعت
للأعشى مع علقمة بن علاثة ، الذي لم يجره ، وعامر بن
الطفيل الذي اجاره ^(١) قال يهجو علقمة ويمدح عامرا :

علقمُ ، لا لستُ الى عامر
الناقضِ الاوتارِ ، والواترِ
سدتُ بني الأحوصِ لم تَعُدْهم
وعامر ساد بني عامر
ساد والفي قومه سادةً
وكابرا سادوك عن كابر

(١) تقدم تفصيل الحادثة في فصل سابق من هذا الكتاب .

يا عجب الدهر، متى سُويَا؟
كم ضاحك من ذا ومن ساخرٍ
فاقن حياءَ أنت ضيُّعته
ما لك بعد الشيب من عاذر
علقمُ لا تَسْفَهُ ولا تجعلن
عرضك للوارد والصادر

الخ

وهجا علقمةُ هذا، بهجاء مر، في مكان آخر.

قال:

أعلقمُ قد حكمتني فوجدتني
بكم عالماً على الحكومة غائصاً
كلا أبويكم كان فرعا دمامة
ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصاً
تبيتون في المشتى ملأ بطونكم
وجاراتكم غرتي ييتن خمائصاً
لكنه سرعان ما يميل مع طبعه إلى الدعابة
والتهكم. قال يهجو قوماً من وائل بن شرحبيل بن عمرو
بن مرثد:

لَا فَشْلٌ فِيَّ وَلَا سِقَاطٌ
 لَيْسَ أَوْأَنَّ يُكْرَهُ الْخِلَاطُ
 بَنُو شَرْجِيلِ سِوَى بَسَاطِ
 وَعَنْهُمْ ضُبَيْعَةُ الْمَضْرَاطِ ..
 صَمَحَمَحْ مُجْرِبُ عَيَاطِ
 وَوَاتِلُ كَأَنَّهُ مُخَاطُ^(١)
 يَنْزِلُ عَنْ جِهَتِهِ الْأَمْشَاطِ

أَوْ هَذَا الْهَجَاءُ الضَّاحِكُ الَّذِي يَسَاوِي فِيهِ بَيْنُ
 الْهَاجِي وَالْمَهْجُو.

قَالَ يَهْجُو عَمْرُو بْنُ الْمَنْذَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ:

أَرَانِي وَعَمْرًا بَيْنَنَا دَقَّ مَيْشِمِ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أُجَنَّ وَيَكْلَبَا ..
 كَلَانَا يَرَأْيِي، أَنَّهُ غَيْرُ ظَالِمِ
 فَأَعَزَّبْتُ حَلْمِي، أَوْ هُوَ الْيَوْمَ أَعَزَّبَا ..

هَذِهِ الدَّعَابَةُ الضَّاحِكَةُ تَنَمُّ عَنْ رُوحٍ مُجَبَّةٍ، غَيْرِ

(١) صَمَحَمَحْ: شَلِيد.

حاقدة، ولا شريرة، تصل به إلى درجة التهكم على نفسه، في صراحة مطلقة يصيب رذاذها صديقه الأصم، كما يصيب ما هو فيه من عشا. قال:

متى تقرنُ أصمٌ بحبل أعشى
يُلجّأ في الضلالة والخسار
فلستُ بمبصرٍ شيئاً يراه
وليس سامعٌ مني حوارٍ..

وقد يشبه نفسه بالحمار. قال له صديقه قيس بن معد يكرب، بعد أن استمع إليه يمدحه في قصيدة دالية: إنك تسرق الشعر. فقال له الأعشى: قيدني في بيت حتى أقول لك شعرا. فحبسه وقيده، فقال:

أأزمتُ من آل ليلي ابتكارا
وشصتُ على ذي هوى أن تُزارا
وقيدني الشعرُ في بيته
كما قيد الأسراتُ الجمارا..

وما رأيك بشاعر يعترف بأن طلاقه لزوجته لم يكن بسبب تهديد أهلها له، بل بسبب تهديدها له بضربه على رأسه! اسمعه يصارحها ويصارحنا:

وبيني فلان البينَ خيرٌ من العصا
وألا تزال فوق رأسي بارقة!
ومنهم من روى البيت معكوساً:

وبيني فلان البينَ خيرٌ من العصا
وألا تزال فوق رأسك بارقة

ولكن المعنى الأول أصح لتمام المفارقة، ويصبح
الطلاق مبرراً من قبل الزوج المخدوع والمهدد
بالضرب. وتأمل روح الدعابة في قوله:

وذوقي فتى قومٍ، فلإني ذائقٌ
فتاة أناسٍ مثل ما أنتِ ذائقة!!

كم يصبح الطلاق مثيراً للضحك والسخرية حين
يخرج عن شرعيته وجديته وغايته، إلى غايات أخرى:
ليذوق غيرها وتذوق غيره!!

وهكذا يمضي الأعشى في عبثه وتهتكه ومجونه
وظله الخفيف سادراً ومفايراً وسائراً في الزمن! ذلك لأنه
قادر على اضحاكنا. ومن كان كذلك يحق له أن
يعتبر من « أطباء الإنسانية » على حد قول موليير

الفرنسي . وفن الإضحاك فن صعب ، في حين ان فن الإبكاء فن سهل ، لأن كل ما حولنا وما فينا يثير البكاء والشفقة ، في نفوس كبار المفكرين والشعراء ، حتى ولو كانوا في صميم النعيم . ألم يقل المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعم ؟!

فاذا جاء شاعر وابكانا ، في رثائية ، او مسرحية يكون قد جسد لنا مأساة ليست غريبة عنا، مأساة يعيشها كل يوم .. كلما تأملنا في وجودنا : مبدئه ومنتهاه ، وفي عبثية هذا الوجود .. اما اذا استطاع شاعر او اديب ان ينتشلنا من خضم كآبتنا وسويداء احزاننا بالبسمة ينتزعها من اعماقنا ، والضحكة من صميم قلوبنا ، يكون قد غير المقاييس وقلب الحقائق المرة للأشياء ، وأنسانا ، ولو الى هنيهات ، همنا المقيم ، وشقاءنا الدائم .. وسبيله دائما الينا هو الملهاة وقوامها التهكم (اي عنصر الإضحاك الساخر) الذي يأخذ على عاتقه تحرير الانسان من سيطرة الآراء السائدة والافكار المتعارف عليها ، كما ينتشل الذات من ضياعها وسط الجموع وطفيان المؤلف

والمعتاد...» (١) .

ان الدور الايجابي للتهكم هو ان يعيد الفرد من جديد الى نفسه ، وان يخلق فيه اهتماماً بوجوده الأخلاقي ، فلا يمكن ان تكون حياة بشرية اصيلة بدون التهكم (٢) .

ولسنا هنا لنقول ان الاعشى هو ذلك الفيلسوف الصغير المتهكم الساخر . . فذلك تمحل وافتراء لا نريده لأنفسنا ولا للأعشى . . ولكنه استطراد ساقطنا اليه فكرة التهكم تعميماً للفائدة ، وليس اكماً للبحث في خصائص الشاعر الهجائية . علماً بأن للتهكم بعداً فلسفياً يتمحور حول الذات والأنا ، والحرية ، والزمن ، يجدر بالقارئ ان يعود اليه في مظانه من المراجع والابحاث الفلسفية الخاصة بفلسفة الضحك (٣) او: التهكم (٤) وما شابهها .

(١) للتفصيل انظر كتاب : مفهوم التهكم عند كيركجور - الرسالة التاسعة

عشرة - الحولية الرابعة - عن جامعة الكويت ١٩٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ وخاصة صفحة ٢٥ .

(٣) انظر كتاب فلسفة الضحك La Philosophie du rire لبرغسون .

(٤) مفهوم التهكم Concept of irony عند كيركجور .

ترجمة الدكتور عبد الفتاح إمام الرسالة التاسعة عشرة - جامعة الكويت

- ١٩٨٣ .

ورقيقة سفره :

كانوا ثالثا متلازما : الأعشى والناقة والخمرة ، وما
عداهم كان وسيلة لإغنائهم وراحتهم .. وقد وفى
الأعشى نفسه حقها من المتعة والتعهر . كما وفاها
قسطها من التفاخر والاستقواء بقومه من بكر وتغلب ،
ولم ينسَ رقيقة سفره ، بل رقيقة عمره الجوال :

ناقة ! تلك التي امضى معها ، وعليها ، اكثر مما
امضى مع زوجته او زوجاته ! فوافها حقها وخلّدها في
شعره بما اسبغ عليها من نعوت وصفات واسماء فتارة
هي : شِمْلَةٌ حِرْفٌ ، من فصيلة النحائص الجدد
المكتتزة . او :

صعلة بالقارتين تروح

ربداء تتبع الظليم الأريدا (١)

او : طليح ، جَسْرَةٌ ، سُرْح (٢) عسير ، أدماء ،
حادرة العين ، خنوف ، عيرانة ، شِمْلال (٣) كقنطرة

(١) الظليم : ولد الناقة .

(٢) طليح ، جرة : سُرْح : ناقة ضخمة قوية .

(٣) خنوف شِمْلال ، عيرانة : نشيطة ، سريعة ، تشبه العير . الإرقال : نوع
من السير .

الرومي تغري الهجيرُ بالإرقال ، عرندسة ، عتريس ١ :

تقطع الأمعزالمكوكبَ وتُخدا

بنواجٍ سريعةٍ الايفالِ

عتريس ، تعدو اذا مسها السو

ط ، كعدو المصلصل الجوال^(١)

وتارة يُدَكِّرُها بعد تأنيثها ، فاذا هي : شجاع

الجنان ، يحتفر الظلماء ! تأملْ هذه الصورة الرائعة :

يحتفر الظلماء فكأن هذا الجَمَل حفار صخر لا مدلج

في ليل .. يشق الظلماء شقاً ..

بشجاع الجنانِ ، يحتفر الظل

ماء ، ماض على البلاد خَشوف^(٢)

مستقل بالردفِ ما يجعل الجر

رّة بعد الإدلاجِ غيرَ الصريف^(٣)

ثم يضحى من فوره ذاهباً

يستطير الحصى بخف كثيف ..

ومرة هي تلك الناقاة المهزولة لكثرة السفر :

(١) عتريس : قوية الأركان ، ملتهبة نشاطاً .

(٢) خشوف : مدلج في الليل .

(٣) صريف الأسنان : صكها من شدة الخوف أو الجوع

طليح ، رذية ، قداعيها التجوال وشداكور على متنها ،
او هي كأتان الثميل (١) :

جمالية تغتلي بالرداف
إذا كذب الأثام الهجير (٢)
ومرة أخرى هي : عفنة (٣) ، حرجوج (٤) ترى لها
فخذين تحفزان ، وصلياً كبنان الصفا متلاحكاً
متماسكا :

وزورا ترى في مرفقيه تجانفا
نبلاً كبيت الصيدلاني دامكا (٥)
وراساً دقيق الخطم صلباً مذكرا
ودأياً كأعناق الضباع وحاركا
وهي قبل وبعد كل شيء البرفيق الملازم والمركب
الأمين « والصاحب الأدنى » :

(١) الاتان ، أصلاً ، انثى الحمار ، وهنا بمعنى الصخرة القائمة في الماء . والثميل هو الماء الغزير .

(٢) الأثام : النوق الهزيلة .

(٣) هي أصلاً : الغول . وقد قصد بها الشدة هنا ، لوصف ذات اللون وهي الناقة ، القوية .

(٤) حرجوج : ناقة بيضاء طويلة .

(٥) دامكا : كثيفاً سميكاً .

هي صاحب الاذن وييني وبينها
مجوف علاني ، وقطع ونمرق
وتصبح من غيب السري ، وكأنما
ألم بها من طائف الجن أولق

واليك هذه الصورة الموفقة لناقته الناجية « من سَراة
الهجان » حين تدخل فُجَاجَ الارض « فتغتاله »
اغتيالاً . . بدل ان يقول : تقطعه بسرعة فائقة ، وهذا
تجسيد وانسنة حضارية ، شك معها طه حسين ، ومع
أمثالها ، في ان تكون مثل هذه الصور التجريدية وتلك
القصائد الوصفية ، للأعشى الجاهلي البدوي الخشن
الكلام المادي التشبيه والتصوير . . اما نحن فنقول :
ان تماثل الصور والتشابه والأسماء في وصف الناقة او
الجَمَل شيء موجود في كل قصيدة من قصائده التي
تعرض فيها لوصف الناقة ، وقوتها وسرعتها ولونها .
وذلك المزج بين وصف الخمرة والمرأة والناقة توطئة
للمدح ، أمرٌ يكاد يكون خاصاً بالأعشى وهو ما سماه
صاحب الروائع « بالمنهج الأدبي الذي سار عليه الشاعر
دون دافع حاضر او ذكرى مخصوصة ^(١) فتكون النتيجة

(١) الروائع رقم ٣١ من ٥٦ .

غير ما ادعى طه حسين ويكون النحل في غير هذا الباب .. اما التجسيد والتجريد والأنسنة ، وهي من خصائص الشاعر شبه المتحضر ، فشيء نادر جداً في شعر الاعشى المادي الحسي ، الجاهلي الصورة والتصور .. ولكنه موجود ..

مدائح ومفاخره :

ستضرب صفحاً عن ذكر مدحياته وفخرياته .. لا لأنها لا تستحق الوقوف عندها ، سيما وهي تشغل في ديوانه حيزاً كبيراً ، وفي وجدانه مقاما مماثلاً . لكننا ، كنا وسنبقى ، نحترم ، في دراساتنا هذه النهج ، الانتقائي ، لا التاريخي : التحليلي لا السردى ، فما نراه جديراً بالنقد والتذوق والإحياء ، وقفنا عنده ، وحللناه ، وحييناه . وما لم . رفضناه واهملناه .. وإلا ، فليُطْلَبَ اعشى التاريخ ، والسيرة المفصلة ، والانتاج الكامل عند غيرنا .. أما اذا طلب القارئ الطَّلَعَةَ اعشى جديداً ، شاعراً فريداً ، في اهم خصائصه ، لا في كلها ، فما هو بين يديه ، قدر ما سمح به الجهد ، وأملاه الذوق ، واكتشفته الخبرة .

رأيه في الحياة والأحياء: =====

ليس الأعشى فيلسوفاً كأبي العلاء ، ولا متفلسفاً كأبي الطيب ، حتى ولا مهتماً بشأن الحياة وما وراء الحياة اهتمام بعض شعراء عصره كزهير وطرفة وعدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت . كل ما في الأمر ، ان له نتفاً من جوامع كليم ، وشيئاً من نظرات تائهة ، في الله وفي الوجود ، لا يجمعها نهج ولا يحدوها قصد . اقتبسها ، فيما اقتبس ، من نصارى الحيرة واليمن ، نراها مضغوطة في بيت أو أبيات ، سماها الاقدمون حكمة ، ونسميها نحن رأياً وموقفاً ، وهما عند شاعرنا غير ثابتين . . واذا كان لهما من قيمة فنية فلأنهما حصيلة ملاحظة خاصة ، او تجربة مع الآخرين . وقد يأتيان نتيجة « تجربة عقلية » انفعل فيها الشاعر بمعانيه انفعالا شديداً ، شيمة المتنبئ مثلاً . فصاغها صياغة الحكمة . او ربما انبثقا عن تجربة شعورية ذاتية ، استطاع الشاعر ، في لحظة تجلٍ ان يصوغهما كحكمة او رأي ، او موقف ، دون قصد منه او صناعة . . واسوأ الحكم ، في الشعر العربي الكلاسيكي ، هي تلك المعاني والآراء المتداولة بين الناس والتي « ينظمها »

شاعر ما ، دون ان يفعل بها ، او يبدعها . كارجوزة
ابي العتاهية ، على ما في بعض ابياتها من لمحات
تأملية حارة . واسوأ منها لامية ابن الوردى ، وشبيهات
لها كثيرات زخرت بهاعصور الانحطاط حين انقلب
الشعر العربي عفوا النظم احاجي وطلاسم وتعاويز
ومواعظ .. كما انقلب مباخر على اقدام السلاطين
والمماليك !

وحكمُ الأعشى اين موقفها من كل هذا ؟

لا شك ان حكم شاعرنا ، وهي جد قليلة ، قد
نبتت كالفطر ، من خلال الوصف او المدح ، او
الهجاء ، هكذا عفوا خاطر ، لم يقصد اليها اطلاقا ،
بل اتت نتيجة وضوح رؤيا حيننا ، وصفاء ذهن احيانا ..
او شيئا من « تجربة عقلية » سرعان ما يعود ، بعدها ،
الشاعر الى موضوعه الخاص ، من وصف للخمرة
والناقة والمعشوقة والممدوح ، والمهجو وسوى ذلك .

اذ نجد في قصائده حكمة او حكمتين ، وقد لا
نجد .. ففي مطولته : ودع هريرة ، نجد وصفا صادقا
لحالات الحب ومواقف المحبين ، خصوصا ذلك الحب
الذي يجري بين فتیان الحانات وفتياتها . نجده

مضغوطة في اربعة ابيات بشكل رأي او حكمة . قال :

عَلَّقْتُهَا عَرَضًا ، وَعَلَقْتُ رَجُلًا
غَيْرِي ، وَعَلِقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ
وَعَلَقْتَهُ فَتَاةٌ مَا يَحَاوِلُهَا
مَنْ أَهْلُهَا مَيِّتٌ يَهْذِي بِهَا وَهَلُ
وَعَلَقْتَنِي أُخْرَى مَا تَلَاثُمْنِي
فَاجْمَعْ الْحُبَّ حَبًّا كُلَّهُ تَبَلُّ
فَكَلْنَا مَغْرَمٌ يَهْذِي بِصَاحِبِهِ
نَانَ وَدَانٍ ، وَمَخْبُولٌ وَمُخْتَبَلُ

وقد قَيِّمْنَا هَذَا الرَّأْيَ ، فِي فَصْلِ سَابِقٍ ، - وَبَرَهْنَا
مَصْدَاقِيَّتَهُ فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ مِمَّا ثَلَّةَ تَحْدِثُ فِي كُلِّ زَمَانٍ
وَمَكَانٍ . .

كما نجد له حكمة مبثوثة في قوله :

مَنْ كُلَّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ
وَفِي التَّجَارِبِ طَوْلُ اللَّهْوِ وَالْفَزَلُ
وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ السَّائِرَةُ :

كُنَّا طَحْرَ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَفْلِقَهَا
فَلَمْ يُضْرَها ، وَاهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ
او :

قالوا الركوب ؟ فقلنا تلك عادتنا
او تنزلون فلنا معشر نُزُلُ
كل هذا نجده في « ودع هريرة » في حين لا نجد
في مطولته الثانية ، شيئاً منه ..

وقال في معرض الفخر بنفسه وتعداد مناقبه :
وقور اذا ما الجهل اعجبَ اهله
ومن خير اخلاق الرجال وقورها
وتعجبني لمحة بارعة من لمحات ذهن الأعشى
الذي يتفتق احياناً عن فكرة انسانية جليلة ، في قوله
يتغزل بسلمى احدى عرائس شعره :

انت سلمى هم نفسي ، فاذكري
سَلْمُ ، لا يوجد للنفس ثمن !
لعل اللهفة والتضرع الى سلمى بالا تُحْمَلُ نفسَه
هنا فوق همها ، هما اللذان جعلاً وجدانه يهف بهذا
المعنى الرائع : لا يوجد للنفس ثمن ! اجل ايها
الظالمات شقيقات سلمى ، ايها الظالمون ، في كل
مكان وزمان ، ايها المتاجرون بالأنفس ، تذكروا قول
هذا الأعشى الذي لا يبصر ، كما تبصرون ، ولكنه يرى
ما لا ترون ! لا يوجد للنفس ثمن .. هل تفهمون ؟ !

والانسان اكبر رأسمال في العالم ! هل تدركون !؟

وقد نجد عند الأعشى آراء مبثوثة ، هنا وهناك ،
في الديوان ، ولكنها ليست بمستوى حكمه السائرة ،
ولا قيمة فنية لها .

ومن حكمه السائرة التي نردها دائما دون ان نعرف
صاحبها ، قوله :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ
واخرى تداريتُ منها بها

وهي حكمة في ثوب مثل او تورية . نردها
باعجاب لا يقل عن اعجابنا بحفידتها الشرعية :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء

ومن آرائه العابرة :

جماع الهوى في الرشد أدنى الى التقى
وترك الهوى في الغي أنجى وأوفق

او :

ومن يطع الواشين لا يتركوا له
صديقاً ، وإن كان الحبيب المُقربا

وعلى سبيل الاستعارة ، يمكن ان يتمثل بقوله يهجو
علقمة بن علاثة :

تبيتون في المشتى ملاءً بطُونكم
وجاراتكم جَوْعى يبتن خمائصا
وفي قصة السموأل التي صاغها الأعشى شعرا جاء
قوله على لسان السموأل :
وقال :

لا اشتري عاراً بمكرمة
واختار مكرمة الدينار على العارِ

===== قيمة الحكمة =====

وبعد . فاذا كان للحكمة في شعرنا العربي
الكلاسيكي من قيمة ففي كونها قادرة بصياغتها الفذة ،
ان تخرج من مناسبتها الخاصة الى المناسبات العامة
المماثلة ، ذلك لأن تجارب الناس مع الحياة والوجود
متشابهة . ومن هنا نحن نردد حِكَم الشعراء وكأننا نحن
قائلوها ، ومنا مَن يُبدل ويُغير في صياغتها وفقاً لمزاجه
وثقافته وحافظته . . وهكذا يشركنا الشاعر الحكمي
بتجاربه وآرائه الخاصة ، فيخرج بهذا ، من إطار

قصيدته ومشاعره الآنية المحدودة الى اطار اللامتناهي
واللامحدود ..

اما في الشعر الحديث واحتراما للفكر العربي
الجديد ، والروح الحضارية والانسانية الجديدة فلم تعد
الحكمة شيئاً مقبولا في صياغة التجربة الشعرية او
العقلية التي يمر بها شعراء الابداع الحديث .
والأفضل ، كما يقول ادونيس ان نقلب الحكمة الوعظية
ذات الصياغة الخطابية الى تساؤل . بمعنى ان ننقل
الحكمة التقريرية التي هي يقين وتقبل الى شك
وتساؤل . فلم يعد العالم ، امام الشاعر شيئاً مسلماً به
وحيزاً مُطمئناً يُعاش فيه ، جاء في كتاب زمن الشعر، قوله :
«هل كراهية التجديد غريزة فينا، نحن العرب؟ هل نحن
محصنون ضدالمجهول، الخطر، المفاجيء؟ هل سحقتنا
«الحكمة» فلا نستطيع بعدها أن نشرئب نحو البحث
والتساؤل»؟ ..

ومهما تكن خلفية هذا القول وغاياته فنحن مع
صاحبه في رفض « اخلاقية الحكمة » في الشعر العربي
الحديث ، واستبدالها « باخلاقية التساؤل » ان صح
التعبير . ونحن اذا بررناها في الشعر العربي القديم ،

او الشعر العربي الجديد - القديم . فذلك لان الشاعر القديم كان شاعر النموذج الجاهز في القيم والاخلاق والعادات وحقائق الوجود ، يحتذيه ويصب شعره على مثاله . حتى النقاد في اكثريتهم الساحقة كانوا سلفيين يقيمون الشعر على أساس احترامه لذلك النموذج او تنكره له .. وكثيرا ما بدّعوا كل شاعر يخرج بعض الشيء عن السمت المرسوم ، وكالوا له شتى التهم : كالغموض والشعوبية والهرطقة .

يحاوّر الأشخاص والأشياء :=====

وبعد ، هذا هو الاعشى : محاور متعدد الأصوات ..

حاور الصنّج ، والناقة ، والظليم ..

حاور الآخرين بالذهاب اليهم ، ولو على اطراف الجزيرة .

حاور الخمرة والخمارين .. وبالحوار انقلب المحاور صديقا اليفا مشاركا ..

(١) زمن الشعر ط ٢ ص ١٤٤ دار العودة - بيروت ١٩٧٨ .

حاور المحلق وبناته العوانس ، فانقلت ابو كلاب
سيدا ، وانقلبن عرائس ..

حاور عتاة قريش ، والصعاليك ، ورواد
المواخير ..

حاور السجان وشریح وكسرى وقيس وعبد
المسيح ..

دخل بالشعر ، الى صميم الأشياء والناس ،
واللغات ، والحضارات والأديان والتوافه .. الأعشى ،
في نظري ، اول من اخضع الشعر للحوار ، والأخذ
والرد ، والمتاجرة ، والقصة ..

رافضا ، بعض الشيء ، الاتباعية الموروثة ، خاصة
في المطالع ، فلم يقف على الاطلاع ، ووقف على
الخمرة ، ودخل الى الحانوت ، رأساً ، وبلا
مقدمات ..

تصحبه « شلاشيله » ورفاقه ، وحرته ، وريادته ..
وهناك ، شربها مع كل هؤلاء .. وغناها .. وشربها ،
خارج الحانوت ، مع الكبار والصغار ، مع الاغنياء
والفقراء ، وعاقرها في جميع حالاته :

على كل احوال الفتى قد شربتها
غنيا وصعلوكاً وما إن أقاتها^(١)
كما سماها بما يليق بها من أسماء الحضارة وكنى
الفرس والروم والمجوس ..

وفي الهجاء سمي الأشياء باسمائها ، وكشف
السوءات والمساويء بلا مواربة ، ولكن : بلا وقاحة .
وفي المدح والفخر وصل الارض بالساء وجعل المجد
حكراً على قبيلته ونفسه واصدقائه ..
وحين لم يجد ما ومن يحاوره .. مات !

ذلكم هو ما يقربه منا : حواريته وشعبيته
وصراحته !

وفي الحقيقة : ان الشعر حوار فني ونفسي بين
الشاعر والأشياء ، والصور والقيم ، والاشخاص
والرموز ، يعانق ما يرضيه منها ، فيغنيه ، ليحييه ..
ويرفض ما يؤذيه منها ، فيعيبه ، ليرديه ..

وحسب الأعشى شاعريةً انه اكثر من الاستيحاء
والحوار .

(١) أقات الشيء : اطاقه ، اقتدر عليه .

تمنعه قريش ويرفعه المعري!

تقدم معنا أن شاعرنا أدرك الإسلام، وأن مشركي قريش وعلى رأسهم أبو سفيان اعترضوا سبيله وكان في طريقه إلى النبي ليعلن إسلامه بين يديه ويلقي قصيدة كان قد أعدها يوم سمع بالمبادئ الجديدة والمثل العليا التي أعلنها النبي ويشر بها. وتمضي الرواية فتزعم أن القصيدة هي:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وعادك ما عاد السليم المسهدا
وما ذاك من عشق للنساء وإنما
تناسيت قبل اليوم خلة مهّدا
ولكن أرى الدهر الذي هو خاتل
إذا اصلحت كفاي عاد فأفسدا

شبابٌ وشيْبٌ وافتقارٌ وثروةٌ
 فلهذا هذا الدهرُ كيف ترددا
 وما زلت أبغي المالَ مذ أنا يافع
 وليداً وكهلاً حين شبتُ وأمردا
 وابتدلُ العيسَ المراقيل تغتلي
 مسافةً ما بين «النجير» «فصرخدا»
 فإن تسألني عني فإِنا رب سائلٍ
 حفي عن الأعشى به حيث اصعدا
 ألا أهذا السائلُ: أين يمتُ
 فإن لها في أهل يثرب موعدا
 فأما إذا ما ادجيت فترى لها
 رقيين «جديا لا يغيب وفرقدا»
 وفيها إذا ما هَجُرْتُ عجرفةً
 إذا خلَّت جرباء الظهيرة اصيذا
 اجدَّت برجليها نجاءً وراجعتُ
 يداها خافاً ليناً غير أحردا
 فآليتُ لا أرثي لها من كلالَةٍ
 ولا من حَفَى حتى تزورَ محمدا
 متى ما تُناخي عند بابِ ابنِ هاشمٍ
 تُريحي وتُلقي من فواضله يدا

نبي يرى ما لا ترون، وذكره
 أغار، لعمري، في البلاد وانجدا
 له صدقات ما تُغَبُّ، ونائلُ
 وليس عطاء اليوم مانعه غدا
 أجِدُّكَ لم تسمع وصاة محمد
 نبي الإله، حين أوصى واشهدا:
 إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
 ولاقيت بعد الموت مَنْ قد تزودا
 ندمت على ألا تكون كمثله
 وأنك لم ترصد لما كان ارصدا
 فإياك والميتات لا تأكلنَّها
 ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
 وذا النُصْبِ المنصوب لا تَنسُكُنَّه
 ولا تعبد الأوثان، والله فاعبدا
 وَصَلِّ على حين العشيات والضحى
 ولا تحمد الشيطان، واللَّه فاحمدا
 ولا السائلَ المحرومَ. لا تتركُنَّه
 لعاقبة، ولا الأسير المقيدا
 ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة
 ولا تحسبن المرء يوماً مُخلدا
 ولا تقرين جارة، إن سرها
 عليك حرام، فانكحرن أو تأبدا

ومهما قيل في هذه القصيدة (العصاء ١١) فإني لا أرى فيها إنساناً ينوي أن يُسلم حقاً.. فليس تنضح عنها حرارة الشوق إلى الدين الجديد. ولا تلك الלהفة التي يتصور معها صاحبها طلباً للخلاص.. فلا يهدأ له بال «حتى يزور محمدا» كما زُعم أنه قال. بل إنه توارى خلف ناقتة وجعلها هي التي «لا يرثي لها من كلاله ولا من حَفَى حتى تزور محمدا» ثم إني أراه ما فتيء منشغلا بفتاته «مَهْدَد» - ويا ليتها فتاة حقيقية - أكثر من انشغاله بملاقة النبي والاستماع إلى مبادئه ومثله وتعاليمه. ولعله قد فطن أخيراً، وفي منتصف القصيدة، إلى أنه بصدد مدح الرسول، فنادى ناقتة وأقسم ألا يرثي لها من كلاله حتى تنتهي به إلى رحابه بَدَلْ أن ينتهي بها.. ثم نراه ينيخها عند باب النبوة «لتلقى من فواضل النبي يداً... بدل أن يتلقى هو من مبادئه وتعاليمه ما يتطهر به من درن الجاهلية.. وبعد، فليست هذه مما يسمى «مشاركة وجدانية، حين استخدم الناقة وجعلها تشاركه مشاق السفر إلى مكة أو يثرب، بل هي مواربة وتحايل يخفي وراءها نفساً جاهلية غير تواقفة، ولا مشتاقة قادمة بكل جوارحها إلى غايتها، تتعجل التوبة والغفران.. لا إلى الصدقات، ولا إلى الأعطيات! لكان النبي لا يُقصد إلا من أجل توزيع الصدقات.. ثم إن تعاليم الإسلام لا

تأتي، في هذه القصيدة الفاشلة، في المقام الأول من سائر التعاليم والمبادئ.. فنراه يسارع إلى ذكر بعضها: كالامتناع عن أكل الميتة، وعبادة الأوثان.. والأدهى من ذلك أن الأعشى لم يصور نفسه في «عصمائه» خاشعاً تائباً منيباً ووجهاً لوجه أمام النبي وظل مختلفاً وراء ناقته وفناته وذكرياته وأحوال صباه وأسفاره.. حتى إذا انتهى من طوافه بعيداً عن ممدوحه، لبث بعيداً عنه.. وراح يخاطب أهل يثرب ويروي لهم بصورة الغائب بعض التعاليم الإسلامية التي سمع بها.. من مثل التزود بالتقوى، والندم، يوم الحساب، على عدم التزود بها.. والامتناع عن عبادة الأوثان، وإقامة الصلوات الخمس، والتصدق على السائل والمحروم، واجتناب الزنواجر واحترام المرأة ولا سيما الجارة، والتقرب إليها بالزواج، وإلاّ فالتأبد، أي البقاء أعزب إلى الأبد، ذلك خير وأبقى.

مما تقدم تتضح، في هذه القصيدة البليدة، الحقائق التالية:

إنها، برمتها، منحولة مصطنعة وضعها بعض شعراء قريش من غير المضربين لينالوا من النبي ودعوته، ومن الأعشى على السواء. من النبي حين صوره، في القصيدة، أقرب إلى كونه زعيماً أو رئيس قبيلة غنياً..

يوزع الصدقات والأعطيات لا نبياً مرسلأً فقيراً «عائلاً» .
والأعشى، حين جعلوه يلهو عن غايته بأمور جاهلية
وذكريات أعز عليه من مطلبه، فقدمها وأخره . .

وتلطف خلف ظل ناقته الكثيف، بدل أن يدخل إلى
رحاب النبي المنيف مباشرة، وبحرقة النادم عما أسلف
وأساء، والاسترسال في مخاطبته أو الضراعة إليه،
والارتفاع إلى مستوى شخصيته الخارقة بربانيته
ونورانيته والعيش في رحابها، وهو القادر فعلاً لو كانت
القصيدة حقاً له . . كما فعل كعب بن زهير وقبلة حسان
والحواريون من شعراء الدعوة. علماً بأن الأعشى أستاذ
لهم في مجال الشاعرية والتأثر بأشياء الحضارة ولو بنسبة
ضئيلة . .

· أما الصياغة فليست على الإطلاق اعشوية متينة
السبك بارعة الخيال: كل ما هنالك أبيات تائهة
ضحلة، ضعيفة الأركان هزيلة البنيان إلى درجة الركاقة
والزحاف النظمي والايقاع المضطرب. أما ناظمها، وهو
نمير الأعشى، فحتماً، فليس من طبقة فحول الشعراء
بالتأكيد . . فنحن نربأ بأبي بصير، وهو من هو أصالة
وأوسيةً ألا يرتقي، في هذه القصيدة المزعومة، إلى
مصاف النبي، وهو من هو . . فالقصيدة، إذن، لا

شك منحولة مدسوسة لغاية في نفس يعقوب... وهذا ما أشار إليه طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي صفحة ٢٩٥ وفصله وذكر أسبابه.

والحقيقة الثانية هي: أن الأعشى لو كان حقاً يريد أن يُسلم، ويتطهر بالإسلام، ويغسل به أوزاره، لما قفل راجعاً، إلى خمرته وهو الشيخ الكهل، بمجرد أن نهاء المشركون عن بلوغ قصده، وبمجرد أن النبي ينهي عن شرب الخمرة.. فمن كان كالأعشى، في أخريات أيامه وقد أثقلته أوزاره، أحر به ألا يرتد، ولو وهبه أبو سفيان مائة ناقة جزور حمراء.. أو هكذا يخيل إلي.. وهو ليس من الغباء بحيث لا يدرك مدى ما في نصيحة قريش من غش.. أو أنه لم يسمع من جملة ما سمع، بتحريم النبي للخمرة ونهيه عنها..

ويجيء المعري - بعد أربعة قرون - ليرفع الحيف عن الأعشى ويقر له بالشاعرية، والكرامة عند النبي والإمام علي، نكاية بأولئك الشعراء الذين يتربعون على الأرائك في الجنة، وهم مثله وأكثر منه جاهلية وكفراً^(١).

أما هو فيصوره أبو العلاء وقد راحت زبانية جهنم،

(١) رسالة الغفران تحقيق نبت الشاطيء ص ١٧٧ ط ٦ دار المعارف.

تدفعه دفعاً إلى الجحيم . فلماذا؟ .. لاحظ النقد المرير الذي يرمز إليه حكيم المعرة مشيراً إلى التسرع في المحاكمة هناك!! ولولا مبادرة الأعشى، وإسراعه في رفع شكواه وضراعه إلى النبي حين رآه وقد تجمع حوله الأقارب والأصدقاء والمتضرعون من كل أمم الأرض يسألونه الشفاعة .

تماماً كضراعة الأعشى في الدنيا حين أُسِرَ عشوائياً، إلى شرحبيل بن السمّوأل الذي كان في ضيافة أسرهِ فأطلق ضراعه تلك ضمن قصيدة قصصية رائعة رائعة معروفة، أدت إلى اطلاق سراحه يومها . فكيف لا يطلق سراحه هنا، في الآخرة، وينتقل من الجحيم إلى النعيم، إنصافاً له على أنه قد نوى - يوماً - أن يُسلم ولو لم يُسلم؟ ... وإلا فما الفرق، وأين العدالة؟! ويروي له أبو العلاء (في الرسالة) بيتين غير موجودين في ديوانه فيثبتهما له بالرغم من كذب الرواة حين نسبوهما إلى عمرو بن العلاء وراحوا يعنعنون النسبة، كابراً عن كابر، وشيخاً عن شيخ .

ويبدأ التصحيح على الصراط بين الجنة والنار حين يهتف الهاتف (وهو الأعشى): أأنا صاحب هذين البيتين، وليس عمرو بن العلاء . ولقد مَنَّ الله علي بعدما صرت

من جهنم على شفير وئيسست من المغفرة والتكفير،
 فيلتفت إليه الشيخ هشاً بشاً مرتاحاً، فإذا هو بشاب
 غُرانتق، غَبَرَ النعيم المفاثق^(١)، وقد صار عشاءً حَوَراً
 معروفاً، وانحناء ظهره قواماً موصوفاً. فيقول: أخبرني،
 كيف كان خلاصك من النار، وسلامتك من قبيح
 الشنار؟ فيقول: سَحَبَتِي الزبانية إلى سَقَر، فرأيت رجلاً
 في عَرَصَاتِ القيامة يتلألاً وجهه تلالؤ القمر، والناس
 يهتفون به من كل أوب: يا محمد، يا محمد، الشفاعة،
 الشفاعة! ثُمْتُ بكذا، وَثُمْتُ بكذا. فصرختُ في أيدي
 الزبانية: يا محمد أَغِثْنِي فَإِن لِي بِكَ حُرْمَةٌ! فقال: يا
 عَلِي، بادره فانظر ما حرمته؟ فجاءني علي بن أبي طالب
 صلوات الله عليه وأنا أُعْتَلُّ كي أُلْقَى في الدرك الأسفل
 من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا
 القاتل:

ألا أيهذا السائلي أين يَمَمْتُ
 فلإن لها في أهل يثرب موعدا
 فأَلَيْتُ لا أرثي لها من كلاله
 ولا مِن حَفَى حَقَى تَلَاقي عمدا

(١) عيش مفاثق: ناعم، وتفتق: تأثق (الرسالة).

وذكر للإمام علي سائر أبيات قصيدته التي جاء يوماً
ليلقيها على مسامع النبي في دار الدنيا، ولكن كفار
قريش منعه وردوه عن قصده، كما تقدم معنا .

ويقول الأعشى: قلت لعلي: وقد كنت أومن بالله
وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجاهلاء.
فمن ذلك قولي: (من رائية في مدح قيس بن معد يكرب،
الكندي).

يرأح في صلوات المليك
طوراً سجوداً وطوراً جؤاراً
بأعظم منك تقى في الحساب
إذا النسومات نفضن الغبارا

فذهب علي إلى النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، هذا
أعشى قيس قد روى مدحُك فيك، وشهد أنك نبي
مرسل. فقال: هلاً جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي:
قد جاء ولكن صدته قريش وجهه للخمر، فشفع لي،
فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرأ، فقرت عينا
بذلك. وإن لي منادح في العسل وماء الحيوان (بمعنى
اللبن هنا) الخ..

وهكذا ينقذ الأعشى نفسه، أو ينقذه المعري، على

الأصوب، ويخلصه من النار ومن جور الرواة وجهلهم
ومن قریش في آن..

مع شرحبيل برسالة شعرية شفوية من وراء قضبان
السجن.

ومع النبي بواسطة الإمام علي..
ولنتأمل، بعد، الخيال العلائي والنظرة النقدية
العلائية الجريئة البعيد الرمز، إلى حقيقة شعر وشعراء،
وجنة ونار، وبراءة أحرار، وتصحيح مفاهيم وأفكار،
وفضح أسرار. إنها المأساة إياها في دنيا الأقدار حين
تنقلب ملهاة في عالم الليل والنهار، وحتمية قاهرة في
الدينونة بين يدي قاهر جبارا... ولولا شفاعة محمد
وعلي لقذف الأعشى في دار ليس لها قرارا ويبرز الحق،
في آخر الصراع، لينتصر على شراسة الأقدار حيث
الرحمانية أقوى من الأقدار..

ويكتمل العدل الإلهي - في رؤيا المعري - كما يشاء
الأبرار، لا كما يشاء العابثون والفجار..

- يكفي الأعشى أنه لم يسقط في اليومي والاجترار -
كما العتاهي - بل وصل إلينا عبر المعري، بل عبر
المعاناة والتجربة.. ثم عبر طه حسين أخيراً لا آخراً..

بين دفتي الكتاب :

٥٨	تفرغه	٥	استهلال
٦٥	تحضر بدون استقلال	٩	هويته
٦٧	شلاشل بنت الأعشى	١٠	صفته
٦٩	صورة الصورة	١٢	قبيلته
٧١	مقطوعة خمرة	١٤	مكانة الخيرة
٧٧	فن التعبير فيها	١٨	سكانها
٨٠	خمرة ثلاثة	١٩	مذهبه
٩٨	نموذج اضافي	١٩	رواة شعره
١١٠	غزله	٢٢	شيطان الاعشى
١١٤	منحوتة غزلية اعشوية	٢٨	قصته مع علقمة
١٢٤	محاثيات الاعشى	٣٠	مسافر زاده الخيال
١٣٤	رفيقة سفره	٣٧	النقيضان
١٣٨	رأيه في الحياة والأحياء	٤٣	أسر أنتج رائعة
١٤٤	قيمة الحكمة	٥١	قصة أسلامه
١٤٦	بجاور الاشخاص والأشياء	٥٤	وفاته
١٤٩	تمنعه قريش ويرفعه المعري	٥٦	حياته الخاصة
		٥٧	خمرياته

